الدكتور إبراهيم بيضون

الصراع على الشام

في عصر الأيوبيين والمماليك

تحدّيات الهوية وانقلابية التاريخ



بيسان

• اسم الكتاب: الصراع على الشام
• تــــأليـــــف: الدكتور إبراهيم بيضون
• الطبعة الأولى: نيسان (ابريل) 2006م.

• الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
ص. ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان
تلفاكس: 351291 ـ 1 ـ 961
بريد الكتروني: bisanbok@lynx.net.lb

المقدمة

درج المؤرخون في مصنفاتهم وأبحاثهم، على استعادة المرويات، وبعضهم ذهب إلى إسقاط شيء من الحاضر عليها، في قراءة ظلّت تفتقد النقد بما يحصّن رؤية المؤرخ ومنهاجه ودائماً في ضوء مرجعية العقل، الأكثر نفاذاً إلى ذلك السجف الضبابي، وليست مهمته في كل الأحوال خالية من الخطر. وهي مهمة تصبح أكثر خطورة على مساحة التاريخ الإسلامي، حيث صورة الحاكم ملء المكان، ولا تنفك بهالتها تستأثر باهتمام حملة الأقلام، مؤرخين أو فقهاء أو شعراء، وجميعهم متحرّكون في ظلّه، ويكتبون بحبره، ويمتشقون سيفه في الحرب. . أما الحدث عينه، فليس يرون فيه سواه، وليس يعنيهم من تفاصيله سوى ما يتصل به من أصحاب الحظوة في بلاطه، أو بمحاولات التمرد (الفتن) المستنكرة منهم، متجاهلين في المقابل، الفئات الأخرى التي ظلّت مغيّبة في التصانيف أو المنظومات على اختلافها.

بالإضافة إلى ذلك، فإن ما يزيد مهمة المؤرخ صعوبة، هو أن المرويات حتى المندرجة فيما يعرف بالطريقة الحولية أو التأريخ بحسب السنين، غالباً ما انطوت على فجوات واسعة، ما انفكت تعرقل السياق التاريخي، وتحيله إلى مجرّد اختزال انتقائي، على حساب «تاريخ آخر» لم يأت على ذكره المصنِّفون المأخوذون بحركة السلطة في عالمها الخاص، وهم في الأساس بعض أدواتها،

والمروّجون، كما الشعراء والفقهاء، لسياساتها في الحرب والسلم.

وإذا أمعنّا النظر في هذه المرويات، فلن نجد سوى المعارك ما يواكبها أولئك المصنِّفون، مستفيضين في أخبارها، كذلك الفتن يتابعونها عن شغف لتأكيد ولائهم لهذه السلطة، مسوّغين لها، وبصورة دائمة، استخدام أشدّ الوسائل عنفاً لقمع الحركات المعارضة على تباين أهدافها.

بيد أن ما يلفت المؤرخ في هذا السياق، هو أن المرويات ليست على السوية عينها في تتبّع تلك الأخبار، إذ نراها تسهب أحياناً في جانب منها، وتختصر إلى حدّ الاقتضاب في جانب آخر، ظلّ يفتقد معطيات لم تنل حظاً من الاهتمام في الدراسات التاريخية الإسلامية. ويمكن اتخاذ معركة عين جالوت، بين المغول والمماليك، أنموذجاً لهذا التفاوت بين خبر وآخر مماثل، من دون أن نجد تفسيراً لذلك، سوى طغيان هالة المنتصر، على الخبر الذي تنحسر مساحته أمام حضور القائد، المستأثر بالضوء والآخذ بكل الأنظار إليه.

كان ذلك في مقدمة الأسباب التي دفعتني إلى الخوض في موضوعة الصراع على الشام في تلك الحقبة المضطربة بالتحولات العاصفة، والتي كانت عين جالوت في صميمها، معركةً غيّرت مسار حركة التاريخ، وذلك بإنقاذها العالم الإسلامي من هجمة، ما كانت لتُبقي على شيء من بنيانه الحضاري، لو قُدّر لها الاستمرار على الإيقاع العاصف عينه. فقد انطلق المغول في مشروعهم التدميري من أقصى الشرق، لتتساقط أمامهم الدول وتنهار الشعوب راضخة قبل الأوان، حتى إذا حلّت الكارثة الكبرى، باجتياح العاصمة العباسية والقضاء على آخر رموز الخلافة، كانت الشام المنهكة في القتال ضد الصليبيين، تستسلم للأمر الواقع المريع، من دون ثمة ما يعوق الغزاة حينئذٍ عن التقدّم نحو هدفهم التالي، مصر التي أوشكت بدورها على الإذعان.

بيد أن حركة التاريخ، ليست دائماً آلة الحرب التي تأخذ بزمامها وترسم اتجاهاتها، ولكن خيار الممانعة، جامعاً عنصر القيادة إلى إرادة الصمود والغطاء

الشعبي، لا بدّ أن تنبثق منه قضية متوهّجة، تشكل مصدر إلهام في استعادة ذلك الزمام، والخروج من نفق اليأس. كان ذلك خيار مقاتل محترف، شأن آخرين من القادة المماليك، ممن استخدمهم لهذه الغاية الأيوبيون في مصر، عنيتُ به الملك المظفر «قطز» الذي كان الأسبق في اكتناه الخطر المغولي، واضعاً الفقهاء أمام الحقيقة الصعبة، بأن لا خيار سوى الحرب، التزاماً بمقولة الفقيه السنجاوي في «المؤتمر» الذي دعا إليه: «إذا طرق العدو البلاد، وجب على العالم كلهم قتالهم».

وإذا كان ابن خلدون رأى في بعض أحداث المغرب (غزوات قبلية، طاعون..) ما أحدث تحوّلاً انقلابياً في تاريخه، فإن العبارة السالفة للقائد المملوكي كانت كافية في توقيتها وارتفاعها، لمثل هذا التحوّل، ولكن في غير هذا الاتجاه السلبي، آخذين في الاعتبار حركة الاستنهاض التي أسفرت عنها، وتتوّجت بالنصر العظيم في عين جالوت. هذه المعركة بنتائجها الحاسمة، غيّرت صورة المرحلة تماماً، بإطاحتها المشروع المغولي وإيقاف مسيرته، قبل انكفائه نهائياً عن المنطقة، وبوضعها حدّاً للصراعات الأيوبية التي ما انفكّت ترهق الجبهة الإسلامية وتزعزع وحدتها، وتجعلها بالتالي مفتوحة على الأخطار الخارجية.

وما برحتْ الشام قطب هذه الجبهة، ومن دونها لا يكتمل عقد الأخيرة، ودائماً كان الموقع الجغرافي ما يُكسبها أهميتها، ويضعها، منذ ارتباطها بالإسلام، أمام دور، لم يكن متاحاً، لأي موقع آخر، التصدي بالكفاءة عينها له، سواء كانت التحديات بيزنطية أو صليبية أو مغولية، دون الانتهاء بالتحدي الصهيوني الأكثر ممانعة له. ولكن هذا الموقع، كان ما يزال عبر تلك المسافة عرضةً لتغيّرات تأخذه إلى التذبذب ما بين صعود وهبوط.. فإذا ما اقترن الدور بقيادة استثنائية، كان يعني ذلك توهج الموقع الذي يصبح من الحصانة، ما يدفع كل خطر خارجي عنه، ومن القوة ما يجعله حاضراً في السياسات الإقليمية والدولية، ومن التأثير ما يشكّل عنصر توازن أساسي في محيطه. وفي المقابل،

فإن عجز القيادة عن القيام بدورها، ينعكس تراجعاً على الموقع، وتعثّراً أمام تحدّياته، وافتقاداً بالتالي لنقطة الضوء التي تحدّد مسار حركة التاريخ وتعرّجاتها.

ولدينا الكثير من الأمثلة، انطلاقاً من هذه المعادلة، على تفاوت الأداء السياسي في الشام، لا سيما في المرحلة الصليبية، حيث تندرج غالباً في إطارها هذه الدراسة. فقد خضعت المنطقة قبيل ذلك لنفوذ الدويلات الأتابكية الناشئة تحت رعاية السلاجقة، العنصر الثالث غير العربي المهيمن بقوته العسكرية على الخلافة العباسية بعد الترك والبويهيين. ولكن السلاجقة الذين بلغ دورهم ذروته قبل نحو ربع قرن من الغزو الصليبي، أثبتوا فشلاً ذريعاً في التصدّي للأخير، إذ سرعان ما انهار الخطّ الدفاعي الأول (انطاكية) قبل حدوث اشتباك فعلي مع الغزاة الذين تقدموا بثقة أكبر، نحو هدفهم، من دون أن تعترضهم مقاومة جدّية من جانب هؤلاء السلاجقة. وبعد انتشار الصليبيين على الساحل، وتوغّلهم مسافةً في الجزيرة (الرها)، ومسافات أخرى في داخل الشام، بما فيها القدس التي أصبحت مقرّ مملكتهم «اللاتينية»، جوبهوا بردّة فعل شعبية عارمة، إلا أن مراكز النفوذ في المنطقة، وهي موزعة حينذاك بين أتابكيتي حلب ودمشق، والخلافة الفاطمية جنوباً، لم يبدر عنها ما يرقى إلى مستوى خطورة الحدث، مع الفارق نسبياً، بأن القوات الفاطمية، وقد تعرضت حاميتها لمجزرة مريعة في القدس قبيل سقوطها، شنّت حملات انتقامية ثلاث لاسترداد المدينة، واستطاعت إحداها إرباك الصليبيين في معركة الرملة، ولكن محاولاتها في هذا السبيل اصطدمت عموماً بالفشل.

وهكذا لوقتٍ غير قصير، وفيما تخلّت مصر عن دورها نتيجة تضعضع نظامها، وانصرفت حلب إلى شؤونها الخاصة، كذلك السلاجقة لم يصدر عنهم ما يشير إلى ردّة فعل ما ضد الغزو الصليبي، كانت دمشق، عبر موقعها جبهةً على تخوم الاحتلال، أمام تحدياته المباشرة، وعليها وقع عبء مقاومته. ولكن حاضرة الشام، تحت قيادة الأتابك «طغتكين»، لم تملك حينئذٍ مقومات هذا الدور الذي انحصر في الجانب الدفاعي، ليس ضد الصليبيين الطامعين في

السيطرة عليها، ولكن ضد أتابك حلب، في سعيه الدائم إلى السيطرة على هذه المدينة. وإذ أظهر طغتكين من الدهاء ما ساعده على إبعاد الخطر عن أتابكيته، لاجئاً عند الضرورة إلى التحالف مع بعض الأمراء الصليبيين، فقد بدا حينذاك أصغر حجماً من الدور الذي تطلّب قيادة متكافئة مع التحديات الكبيرة.

بيد أن السلطان السلجوقي، ربما بضغط من الخليفة أو بتأثير من النقمة الشعبية، بادر إلى التحرك، موعزاً إلى أتابك الموصل (مودود) إعداد حملةٍ ضد الصليبيين في الشام، على أن يجري تنسيق لهذه الغاية مع أتابك دمشق. وسيؤدي ذلك، ربما من غير أن يخطّط السلطان له، إلى منعطف جديد في المنطقة، بدتْ تجلياته في أول انتصار فعلي على ملك بيت المقدس في معركة طبرية الشهيرة (507/ 1113)، ليصبح «مودود» شخصية مهمة، وفي صميم الدور الباحث عن قيادة بهذا المستوى له. ولكن ثمن النصر كان باهظاً على صاحبه، فسرعان ما اغتيل على يد «مجهول» في باحة المسجد الأموي، وكان الأكثر شُبهة في تدبير ما حدث، الأتابك طغتكين الذي وجد في انتصار أتابك الموصل الشجاع، ما يُضعف نفوذه في أتابكيته العاجزة عن مثل ذلك الإنجاز الكبير، إلا أن التخلّص من المنتصر لن يخمد تلك الحركة المندفعة من الموصل عينها، والتي بات الالتزام بها من تقاليد أتابكتها الثلاثة الشهداء[1] الذين تصدّوا لدور أخذ يكتسب حينذاك مضمونه الجهادي، بعد أن غاب هذا المصطلح وقتاً طويلاً عن أدبيات الحرب في العهود الغابرة.

أما البداية الحقيقية لتلك الحركة، فقد تزامنت مع تحرير «الرها» (539/ 1144)، على يد أتابك آخر من الموصل، هو عماد الدين زنكي، قبل أن تبلغ ذروتها مع ابنه الأتابك الكبير نور الدين محمود، مجسِّداً الأنموذج المتكامل، قيادة ودوراً، مع أهمية الموقع بعد استيلائه على دمشق، مما كانت المرحلة في أمسّ الحاجة إليه. وليست مصادفة أن تتراجع حينذاك عمليات الصليبيين، التي

---

(1) مودود، آق سنقر، عماد الدين زنكي.

توغّلت من قبل في عمق الشام، مستهدفةً حلب ودمشق، فيما تطورت العمليات النوعية من جانب نور الدين، محقّقاً اختراقات مهمة حينذاك للحصون المهمة المتاخمة له.

وفي ضوء ذلك، فإن الشام حتى في عهد طغتكين وخلفائه، لم ترضخ كلّياً لحالة الركود، ولم تفقد صلتها بتيار الممانعة، الذي كان من تعبيراته المبكرة على أرضها، بروز تشكيلات المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي، ومنها على سبيل المثال، «المتطوعة»، و«الأحداث»، وبعض القبائل العربية، لا سيما طيء وكلاب اللتين أبلتا في معركة طبرية السالفة، وقد بلغ هذا التيار ذروة اندفاعه في معركة حطين التي جاءت تتويجاً لنضالات نور الدين، وقائده الأيوبي من بعده. ولكن الموقع كان ما يزال يفرض عليها (الشام) تحديات تفتقد مواجهتها الدور، الذي سرعان ما أخذ في الضمور بعد وفاة صلاح الدين، وتقاسم دولته بين أمراء الأسرة الأيوبية. وثمة ما يُطرح من التساؤل هنا، إذا كان الغزو المغولي للشام، سيتمّ بمثل السهولة لو كانت الأخيرة في موقعها جبهة متّحدة، كما بدت من قبل في معركة حطين، إذ لم يجد الغزاة أمامهم، سوى دولة مفككة وأمراء متصارعين، يفتقدون الحدّ الأدنى من مقومات الصمود. ولا نملك جواباً في الواقع على مثل ذلك السؤال، إذ إن المؤرخ يرى إلى ما حدث، وما كان سيحدث ليس من شأنه التوقف عنده، وإن كان عليه عدم إغفال أهمية التوقيت، عنصراً بارزاً في هذه المسألة، لا سيما في العمليات الكبرى التي تهزّ سياق التاريخ.

ومن هذا المنظور، فإن إخفاق الأيوبيين في الشام، كان يقابله نجاح باهر للمماليك الذين أدركوا بوعيهم أهمية الدور، وأوتوا من القيادة الفذّة، بما يتكافأ مع خطورته، ويتحكّم بالتوقيت الموائم لقرار الحرب، ما أسفر عن النصر الكبير في عين جالوت. هذه المعركة في نتائجها على العالم الإسلامي حينذاك ليست تختلف عن تلك التي تمخّضت عن «بواتييه» في العالم الغربي، قبل نحو خمسة قرون ونصف من الزمن، لا سيما في النظرة الأوروبية إليها، بأنها أنقذت ذلك

العالم من سيطرة كانت وشيكة للعرب المسلمين. وإذا كانت الدراسات على هذا المدى قد أسهبت ولا تزال في قراءة هذه المعركة، فإن عين جالوت لم يكن لها سوى القليل جداً من ذلك في الدراسات العربية، وربما تفوقت عليها، وإن بصورة غير مباشرة، تلك التي وضعها المؤرخون الغربيون عنها.

قد يكون ذلك ما يسوّغ هذه الدراسة، في محاولتها تسليط الضوء على مرحلة تحوّلية بارزة في التاريخ العربي الإسلامي، تلك المنتشرة خصوصاً على مسافة صحوتين: الأولى زنكية ـ أيوبية، امتدت من الرُها إلى حطين، والثانية مملوكية انطلقت من عين جالوت إلى حيث القضاء على آخر الحصون الصليبية في الشام. وعلى ذلك المدى، لم تهدأ آلة الحرب، فكان من الطبيعي أن يتأثر بهذا المناخ، المجتمع بفئاته ونمط إنتاجه الاقتصادي، فضلاً عن ثقافته التي حملت بدورها سمة الحرب، ما اقتضى تخصيص فصل خاص بالشعر، كانت الدلالة التاريخية، ما توخينا استخلاصها منه، لا سيما وأن بعض الشعراء من العهدين، كان له حضور، تعدّى الأدب إلى السياسة في ذلك الحين.

وبناء على ما سلف جاء تبويب الدراسة معبّراً عن الاتجاه الذي اندرجت فيه رؤيةً ومنهجاً وأسلوباً، من دون أن تكون الرواية فقط ما توكأت مادةً عليها، ولكن النصّ الشعري ما اعتمدته أيضاً، سبيلاً إلى معطيات ربما أكثر نبضاً بحركة الحدث من نصّ التاريخ في بعض الأحيان. ولكن كليهما في النتيجة كان يؤرخ للنخبة، سلطةً في المقام الأول، ومن يدور في فلكها ثانياً، من دون أن يعرض للفئات الأخرى التي ظلّت على هامش الحدث بصورة عامة.. وهي ثغرة ما انفكت تشكل عقبة أمام الباحث، في محاولة الوصول إلى مقاربات تنشر الضوء على مساحات واسعة من هذا التاريخ، وليس على جزء منه فقط.

أما المصادر التاريخية، فكانت تلك المعاصرة للمرحلة أو المتأخرة عنها، فيما النصوص الشعرية استُلّت من تلك المواكبة عن كثب للحدث، وبعض أصحابها كانوا قريبين من السلاطين، مشمولين برعايتهم، على غرار الأصفهاني

في العهد الأيوبي، وشهاب الدين محمود في عهد المماليك، ما أكسب هذه المرحلة دينامية، على الأقل في هذه المواكبة المباشرة، مما لا نجده في مراحل متقدمة عليها، كان الحدث سابقاً بمسافات على تأريخه.

ويبقى أخيراً أن عين جالوت، وإن لم تتخذ موقعها المحوري في هذه الدراسة «الصراع على الشام في عصر الأيوبيين والمماليك»، فإنها من دون شك كانت حاضرة في سياقها، من دون أن تكون محصورة في عالمها الخاص بعهدها، وإنما جاءت تعبيراً عن تراث جهادي، بدأ يتراكم منذ تحرير «الرها»، فالنصر في حطين، حتى معركة فارسكور التي برز فيها لأول مرة المماليك، قوة عسكرية واعدة، عشية الغزو المغولي للشام. فليس ثمة فواصل قاطعة في هذا السياق التاريخي، الذي كان ما يزال في انسيابه وتعثّراته، مفعماً بنضالات نور الدين، وما أسفر عنها من توحيدٍ لجبهة الشام ومصر، لم يكن ممكناً مواجهة تحديات الاحتلال الصليبي من دونه.

بيروت 10/ 10/ 2004

الفصل الأول

الشام والصليبيون

الصحوة الأولى

أزمة النظام العباسي

تولى العباسيون الحكم في أعقاب ثورة دموية على الأمويين، كانت خراسان، بصخبها وصراعات القبائل على أرضها، نقطة انطلاقتها. ولكن الشام حيث مقرّ الدعوة، لم تكن في منأى عن ذلك الحدث الكبير، إذ أسهمت بدورها في زعزعة النظام الأموي، لا سيما بعد خروج القبائل اليمنية من المعادلة التي ظلت مصدر التوازن فيه، منذ تأسيسه على يد معاوية بن أبي سفيان. فلم تكن مصادفة حينذاك، أن يجتاح الغضب «اليمني» أقطار الخلافة من مشرقها حتى مغربها بما فيه الأندلس، في وقت كانت الدعوة العباسية في الشام، مستفيدة من هذا الواقع، تعمل على اختراق الجبهة الأموية مستقطبة عناصر تمت بصلة قربى للعباسيين (زياد بن عبيد الله الحارثي)[1]، من القبائل اليمنية المتحوّلة إلى جبهة المعارضة في ذلك الوقت.

ولعل إسقاط الخلافة الأموية أخذ يشكل ابتداءً من مطالع القرن الثاني الهجري جامعاً مشتركاً، بين العباسيين، الطامحين إلى الحكم، وبين القبائل اليمنية الساخطة على إخراجها منه. وعدا ذلك، لم يبدر من أركان العهد الجديد، ما يعبّر عن تفاصيل أخرى في مشروعهم، والتي ظلّت مبهمةً يختزلها

(1) تاريخ خليفة بن خياط، ج2 ص630، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج5 ص448.

شعار ملتبس (الرضا من آل من محمد)، مفرغ من أي مؤشر إلى التغيير الفعلي، باتجاه نظام أكثر عدالة من سلفه.

وإذا توقفنا عند خطبة أبي العباس، إثر بيعته بالخلافة، لن نجد فيها ما يشي عن اختلاف في النظرة إلى السلطة، إذ كانت خلافاً لذلك أكثر تكريساً في واقعها للحكم الفردي وتقليد الوراثة فيه، وبالتالي أكثر تسويغاً لشرعيتها المنبثقة من الانتماء لبيت الرسول (الحمد لله الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ)[1]. وبدا حينذاك أن العباسيين متشبثون بهذه النظرة التي اتخذت في عهد المنصور بُعدها الإلهي المنقطع عن الشعب، ليصبح المال مال الله، والجند جند الله، والخليفة خليفة الله وظل الله، كما تداول الخلفاء تباعاً الألقاب الإلهية، منذ المعتصم بالله حتى آخرهم المستعصم بالله الذي انهار حكمه ولم يجد حوله من يدفع «البلاء» عنه أو عن لقبه.

كان ذلك نتيجة واضحة لأزمة الحكم في الإسلام، والتي تجلّت بدايةً مع اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وتولي الخليفة عثمان فيما يشبه التعيين من بعده، ممهّداً عن قصدٍ أو غير قصد، لتداول السلطة في الأسرة الحاكمة، وذلك من خلال صيغة الوراثة، وما رافقها من أزمات جعلت الخلافة (الإمامة) في مفهومها الإسلامي الشمولي الذي عبر عنه جعفر الصادق بأنها «المفترق للطرق وعندها اجتماع ذلك الافتراق»، تصبح أكثر اقتراباً من المُلْك بنزعته الفردية، وابتعاداً عن الجماهير المغيّبة عن أي دور في ذلك الحين. ولم يتعظ الحكم العباسي بالتجربة الأموية، حين تبنى منذ نشأته النظام الوراثي، مسهماً إلى حدّ كبير في تعطيل الحياة السياسية، من خلال الحصار الذي فرضه على النخب، حائلاً بينها وبين دورها التوجيهي والإرشادي، ما أدى إلى تفريغ الأمة من قضيتها، وجعلها تستكين لمشيئة الخليفة المستمد «شرعيته» من الله. ولم تكن تهمة «الزندقة» التي طاولت المشتبه بولائهم لهذه الشرعية، إلا من ظاهرات

---

(1) الطبري ج7 ص426.

هذا التفرّد بالسلطة المطلقة، والنظرة إلى كل معارضة لها، على أنها اعتراض على المشيئة الإلهية.

وإذا كانت النخب المهمّشة قد استكانت للأمر الواقع، مرغمةً على التخلي عن هواجسها، بما يعني الأمة وشؤونها، فكيف بالمرتزقة الذين استُخدموا غطاءً عسكرياً للخليفة، يتحصّن به من الأخطار الداخلية والخارجية؟ فهو سؤال لا يجد المؤرخ بدّاً من طرحه أمام التداعيات التي مرّت بها الخلافة العباسية في أعقاب الصراع بين الأخوين الأمين والمأمون، وما آل إليه من تغيّرات أظهرت الخليفة عاجزاً عن الاحتفاظ بمنصبه من دون حماية عسكرية. فلجأ في سبيل ذلك إلى تشكيل فرق من العنصر التركي، مما كان برأي المؤرخ «سيّد أمير علي» من «أعظم ما ارتكبه المعتصم من الأخطاء» وأسهم لاحقاً «في تقويض دعائم الخلافة»[1].

وكانت مادة هذه الفرق أساساً، من المماليك المرتزقة، القادمين من آسيا الوسطى، وقد أخذوا يتكاثرون في ذلك العهد، وينخرطون قوة مستقلة في جيش الخليفة، فلا يتلقّون الأوامر إلاّ منه. وليس ثمة شك أن الأخطار المحدقة بالمعتصم، دفعت به إلى الاستعانة بهم، لا سيما في مواجهة التيار المؤيد لابن أخيه العباس بن المأمون، منافسه على الخلافة، وفي متابعة التصدي لحركة بابك الخرّمي، المستمرة من العهد السالف، فضلاً عن إشراكهم في الحملات ضد البيزنطيين، حيث أثبتوا كفاءة قتالية عالية في المهمّات التي أُسندت إليهم في ذلك الحين. ولكن الزمام أفلت من يد الأسرة الحاكمة بعده، حين أصبح القادة الترك، رقماً صعباً في المعادلة السياسية، يعيّنون الخليفة ويعزلونه، إن لم يقتلوه أو يسوموه العذاب، أو يتصارعون فيما بينهم على النفوذ، فيما السلطة المركزية تتهاوى، وتتفرع عنها دويلات مستقلة أو شبه مستقلة في المشرق والمغرب.

وحين ضاقت بغداد بسلوكهم، واشتدّ سخط الناس عليهم، تلقفت

---

(1) مختصر تاريخ العرب، ص248.

الفرصة، مجموعة أخرى احترفت بدورها القتال، فكان سبيلها للحلول مكانهم، وهي المتمثلة بالبويهيين القادمين من الديلم في بلاد فارس. وإذا كان ما يميّز هؤلاء، بأن عهدهم كان أكثر استقراراً، وبأن إنجازات ما ارتبطت بهم على مستوى الفكر والاقتصاد والانفتاح الديني، فإنهم لم يختلفوا عن أسلافهم في الاستئثار بالسلطة التي أصبحت وراثية بينهم، بعد أن كانت خاضعةً للأكثر قوة في عهد سيطرة الترك. وفي ضوء ذلك استمرت مصادرة الخلافة، ومعها الرأي العام الذي بقي معزولاً عن حركة السياسة، من دون أن يطرأ تعديل على هذا الواقع في العهد السلجوقي الذي شهد تحوّلات، وسّعت من دائرة التشرذم مع ظهور الدويلات الأتابكية في الشام والجزيرة، فضلاً عن التحوّل الكبير المتمثل بالغزو الصليبي الذي استهدف المنطقة، من دون أن يستفز ذلك الخلافة، أو تحديداً، قوى الأمر الواقع المهيمنة عليها.

وقد وصف ابن الأثير حالة الارتباك والأسى بعد مذبحة المسجد الأقصى، حيث كانت «جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموقع الشريف»[1]، وقد دفع ذلك من سمّاهم «المستَنفرين» إلى التحرك والحثّ على الجهاد، فغادروا «الشام إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهَرَوي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا، وبكوا وأبكوا، وذُكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظّم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال. . فعادوا من غير بلوغ أرب ولا قضاء حاجة»[2].

ولم يجهل «المستنفرون» في الواقع ما آلت إليه الخلافة من العجز، كما لم يجهلوا أن القرار السياسي في يد السلاجقة الذين أدت تداعيات انتصارهم قبل سنوات على البيزنطيين في معركة ملاذكرد (1071م)، إلى تحريك الموجة

(1) الكامل في التاريخ ج1 ص284.
(2) المكان نفسه.

الصليبية في الغرب، فيما كان أحد أمرائهم (باغي سيان) قد سارع إلى الفرار من انطاكية ولما يكتمل بعد حصارها، ممهّداً، وبصورة فاجأت الصليبيين أنفسهم، إلى انتشارهم على الساحل الشامي حتى بيت المقدس دون عناء كبير. ولكنهم ـ أي «المستنفرين» ـ وهم بعد متشبثون بالخلافة ولا يعترفون بغيرها سلطةً شرعية، كانوا ما يزالون يعقدون عليها الآمال لاستنهاض العالم الإسلامي إلى دفع تلك الموجة العاتية عنه. ولكن باستثناء موقف الفاطميين، ومحاولتهم التي انتهت إلى الفشل في استرداد بيت المقدس، لم يبدر من القوى الإسلامية الأخرى، ما يشكّل تصدّياً فعلياً للغزو الصليبي الذي أخذ يترسّخ نفوذاً في المنطقة، في الوقت الذي انطوت فيه الجماهير على الصمت، بانتظار أن تنتج المرحلة قيادات في مستوى التحدي، وتحقق ما أخفقت قوى الأمر الواقع في القيام به.

وتمرّ السنون ثقيلةً بعد ذلك. . والخلفاء العباسيون يتداولون حينئذٍ السلطة مفرغة من القرار السياسي[1]، فيما كان على أتابكة الشام، التابعين عملياً للسلطان السلجوقي، أن يواجهوا التحدي بما يلائم ظروفهم التي ساقتهم أحياناً إلى التحالف مع العدو حفاظاً على مواقعهم. ولم يقتصر الأمر على الغزو الصليبي، إذ وجدت الخلافة العباسية نفسها أمام خطر يداهمها من الشرق، بعد أن فرغ المغول حينئذٍ من اجتياح مملكة خوارزم وتدمير حضارتها، ثم تقدموا نحو خراسان ليصبحوا على تخوم العراق (621هـ)، قبل أن يجتاحوا بعد سبع سنوات إقليم الجزيرة ويمعنوا قتلاً وتدميراً في مدنه الكبيرة[2].

وثمة ما يلفت في هذا السياق أن المرويات وقد أخذ بها مؤرخون حديثون، تجعل الغزو المغولي للعراق، خاضعاً لتداعيات العلاقة التي شابها توتّر شديد بين جنكيزخان وملك خوارزم، بعد قتله رسول الأول، ما أدى إلى

---

(1) ابن الأثير، الكامل ج12 ص391، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص470.
(2) ابن الأثير، الكامل ج12، ص419، 499 ـ 500.

اجتياح بلاده وتدميرها. والموقف نفسه يستعاد مع آخر الخلفاء العباسيين (المستعصم)، حين وجّه إليه هولاكو، بعد وصوله إلى تبريز، وفداً قابله الخليفة بغطرسة وعنت، ما كان سبباً مباشراً ـ برأي المؤرخين ـ للزحف على بغداد وتدميرها، على نحو ما فعل سلفه في مدن خوارزم[1].

ولعل مثل هذه الروايات ما يثير الأسئلة حول دقّتها، وإذا كانت هذه المراسلات قد حدثت فعلاً، أو أن القائد المغولي كان بحاجة إلى ما يسوّغ هجمته على العاصمة العباسية، في وقت أصبح فيه العراق محاصراً، والجيوش متأهبة للانقضاض عليه؟. كذلك نتساءل عن مدى كفاءة الخليفة الذي تظهره المرويات ضعيفاً عاجزاً، لاتخاذ موقف يتّسم بالحزم والتحدي؟ وبالتالي كيف يصبح من هذا المنظور، والخلافة فقدت موقعها السياسي منذ وقت بعيد، محاوراً بهذه الجسارة للقائد المغولي القابض على زمام الموقف في ذلك الحين؟ وليس ثمة شك أن الرواية في صياغتها الإنشائية، إنما تعبّر عن رأي صاحبها، المنحاز، ليس فقط إلى الخليفة إزاء التهديد المغولي، ولكن أيضاً ضد وزيره (ابن العلقمي) الذي اتّهم بالتواطؤ مع هولاكو وتضليل المستعصم، بكتم أخبار عنه[2]. ولعل المرويات، أو معظمها، في مثل هذه المواقف، لا تكفّ عن تسليط الضوء على خائن ما، يحمل وزر الهزيمة تسويغاً للأخيرة، ودفعاً للتهمة عن الطرف الذي تتّجه إليه. وقد لا يكون ابن العلقمي بريئاً ممّا اتّهم به، ولكن ذلك يأخذ بنا في المقابل إلى التساؤل، إذا كان هذا الوزير الذي ساند خليفةً آثره من قبل الفقهاء «للينه وانقياده»، كما يقول السيوطي[3] ـ في وقت كانت الصراعات المذهبية على أشدها في بغداد من دون أن تنال شبهة من حياده ـ خائناً بالفعل، أم أنه كان أكثر بُعداً في نظرته إلى الواقع الخطر، وأكثر حكمة في محاولته دفع العاصفة التي تقترب من العاصمة العباسية؟

---

(1) سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ص341.

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص465.

(3) المصدر نفسه، ص466.

ولكن المغول، ونهجهم في الحرب يؤكد ذلك، لم يَدر في خلدهم تسويغ اجتياحهم، أو استئذان الخليفة في هذا السبيل، إذ كانت جيوشهم في ذروة اندفاعها التوسعي، ولم يكن ثمة عائق يقف في طريقها نحو العراق الذي افتقد حينئذٍ مقومات الصمود والمقاومة. ولكن الخليفة الذي وصفه ابن كثير أيضاً باللين، مضافاً «إلى عدم تيقظه وحبه للمال وجمعه»[1]، قد وقع تحت تأثير الفقهاء ـ خصوم ابن العلقمي ـ الذين أخذتهم الحماسة للحرب، ولم يكتنهوا خطرها الحقيقي على الخلافة رمز الإسلام، بمثل ما تأثر بانصياع القادة العسكريين له، ربما لأول مرة منذ استلاب الرمز بريقه وتفريغه من مضمونه السلطوي قبل عدة قرون، والذين رأوا في الانتصار ـ إذا تحقق ـ على المغول، ما يكسب نفوذهم المتراجع أهميةً تحت لواء الخليفة.

ومن المثير حقاً، أن خيار الحرب الذي دفع به المحيطون بالمستعصم، لم يترجم فعلياً على الأرض، حيث تقدم هولاكو من همذان إلى حلوان من دون أن يصطدم بمقاومة، عدا طليعةَ الجيش العباسي، والتي سرعان ما انحاز قائدها إلى المغول، ممهّداً لهم الزحف بسهولة حتى تخوم بغداد. وعلى الرغم من ذلك ظلّ دعاة الحرب، وإن لم يملكو آلتها المتكافئة مع الآلة الكاسحة للأعداء، متشبثين بموقفهم، غير مقدّرين نتائجها القريبة على العالم الإسلامي. ولقد اختصر المؤرخ أمير علي تلك اللحظة الحاسمة، منتقداً خفّة الخليفة والمحيطين به أمام الزحف المغولي فقال: «لم يكن من الخليفة المضلّل، بالرغم من افتقاره إلى جيش قوي، وحاجته إلى المستشارين الأوفياء، وبدلاً من أن ينحني أمام العاصفة، إلا أنه أرسل جواباً تجلّت فيه الغطرسة والتشامخ، فضلاً عن أن الرعاع أهانوا وفد المغول إبان مغادرتهم البلاد، مما أثار سخط ذلك الوثني المتوحش، فزحف على عاصمة العباسيين بجيش جرّار يستطيع أن يحاصر به المدينة كلها»[2]. وإذ حاول الخليفة التصدي للحشود المغولية بتحريض من

(1) البداية والنهاية، ج13، ص205.
(2) مختصر تاريخ العرب، ص345.

قائده (الدوادار)، لجأ الغزاة إلى قطع الجسور، عازلين الجيش العباسي عن مصادر تموينه، فلقي هزيمة قاسية، ودُمّرت قوته الأساسية في ساحة المعركة[1].

وهكذا سقطت بغداد أحد أهم مراكز الإشعاع الحضاري في زمانها، وعبثت جيوش المغول فيها، قتلاً وتخريباً ودماراً، وكان ذلك يوم عاشوراء من سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة[2] (شباط 1258م). والمؤرخ السيوطي لا ينفك يصبّ اللعنة على الوزير الذي استحثّ الخليفة على مصانعة هولاكو، شأن ما قام به أسلافه مع السلاجقة[3]، ولكن القائد المغولي، لم يكن من موقع المنتصر يطمع بسلطة تأتيه من المهزوم، مؤكداً عدم استماعه للوزير ـ إن صحّ ما ذهبت إليه مروية السيوطي ـ في هذا المجال. وفي المحصلة فإن العاصمة العباسية، غرقت في بحر من الدماء، وكان الخليفة وأسرته وأعوانه من بين الذين استهدفوا بالقتل، إلى جانب الآلاف الذين طاردتهم السيوف خلال أربعين يوماً على ما تذكره الروايات التاريخية[4].

ولعل المؤرخ، وهو يستعيد ذلك الحدث المأساوي الكبير، يدرك حجم الكارثة التي نزلت بالمسلمين وحفرت عميقاً في ذاكرتهم، من دون أن يتوقّع أحد حينذاك الخروج من تلك المحنة المزلزلة. فقد تزامن سقوط بغداد وانهيار الخلافة، مع انتعاش الحركة الصليبية التي كان «رسولها» الملك الفرنسي (لويس التاسع)، قد كرّس نفسه للمهمة المقدّسة بعد ركودها منذ معركة حطين. فبدا اجتياح بغداد من هذا المنظور، وكأنه يندرج في هذه الحركة، من خلال الإيحاء بأن زوجة هولاكو المسيحية (طقز خاتون)، لم تكن بعيدة عن هذه «الحرب الصليبية المغولية»[5]، ما يفسر ربما في هذا السياق عدم التعرض للمسيحيين أو

---

(1) السيد الباز العريني، المغول ص218.

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص471.

(3) المكان نفسه.

(4) المصدر نفسه، ص472.

(5) العريني، المغول، ص222.

كنائسهم[1] إبان العمليات الحربية المدمّرة للمغول في العراق والجزيرة.

وليس ما يؤكد أن مثل هذه الدوافع دارت في خلد هولاكو، في دأبه على متابعة مشروعه التوسعي الشرقي، وربما العالمي في ذلك الحين. وما تردّد في هذا السياق من توصيف صليبي لحركته، فإنه لا يعبّر عن سمة دينية ما لها، ولكن باعتبارها حركة تدمير للحضارة، لم تختلف عن تلك التي استهدفت القسطنطينية (المسيحية) على يد الصليبيين أنفسهم قبل نيف ونصف قرن (1204) على نكبة بغداد (مركز الإسلام). فما زال القائد المغولي يتحرك بوحي عقيدته الوثنية، وبسيف «إلهه»[2] الخاص، يخوض المعارك المظفرة، ملوِّحاً به في كتابه إلى صاحب دمشق الملك الناصر الأيوبي، ومتطلعاً إلى الشام هدفاً تالياً لحملته التوسعية، دون أن يتأخر ـ أي الملك ـ في إرسال وفد بقيادة ابنه للتهنئة، طالباً مساعدته في استعادة مصر إلى نفوذه.

وهكذا، فإن الخلافة العباسية التي خضعت مبكراً لقوى الأمر الواقع في المركز، وتقاسمها الأتابكة المتنافسون في الأطراف، لم تكن مؤهلة للصمود أمام الغزو المغولي، فقد أخذت تتهاوى تباعاً الإقليم بعد الآخر. وإذ حاولت ميّافارقين (الجزيرة) عرقلة المسيرة المغولية، وجّه إليها هولاكو أحد قواده، فأنزل بها ضربة لم تكن أقلّ شدة مما نزل في بغداد (1260). وكان سقوطها إيذاناً بانصياع الجزيرة لإرادته، ومؤشراً إلى بدء المرحلة التالية من مشروعه باتجاه الشام ومصر.

كانت هذه صورة العالم الإسلامي إبان اجتياح المغول للعراق، من انهيارٍ للخلافة الغائبة عن تحدياته، إلى بقايا الأتابكيات والدويلات الأيوبية المتصارعة على النفوذ، والعاجزة عن اتخاذ موقف موحّد من الصليبيين، الذين تعزّز حضورهم بعد استعادة القدس (626هـ) وتنشيط الدعم الأوروبي للمدن الساحلية، مصحوباً بدعوات الحالمين من الملوك إلى الصمود في الحروب «المقدسة».

---

(1) المرجع نفسه، ص221.

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص473.

الحروب الصليبية في تداعياتها الأولى

اعتاد مؤرخو الحركة الصليبية، ردّ الأخيرة ـ أو على الأقل أسبابها المباشرة ـ إلى هزيمة الامبراطور البيزنطي (ديوجين) المذلّة أمام السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) في معركة ملاذكرد الشهيرة (463هـ/ 1071م). فقد جاءت ردّة الفعل سريعة في العاصمة البيزنطية، حيث لجأ مجلس شيوخها إلى عزل الامبراطور، معتبراً أن ما أسفرت عنه المعركة، كان انتصاراً للإسلام على المسيحية، الأمر الذي دفع بخليفته إلى طلب المساعدة من البابا (غريغوري السابع)[1]. ولكن هذه الحركة كانت لها جذورها الأوروبية، الأكثر عمقاً، متزامنةً مع الإصلاح الديني الذي اتّسعت دائرته مع البابا ليو التاسع، الطامح إلى أن تسود العالم دولة مسيحية، يخضع لها الملوك، وإلى أن تكون لها قوتها العسكرية التي تمكّنها من خوض الحرب ضد المسلمين في الشرق، وفقاً لما ذهب إليه المؤرخ فيشر[2].

وإذا أخذنا في الاعتبار ما شهدته حينذاك العلاقات الأوروبية ـ الإسلامية

---

(1) ارنست باركر، الحروب الصليبية، ص19.

(2) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، ص143 ـ 146.

في الغرب، سواء على جبهة اسبانيا (الأندلس)، أو على جبهة صقلية، من توتّر وشحن للغرائز ضد هاتين البؤرتين الإسلاميتين، فإن الغرب الأوروبي، كان مهيأً للانجراف في هذه الموجة الصليبية، كذلك البابوية وجدت في ظلّ هذا المناخ، فرصتها لتوحيد الموقف المسيحي تحت قيادتها، ولم تتردّد حينذاك في الاستجابة لطلب الاستغاثة الصادر عن القسطنطينية، والمبادرة إلى حمايتها[1] من السلاجقة المنتشرين على تخومها في آسيا الصغرى.

وهكذا نجحت البابوية في تحويل الموقف لمصلحتها في غرب أوروبا، حيث استجاب الفرسان المتصارعون لها، ولم يجد الملوك بدّاً من الرضوخ، بعد اتساع المدى الشعبي المؤيد لدعوتها، كذلك المدن الإيطالية تحمّست لها، واجدةً فيها السبيل إلى الثراء والنفوذ، لتستكمل الحركة الصليبية عناصرها عبر مثلّث جمع الدين إلى السياسة والتجارة. فقد كانت الصورة الأوروبية متنافرة الألوان، ولكن المصلحة قاربت ما بينها، وجمعت الأطراف في جبهة، ربما في الشكل، واحدة، إلا أنها في الواقع مختلفة الأهواء والدوافع والتطلعات: البابوية تتوق إلى أن تكون كلمتها فوق كلمة الملوك، وإلى احتواء الأمراء الإقطاعيين فلا يهدرون الدم المسيحي في غير مكانه، فيما كان هاجس هؤلاء تحقيق مواقع نفوذ لهم في المشرق، بعدما تعذّر لبعضهم تحقيق ذلك في بلادهم، كذلك المدن الإيطالية في رؤيتها إلى تلك الحركة مشروعاً لا يتعدى التجارة، من دون أن تكون معنية من حيث المبدأ بشؤون أخرى مما تنطوي عليه الحرب «المقدسة».

أما على جبهة المشرق، فلم تعد الظروف عينها ـ التي استفزّت المشاعر الصليبية في الغرب ـ قائمة، إذ سرعان ما تراجعت قوة السلاجقة بعد «ملاذكرد»، وانتهى الأمر بها إلى الانقسام والتنافس فضلاً عن الصراع مع الفاطميين، خلفاء مصر، والذي كانت آخر فصوله، استعادة هؤلاء لبيت

(1) نيكيتا ايليسيف، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن، ص381.

المقدس عشية الغزو الصليبي. وليس ثمة شك أن التوقيت كان مناسباً حينذاك لهذا الغزو مستفيداً من ضعف الجبهة الإسلامية، وليس من قوة جيوشه غير المؤهلة بتناقضاتها، لتحقيق نصر كان بعيداً، إذ «لو تقدّم مجيء الصليبيين عشر سنوات، أو تأخر قدومهم عشر سنوات، لقذف بهم المسلمون في البحر، وذلك بسبب ما كان عليه السلاجقة زمن ملك شاه من القوة والمناعة، وما كان للفاطميين من قوة بحرية وعسكرية ضخمة، ثم بسبب ما حدث بعدئذٍ من النزوع إلى توحيد العالم الإسلامي» استناداً إلى ما أورده ارنست باركر في هذا السبيل[1].

وفي ضوء ذلك انطلقت الحملة الأولى (1097)، وعبرت الأراضي البيزنطية إلى آسيا الصغرى، حيث إمارة قلج أرسلان السلجوقي الذي هُزم بعد قتال شديد في معركة «دوريليوم»[2]. وقد مهّد ذلك للصليبيين الانتشار من دون مقاومة، فاستسلمت لهم هرقلة، وطرسوس، وقيصرية، ومرعش، ثم انعطف أحد قادتهم بودوان (بلدوين) نحو الشرق، ليؤسس في الرها (الجزيرة) أول إمارة صليبية، فيما تابع الجيش الرئيس طريقه إلى انطاكية، الخاضعة حينذاك لسلطة الأمير السلجوقي باغي سيان، فحاصرها، حيث كان القائد الآخر «بوهمند» الذي برز مقاتلاً شجاعاً في معركة «دوريليوم» من أشد المتحمسين لاحتلالها. وكان لعنصر المفاجأة تأثيره في اختلال دفاع المدينة، وإرباك حركة أميرها الذي سرعان ما لاذ بالفرار تحت ستار الظلام، مضلّلاً بأخبار بثّها أحد قواده المتواطئين مع الصليبيين عن اختراق هؤلاء لها. فأتاح ذلك لبوهمند الدخول المبكر إلى انطاكية، مؤسساً الإمارة الصليبية الثانية، ومتغلباً في هذا الصدد على منافسه ريموند الذي كانت طرابلس من نصيبه في وقت لاحق.

بعد ذلك تقدم الصليبيون، باستثناء بوهمند، إلى بيت المقدس وقد التأموا

---

(1) الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ص153.
(2) اسكى شهر حالياً.

حينئذ تحت قيادة غودفري دي بويون، الذي وصفه غروسيه بالحكمة والشجاعة، والتمسك بالقيم المسيحية[1]، مما سيؤهله ليكون أول ملوك اللاتين في الشرق. فتصدت لهم الحامية الفاطمية وصمدت شهراً أمام الحصار، قبل أن يسفر في نهايته عن اجتياح المدينة وارتكاب مجزرة مروّعة فيها. وبعد الاحتفال بالنصر، واجه الصليبيون تحدّي السلطة في المدينة، وكادوا يفسدون الإنجاز بالاقتتال فيما بينهم، ولكن الأمر حسم في النهاية لمصلحة القائد الرصين غودفري، فجرى تنصيبه حامياً للقبر المقدس، مؤسساً من هذا المنظور «الثيوقراطي» المملكة اللاتينية في الشرق (1099)[2]، من دون أن يكون لها نفوذ مباشر على الإمارات الثلاث التي مرّ ذكرها.

وليس التأريخ للحروب الصليبية ما نتوخاه في هذا الفصل، بقدر ما يعنينا اكتناه تداعيات تلك المرحلة، وانعكاساتها، خصوصاً، على الشام التي عانت نحو قرنين من الزمن وطأة تلك الحروب، وعاشتها هاجساً مقلقاً عبر حياتها اليومية المفتوحة على الخطر. ولعلها ضريبة الموقع الذي جعل منها محوراً قطبياً في المنطقة، فلا تكتمل معادلة سياسية من دونها على امتداد تاريخها الطويل.. فهي قوية ممتنعة على العدو، عندما يتكافأ الدور مع الموقع، وضعيفة عاجزة، عندما يتراجع الأول ليصبح الثاني محطّ أنظار الغزاة وهدف مشاريعهم التوسعية.

وليس ثمة شك أن هذا الموقع، في افتقاده حينذاك الوحدةَ السياسية، وقيادة وازنة بمستوى التحديات، جعل مهمة الصليبيين أكثر سهولة مما توقعوا في السيطرة على الساحل الشامي. فلم تكن ردّة الفعل في الداخل، حيث يتنافس الأتابكيان: رضوان (حلب)، ودقاق ثم طغتكين (دمشق)، ما تنبئ عن خطّة لمواجهة الاحتلال أو استعادة بيت المقدس، على أهميتها رمزاً في وعي المسلمين. فقد كانت المحافظة على النفوذ في منأى عن الخطر، ما يحدّد

---

(1) René Grousset, L'Epopée des croisades p18.

(2) باركر، الحروب الصليبية، ص38.

الموقف من الصليبيين، سواء من خلال مصادمات غير جدية معهم، أو تحالفات تقتضيها ظروف المرحلة المشحونة بالتوتّر. أما الخلافة الفاطمية في مصر، فقد بدت، بعد فشل محاولاتها لاستعادة المدينة المقدسة، غائبة عن الوعي. يتنازع السيادة عليها، وزراء ليسوا أقلّ استرخاءً أمام تلك التحديات من أتابكة الشام. ولكن هذا الموقف الدفاعي للقوى الإسلامية المتاخمة للاحتلال الصليبي، كان له وجه إيجابي تمثّل في منع الأخير من التمدّد والانتشار في المدن الداخلية، إذ إن السيطرة على الشريط الساحلي وما تفرّع عنه من جيوب نحو الشرق، لم تختصر حينذاك مشروع الغزو، وإنما كان هذا أكثر طموحاً في مداه الذي يعكس من حيث المبدأ، فكرة «نصرنة» العالم كما عبّر عنها البابا ليو التاسع قبل سنوات على الحركة الصليبية.

ومن هذا المنظور، يمكن تفسير المبادرة المبكرة للصليبيين في إقامة أولى إماراتهم الشرقية في «الرها»، منحرفةً عن خطّ سيرهم الشامي إلى بيت المقدس. فقد كانت الخلافة الإسلامية مستهدفةً في هذه العملية التي جرى مسبقاً التخطيط لها، ولم تأت استجابة فقط لطموح بلدوين، التائق شأن الآخرين من القادة إلى موقع نفوذ في الشرق. وكان وجود هذه البؤرة الصليبية على تخوم العراق، مركز الخلافة، مصدر قلق للقوى المسيطرة على الأخيرة وتحدياً لها بصورة مباشرة. ولكن إمارة «الرها» إذا كانت تعبّر عن المشروع البابوي في تجلياته السالفة، مجسِّداً ذروة ما سمي بـ«الإحياء الديني في أوروبا»[1]، فإنها ستسفر عن نتائج لم تكن في مصلحة هذا المشروع، حين ظهرت بؤرة مواجهة لها في الموصل، أخذت تستثير بدورها المشاعر الدينية تحت راية الجهاد لدى المسلمين، مما سيؤدي إلى السقوط المبكر لهذه الإمارة بعد ثلاثين عاماً على قيامها (539هـ/ 1144م).

---

(1) باركر، الحروب الصليبية، ص9.

الزنكيون
وتأسيس الجبهة الإسلامية الموحدة
(الصحوة الأولى)

تلقّت الحركة الصليبية في الشرق أولى انتكاساتها الكبيرة، من دون أن تتمكن مراكزها الأخرى من إنقاذ «الرها»، لا سيما وأن إمارة انطاكية، الأكثر تأهيلاً لمعاضدتها، كان جيشها قد تلقى هزيمة قاسية في أعقاب حملة شنّها على حلب[1]. وعلى الرغم من متاعب الجبهة الإسلامية في الشام وتناقضاتها، فإن هذه، سواء في جناحها الشمالي (حلب) الذي أقلق إمارة انطاكية، أو في جناحها الجنوبي (دمشق)، حيث غالباً ما تصدى لمحاولات اختراقه من بيت المقدس، ظلّت في منأى عن الخطر الحقيقي من الهجمات الصليبية، أو على الأقل نجحت في دفعه حتى ظهور الصحوة الزنكية التي غيّرت موازين الحرب لمصلحة القوى الإسلامية في المنطقة. ولعل ما حققته الشام من ردعٍ لمشروع الصليبيين وعزله في حدود ما آلت إليه حملتهم الأولى بصورة عامة، لم يتح مثله للعراق الذي فاجأته الحملة المغولية، ولم تكن لديه القدرة على دفعها عنه أو الحدّ من نتائجها المأساوية عليه، ومن ثمّ على معظم الشام بعده.

بيد أن المقارنة ليست عادلة بين الحالتين، وقد فصلت بينهما مسافة تزيد على قرن ونصف، حيث واجهت الشام بتناقضات أقل من جيوش الصليبيين

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص278.

بتناقضاتهم أيضاً والتي عرقلت خططهم التوسعية بعد الاستيلاء على بيت المقدس، فيما كان العراق يعاني أسوأ ظروفه حين تعرّض لهجمة المغول، المُوحّدين قيادةً وقوة عسكرية متفوقة، مما حال دون التصدي لها أو التخفيف من وطأتها. ولذلك تصبح المقارنة أكثر تحديداً على مستوى النتائج التي كانت أقل كارثية بعد الغزو الصليبي، حيث تمكنت الشام من إعادة ترتيب أوضاعها وإنتاج قوة ردعية له، خلافاً للصورة المظلمة بعد الاجتياح المغولي الذي تجلى عن تاريخ عاصف، «منقلِبٍ» تحت تأثير ذلك على خط سيره. وبهذه الرؤية نقرأ «عين جالوت»، معركة «انقلابية»، جعلت المسلمين، يمسكون مرة أخرى بزمام حركة التاريخ، في وقت أطبق فيه الحصار عليهم من الشرق والغرب، وكان بين طرفيه (المغول والصليبيون) من الأهداف المشتركة ما يقرّب بينهما باتجاه تحالف ما ضد المسلمين.

وفي ضوء ذلك كان تحرير «الرها»، منعطفاً شديد الأهمية في تاريخ المرحلة، متزامناً مع تحوّل واضح في الموقف الصليبي من الهجوم إلى الدفاع، على الرغم من ضخّه بالحملات الأوروبية التي توالت حينذاك، من دون أن تسهم فعلياً في تعزيز صمود المراكز الصليبية أمام المدّ الإسلامي القادم من الموصل. وفي هذا السياق تأتي الحملة الثانية، ردّ فعل على سقوط الرها، وقد ضمت ملكي فرنسا (لويس السابع) وألمانيا (كونراد الثالث) في العام 1147، حيث التقيا في العام التالي الملك بلدوين الثالث في بيت المقدس، ووضعا معاً خطة للهجوم على دمشق. وإذ فشلت هذه الحملة، وعاد الملكان إلى أوروبا، فقد نجم عنها ما يسيء الظن في الأخيرة بالحركة الصليبية، ويفسد «سلامة الأغراض التي من أجلها تمّ توجيهها»[1] على حد تعبير باركر. أما على الجانب الإسلامي، فكان لها تأثيرها في تنشيط حركة الجهاد، بعد استكمال السيطرة على جيوب كانت ما تزال تحت سيطرة الصليبيين في إمارة «الرها»، ومواقع

(1) الحروب الصليبية، ص76 ـ 77.

أخرى تابعة لإمارة انطاكية التي لقي صاحبها هزيمة أسفرت عن مصرعه في ذلك الوقت[1].

وبدا أن رجل المرحلة وملهمها على الجبهة الإسلامية، هو نور الدين محمود الذي تلقى من أبيه (زنكي) الحافز الجهادي، مضيفاً إليه من ثقافته وصفائه في هذا الاتجاه، ما طبع تلك المرحلة بشخصيته، الحاضرة بقوةٍ حينذاك في تداعياتها المثيرة، بدءاً من السيطرة على دمشق، حتى الإنجاز الكبير الذي مهّد له في «حطّين». فقد نشأ نور الدين وفي وعيه التراث الذي راكمته الموصل، في مواجهتها للرّها، الثغر الصليبي المتقدّم في الشرق، وفي تصدّيها المبكّر تحت عنوان الجهاد لخطره. وكانت الريادة معقودة في هذا السياق للأمير (الأتابك) مودود الذي عهد إليه السلطان السلجوقي محمد تحت تأثير الضغط الشعبي، مهمة قتال الصليبيين، فشنّ حملتين على «الرها» (505/ 1111)، لم تحقّقا، على الرغم من نجاحات محدودة، السيطرة على الأخيرة. وقد ردّ بعض المؤرخين هذا الفشل إلى عدم تعاون أمراء الشام معه[2]، الأمر الذي دفعه إلى الاتصال بأتابك دمشق (طغتكين) بتشجيع من السلطان السلجوقي، في وقت كانت بعلبك التابعة للأخير تواجه تهديداً مباشراً من ملك بيت المقدس (بلدوين). فحوّل وجهته، بناءً على ذلك، إلى الشام (506/ 1112 ـ 1113)، حيث انتصر على الملك في معركةٍ (طبرية) شكّلت أول ضربة قاسية للصليبيين منذ قدومهم قبل نحو أربعة عشر عاماً. وقد أسهب مؤرخهم (وليم الصوري) في وصف حالة الرعب التي اجتاحت المعسكر، وكان لها صداها في أرجاء المملكة اللاتينية، مشيداً في المقابل بشجاعة «المتطوعين» العرب من قبيلتي طيء وكلاب وبأسهم في هذه المعركة[3].

ولكن أتابك الموصل سرعان ما اغتيل في دمشق، ثم لقي المصير عينه

---

(1) باركر، المرجع السابق، ص77.

(2) نبكيتا ايلسيف، الشرق الإسلامي الحديث، ص389 ـ 390.

(3) تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص548 ـ 549.

الأتابك الآخر زنكي بعد تحريره «الرها»، ليصبح نور الدين محمود، القائد المعلقة عليه الآمال، متخذاً من حلب مقرّ إقامته[1]، بما يعنيه ذلك من تفعيل لدوره الجهادي على مساحة الشام، الجبهة الأساسية في الصراع ضد الصليبيين. ومن هذا المنظور يركز الأتابك الجديد اهتمامه على أن تكون دمشق الخاضعة حينئذٍ للبوريين (سلالة طغتكين)، محور هذه الجبهة ومنطلق العمليات الهجومية وذلك في إطار ما يصفه المؤرخ «ايلسيف» بـ«الإحياء النوعي للجهاد»[2]. وكان يبدو أن ثمة سباقاً حينذاك للسيطرة على هذه المدينة، تزامن مع حملة للصليبيين عليها، مما دفع أتابكها «البوري»، مرغماً، إلى طلب المساعدة من صاحب الموصل سيف الدين غازي بن زنكي، الذي استجاب لطلبه، فقدم ومعه أخوه نور الدين، حتى إذا بلغ حمص تراجع الصليبيون عن حصار المدينة وانكفأوا إلى مواقعهم[3]. ولكن نور الدين التائق إلى مثل هذه السانحة، لما تمثّله دمشق من أهمية في مشروعه الجهادي، لم تثنه صعوبات عن السيطرة على هذه المدينة التي اندرجت حينذاك في أولويات الخطط الحربية لمملكة بيت المقدس، وما لبث أن حاز السبق في هذا الصراع مع أعدائه، متوّجاً جهوده بفتحها بعد ست سنوات على الحصار الصليبي السالف (549/ 1154).

وبانضمام دمشق إلى الجبهة الإسلامية، يكتسب مشروع التحرير أحد عناصره الأساسية، حين أصبح نور الدين في المواجهة المباشرة مع القوى الصليبية في بيت المقدس، بعد اقتصار عملياته من قبل على استهداف المواقع التابعة لإمارة انطاكية. كما أن السيطرة على دمشق، أدّت إلى فرزٍ أكثر وضوحاً للمواقف، إذ كان أتابكتها يلجأون إلى التحالف مع الصليبيين، إبّان شعورهم بالخطر على نفوذهم من القوى الإسلامية المنافسة لهم، خصوصاً من الموصل، والذي كانت آخر مظاهره ما قام به معين الدين صاحب دمشق ـ متخوّفاً من

(1) ابن الأثير، الكامل ج11 ص112.
(2) الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، ص394.
(3) ابن الأثير، الكامل، ج11 ص130.

تهديد الزنكيين لعاصمته في أعقاب حصار الصليبيين لها ـ من مراسلة هؤلاء قائلاً حسب مروية ابن الأثير: «أنتم تعلمون أنهم ـ ويقصد سيف الدين غازي ـ إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية.. (فلا) يبقى لكم مقام معهم في الشام»[1]. فلم تعد هذه الجبهة مخترقة بعد توحيدها، كما لم يعد المجتمع منهكاً بالضرائب تستنفد اقتصاده ويذهب جزء كبير منها إلى العدو، إذ تحسنت ظروفه المعيشية، وبات أكثر انخراطاً في سياسة الجهاد وتشبّعاً بروحها، بعد أن آلت القيادة إلى نور الدين، بنهجه المختلف وسلوكه الرصين.

ويلفت المؤرخَ حينذاك بروز قائد إلى جانب نور الدين منذ اختياره حلب مقرّاً لحكمه، وهو أسد الدين شيركوه من الأسرة الأيوبية، إذ كان في طليعة الزاحفين إلى دمشق، مُحبطاً محاولة أتابكها الاستعانة مرة أخرى بالصليبيين[2]. وثمة ما يجب التوقف عنده في هذا السياق، هو أن دولة نور الدين باتخاذها هذا الحجم من النفوذ، لم تخرج على نهج الولاء للخلافة العباسية، وإن كانت الأخيرة لم تتحمس لقيامها، على الرغم من سياستها الجهادية الواضحة. فلعل هذه آثرت حالة الانقسام وتناحر القوى الإسلامية المحلية، ووجدت بالتالي في شخصية قيادية فذّة مثل نور الدين، ما يشكل خطراً مباشراً على البقية من نفوذها وهيبتها. وقد يفضي بنا ذلك إلى التعرّف على أحوال الخلافتين العباسية والفاطمية، حيث قامت بينهما الدولة «النورية»، وكلتاهما رأت إلى الشام امتداداً لها، وخطّاً دفاعياً أمام القوى الصليبية الغازية. ففي بغداد كان السلاجقة القابضون منذ أكثر من قرن على زمام السلطة الفعلية، تعصف بهم الشحناء والصراعات الطاحنة، الأمر الذي شجّع أحد الخلفاء (المكتفي) على محاولة استعادة القرار السياسي وتأكيد سلطته المركزية، مظهراً بعض الفتور إزاء حركة نور الدين في الشام.

---

(1) الكامل ج11 ص130..
(2) المصدر نفسه، ج11 ص198.

ولكن الخلافة العباسية، على الرغم من أوهام المكتفي، فقدت حينذاك، ليس فقط القدرة على التدخّل ضد نور الدين فحسب، بل مسوغاته أيضاً، في الوقت الذي وفّر الدور الجهادي لنور الدين من شرعية الموقع ما افتقده الخليفة والقادة السلاجقة من حوله. فلم تعد الأسرة الحاكمة بتقاليدها الوراثية، المصدر الحقيقي لهذه الشرعية في الوعي الإسلامي العام، بقدر ما تجلّت هذه في ساحات القتال ضد الغزاة المحتلّين، حيث استحقها عن جدارة نور الدين، بمثل ما استحقها من بعده المماليك في انتصارهم التاريخي على المغول.

أما الفاطميون الذين سوّغ مؤسس خلافتهم في مصر (المعز لدين الله) قدومه إلى الأخيرة، بالجهاد ضد البيزنطيين[1]، بعد استيلاء هؤلاء على بعض الثغور الشامية، فقد عصفت بهم الأزمات الداخلية، وانكفأت النبرة الجهادية في خطابهم، وتراجع الحضور السياسي لخلافتهم شأن الخلافة العباسية. ولعلهم كانوا الأكثر تأثراً بالغزو الصليبي الذي بات على تخومهم المباشرة، مما حدا وزيرهم الأفضل إلى توجيه حملات ثلاث ضد الصليبيين في أعقاب سقوط بيت المقدس، ربما لم يكن الهدف منها، استعادة الأخيرة، بقدر ما كانت مهمتها دفاعية لردع الخطر عن حدودهم، على الرغم مما أحدثته من إرباك للمملكة اللاتينية الناشئة[2]. فقد تزامن الغزو مع صعود نجم الوزير وانكفاء هيبة الخليفة، وكان حينئذٍ المنصور الذي انصاع لمشيئة الأول، وانصرف إلى حياته الخاصة[3]، مرغماً على التخلّي عن تقاليد أسلافه. بيد أن الوزير سرعان ما اتجه إلى الاهتمام بالشؤون الداخلية، مُبعداً مصر عن دائرة الصراع الفعلية مع الصليبيين، ما جعل هؤلاء يطمعون في السيطرة عليها، خصوصاً بعد التغيّرات التي شهدتها الجبهة الشامية، في أعقاب سيطرة نور الدين عليها، وانحسار آمالهم، حينذاك في التوسع على أرضها.

---

(1) أبو المحاسن، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج4 ص72.
(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص142، 149.
(3) ابن أياس، بدائع الزهور، ص221.

وفي ضوء ذلك يتحوّل الصراع، مرحلياً على الأقل، من الشام إلى مصر التي شجّع تدهور أحوالها، كلاًّ من نور الدين والملك اللاتيني على غزوها، دعماً لموقعه في مواجهة الآخر. ولعل سقوط عسقلان في ذلك الوقت، بعد امتناعها على الصليبيين أكثر من خمسين عاماً (548/ 1153)، أي قبل عام من استيلاء نور الدين على دمشق، قد أسهم في تسريع السباق بين الطرفين في هذا الاتجاه. فقد بدت مصر حينذاك، عنصراً أساسياً في معادلة وجد فيها الطرف الإسلامي سبيلاً إلى حصار الصليبيين بما يمهّد إلى إخراجهم من الشام، بينما رأى فيها الطرف الآخر تحصيناً لجبهته وتمكيناً لها من السيطرة على زمام الموقف فيها. ولم يكن العامل الاقتصادي غائباً عن ذلك التجاذب، إذ إن كليهما طمع في موارد هذه البلاد الغنية[1]، حلاًّ لأزمته المالية وتعزيزاً بالتالي لمواقعه القتالية، ما جعل احتلالها في غاية الأهمية بالنسبة لكليهما في آن.

وهكذا بدت الفرصة مؤاتية للاثنين: املريك ـ الأقوى شخصية والأكثر طموحاً بين الملوك اللاتين، ونور الدين بقيادته الفذّة التي جعلته محطّ آمال المسلمين لتحرير بلادهم من الغزو الصليبي. ولم تلبث الخلافة الفاطمية نفسها أن هيأت لهما هذه الفرصة، حين تنازع على الوزارة فيها كل من «شاور» المبعد عنها، والملتجئ إلى نور الدين طلباً لمساعدته في العودة إلى منصبه، و«ضرغام» الذي استنجد بأملريك وعقد معه اتفاقاً يجعل من مصر تابعة للمملكة اللاتينية. ومن المفارقات أن الطرفين فوجئا، على الأقل بمثل تلك السرعة، بالتوقيت، ولكن نور الدين لم يشأ مع ذلك إضاعة الفرصة، فبادر إلى توجيه حملة إلى مصر، فيما تردّد املريك، لصعوبة حشد القوات الكافية للمهمة الخطرة، من دون أن يستبعد، لو حدث ذلك، شنّ هجوم من جانب الشاميين عليه، مستغلّين تفريغ جبهته الدفاعية.

ولقد تولى «شيركوه» المقرّب من نور الدين، والذي سطع نجمه بعد

---

(1) ايلسيف، الشرق الإسلامي، العصر الوسيط، ص425.

سيطرة الزنكيين على دمشق، قيادة الحملة ومعه ابن أخيه يوسف بن نجم الدين أيوب (صلاح الدين فيما بعد). وعلى عكس عمّه المتحمّس للمهمة، سار الأخير على غير رغبة وتمنى الاستعفاء منها، ولكن نور الدين أرغمه على الانصياع لأمره[1]. وفي الوقت الذي اقتربت فيه الحملة الشامية من القاهرة (559/ 1164)، شهدت الأخيرة انقلاباً على ضرغام واستعادة شاور منصبه بتأييد من الخليفة العاضد. بيد أن الوزير سرعان ما تنصّل من اتفاقه مع نور الدين، من دون استبعاد التحالف مع الصليبيين، ما أدى إلى انسحاب الحملة، على أن يتراجع املريك بدوره عن مصر. ولم تكن الحملة الشامية الثانية بقيادة شيركوه نفسه، والتي تزامنت أيضاً مع حملة أخرى لأملريك (562/ 1167)، أفضل حالاً في نتائجها، إذ انسحبت كلتاهما بعد معركة جرت بينهما إلى الجنوب من القاهرة.

وفيما انهمك نور الدين بعد ذلك بعمليات ضد المواقع الصليبية التابعة لإمارة طرابلس، محققاً انتصارات مهمة على هذه الجبهة[2]، كان أملريك يعقد اتفاقاً مع الامبراطور البيزنطي، يقضي بأن يمدّه الأخير بالمساعدة لغزو مصر، مقابل أن يعود إليه نصف وارداتها. ولكن الملك الصليبي، وقد رأى انشغال نور الدين بحروبه الشامية، لم ينتظر تنفيذ الاتفاق مع الامبراطور، فسارع إلى التفرّد بالهجوم على مصر (564/ 1168)، مفاجئاً شاور الذي استغاث حينئذٍ بنور الدين. ومن الواضح أن الوزير الفاطمي، وقد أحكم السيطرة على الوضع في ظلّ خليفة ضعيف، لم يشأ المضي في التحالف مع أي من الطرفين، بما يؤدي إلى زوال نفوذه، وإن كانت الأوساط في محيطه، تُؤثر في أسوأ الأحوال نور الدين على الملك الصليبي.

وفي ضوء ذلك تصبح دعوةُ الخليفة والمقرّبين منه، لنور الدين أكثر

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج11 ص338.

(2) ابن خلدون، كتاب العبر ج5 ص552.

جدية، بل مصحوبة بعرض، كان في أشدّ الحاجة إليه لتمويل حركته الجهادية، ينصّ على منحه ثلث الواردات المصرية. فكان شيركوه للمرة الثالثة قائداً للحملة، ومعه صلاح الدين المتململ أيضاً من المهمة الثقيلة، ولكن ما يلفت الانتباه حينذاك، أن القائد المخلص للبيت الزنكي، تراوده نزعة السيطرة على مصر، مستغلاً موقعه البارز في إدارة نور الدين وحاجة الأخير إليه. فتردّد شيركوه بدايةً، حتى إذا تمّت الموافقة على شروطه، بتفويضه السلطة كاملة في تلك البلاد، استجاب للأمر ومضى في حملته من دون أن يعترضه أحد، في الوقت الذي عزف فيه «املريك» عن منافسته بعد أن تلقّى أموالاً من شاور. وسرعان ما أصبح شيركوه وزيراً بتقليد من الخليفة الذي رحّب به، وباتت له السيطرة المطلقة على مصر، بما يعنيه ذلك من تعزيز لموقع نور الدين وانكفاء لنفوذ الملك الصليبي، الذي أصبح محاصراً، وبات عليه مواجهة مرحلة جديدة صعبة، تغيّرت فيها موازين القوى بصورة واضحة لمصلحة المسلمين.

بيد أن الأمور لم تستقم وفقاً لخطّة نور الدين، إذ كانت هذه أكثر طواعية للقائد المشارك رغماً عنه في تلك الحملات، ليصبح على رأس السلطة في مصر، وتنصاع الفرص بسهولة له، آخذةً به من الموقف السلبي، إلى الانخراط في صميم الحدث والإمساك بزمامه. فلم يمرّ سوى شهرين وأيام قليلة، حتى توفي شيركوه، فتؤول قيادة الجيش إلى صلاح الدين، ومن ثم يتقلّد الوزارة في أعقابها، متخذاً لقباً له وهو الملك الناصر، الأمر الذي أغاظ نور الدين وأثار الشك في نفسه إزاء سلوكه، لا سيما الاتجاه إلى التفرّد بقراره في مصر. ولكن الأيام كانت ما تزال حليفة القائد الأيوبي الجديد، فيتوفى بعد وقتٍ الخليفة الفاطمي، بالتزامن مع تراجع الخطر الصليبي عن تلك البلاد، ما سيؤدي إلى نزوعٍ أكثر للاستقلال بها. وإذ تفاقم الشك لدى نور الدين نحو قائده المتمرّد، فقد صمّم على اللجوء إلى الحلّ العسكري(1)، فيما كانت المناورة أفضل أسلحة

(1) ابن خلدون، ج5 ص563.

صلاح الدين، مخفياً تمرّده ومصرّحاً بولائه للبيت الزنكي، ولكنه لم ينجُ من حرج أمام سيده، حين دعاه إلى شن عمليات ضد الحصون الصليبية. فقد حاذر من الاستجابة لذلك اتقاءً لشركٍ ربما يوقعه فيه، مما أخذ بالخلاف إلى ذروته بين الاثنين، لا سيما وأن نور الدين كان يرى ساحة الجهاد في الشام، وأن مصر لسيت سوى رديف للأخيرة، تعزّز جبهتها، وتؤمّن لها احتياجاتها الاقتصادية.

ومرةً أخرى كان الحظّ يطرق باب صلاح الدين، فينفتح على نبأ لم يتوقعه حينذاك، حاملاً موت نور الدين (569/ 1174)، ثم يعقبه بعد أسابيع قليلة موت املريك الذي سيترك غيابه فراغاً على الجبهة الصليبية[1]، ودائماً بما يخدم أغراض صلاح الدين ويجعله رجل المرحلة، والشخصية الأكثر نفوذاً في العالم الإسلامي. ولكنه على الرغم مما أبداه من نزعة سلطوية، وتنكّرٍ لولي نعمته، وخذلان بالتالي لمشروعه، إلا أنه وقد أدرك مسؤولية الدور المُلقى عليه، لم يتردّد في اقتفاء مسيرة سلفه، والاتّكاء على تراث أسرته في مقاومة الغزو الصليبي. ولولا هذا الخيار، لما انقادت الأمور بسهولة له في المنطقة، ولما تمكّن من احتواء ردة الفعل الزنكية التي أعاقت سيطرته لبعض الوقت، حيث قدّم نفسه في صورة المجاهد، ودخل الشام تحت مظلّة نور الدين، مبدياً اعترافه بالملك الصالح، ابن الأخير، استرضاءً لأمراء البيت الزنكي المعترضين عليه.

(1) Grousset, L'épopée des Groisades p200.

معركة حطين وإشكاليات الصلح

رأى صلاح الدين تحصين شرعيته، بالولاء للخلافة العباسية التي تولى مقاليدها حينذاك، الناصر لدين الله، المتحمّس لإحياء حركة الجهاد التي أصابها ركود في ذلك الوقت، فوجد في صلاح الدين، الشخصية المؤهلة لهذا الدور، وساعده في تصفية جيوب المعارضة الزنكية وتثبيت نفوذه في الشام والجزيرة، حيث اتخذ قراره بالاستقرار في الأولى، ملتزماً قاعدة سلفه، في أن الجهاد الحقيقي يبقى على هذه المساحة، فغادر إليها بصورة نهائية.

أما بداية التحوّل الفعلي في مسيرة القائد الأيوبي، فقد تجلت في ثمانينات القرن الثاني عشر الميلادي (ثمانينات القرن السادس الهجري)، ممهّداً له بعمليات مظفرة في شمال الشام وساحلها. ولعل السبب المباشر لذلك، أن صاحب الكرك رينو دي شاتيون (أرناط)، تربّص في ذلك الوقت بقوافل التجار والحجّاج المسلمين، فوقع بعضهم أسرى جنوده وكانت بينهم أخت صلاح الدين[1]، مستهدفاً قطع الطريق بين الشام ومصر، فكان الرّد بإعلان صلاح الدين الاستنفار العام للجهاد، حيث التحق به عدد كبير من سائر البلدان التابعة

(1) Jean Richard, La bataille de Hattin: Saladin defait l'occident. L'Histoire N° 47. Juillet/Août 1982. P104.

له[1]. وسرعان ما تحرك باتجاه طبرية، وكانت من أهم الخطوط الدفاعية لمملكة بيت المقدس، ثم تقدّم إلى الغرب منها، وأقام معسكره عند هضبة حطين، حيث جرت معركة طاحنة هزم فيها الصليبيون، وأسفرت عن أسر الملك (غي دي لوزينيان) وصاحب الكرك وعدد كبير من المقاتلين[2]. ولكن صلاح الدين الذي توقفت المرويات الغربية عند شخصيته المتسامحة[3]، لم يتأخر في إطلاق سراح الأسرى، باستثناء رينو الذي قتله بيده[4]، انتقاماً من تصرّفه العدائي المتطرف ضد المسلمين، من دون أن يجري ذلك على الملك الذي عاد إلى بيت المقدس، ولمّا تنته بعد الحرب معه.

كانت الهزيمة في الواقع كارثة على الصليبيين، فلم يواجهوا مثلها منذ قدومهم إلى المنطقة قبل ستة وستين عاماً، وكان عليهم أن يعيدوا النظر في مشروعهم الذي أُصيب في الصميم. وقد بدا ذلك واضحاً في النتائج التي أسفرت المعركة عنها، حيث تمّت السيطرة على نحو خمسين قلعة[5]، كما استعاد المسلمون خلال شهرين بعدها، المدن الساحلية التابعة لبيت المقدس، باستثناء صور التي احتشد فيها عدد كبير من المقاتلين الصليبيين، فرأى صلاح الدين رفع الحصار مستعيضاً عنها بفتح عسقلان لما تمثله من موقع مهمّ في المواصلات بين الشام ومصر. وتتوجت هذه العمليات بتحرير بيت المقدس الذي تجمع فيه الناجون من حطين، فحاصرها القائد الأيوبي، وما لبثت راياته «الصفراء» أن خفقت في سمائها، وعادت الخطبة إلى منبر مسجدها الأقصى تُلقى باسم الخليفة العباسي، فكان ذلك ذروةَ ما حقّقه من انتصارات رسخت في ذاكرة المسلمين على مدى الأزمنة.

---

(1) ابن خلدون، العبر ج5 ص648.
(2) المصدر نفسه، ج5 ص670.
(3) Richard, op. cit. P. 109.
(4) ابن خلدون، ج5 ص671.
(5) Richard, op. cit. P.110.

وإذا كان تحرير المدينة المقدسة، قد اختلج في أفئدة المسلمين الذين عانوا هاجس احتلالها وقتاً طويلاً، بمثل ما يعانون اليوم هاجس الاحتلال الصهيوني لها، فإن سقوطها كان مدوّياً في الغرب الأوروبي، مستفزّاً ثلاثةً من كبار ملوكه للقيام بحملة تحت شعار استردادها (القدس)، وهي التي سوّغت أساساً الدعوة إلى الحروب الصليبية. وكان هؤلاء ريتشارد (انكلترا)، وفيليب أوغست (فرنسا)، وفريدريك بارباروسا (ألمانيا). وفيما الأخير، المتقدّم في السّن، لقي حتفه غرقاً في نهر آلس، بعد وصوله برّاً إلى آسيا الصغرى، وصل الأولان بحراً، والتقيا حول عكا وحاصراها، فسقطت بعد صمود دام ثمانية عشر شهراً (1190 ـ 1191). وما لبث ريتشارد أن وجد نفسه وحيداً فيها، بعد أن عانى الملك الفرنسي مرضاً لم يجد أمامه بدّاً من العودة إلى بلاده، ما جعل مهمة الملك البريطاني صعبة في استعادة القدس، حيث تحصّن فيها صلاح الدين، متخذاً إجراءات احتياطية لمنع تقدّم الصليبيين نحوها. وكانت خطّة الملك تهدف إلى السيطرة على الحصون المحيطة بها، بما يؤدي إلى تضييق دائرة الحصار عليها، وإجبارها على الاستسلام.

ولكن هواجس الملك حينذاك، تعدّت تلبية الآمال المعقودة عليه لاستعادة المدينة المقدسة، إلى القلق على عرشه في بريطانيا، بعد وصول أنباءٍ عن تمرّد أخيه عليه، فلم يجد سوى الرضوخ للأمر الواقع الصعب واللجوء إلى مفاوضة صلاح الدين بشأن الصلح. وقد جرت بالفعل لقاءات بين موفدي الاثنين، انتهت إلى ما يُعرف بصلح الرملة، وتمّ الاتفاق بموجبه على هدنة لمدة أربعة وأربعين شهراً[1].

وثمة من المؤرخين من رأى في هذا الصلح، هزيمة لصلاح الدين، لم يكن مضطراً إليها، إذ حقق الملك في السلم ما كان عاجزاً عن تحقيقه في الحرب، من دون أن يمتلك من القوة العسكرية، ما يشكّل تهديداً فعلياً لبيت

---

(1) ابن خلدون، ج5 ص716.

المقدس التي تنازل القائد الأيوبي، من أجل الحفاظ عليها، ما تنازل عنه من المدن الساحلية والثغور المهمة. وثمّة أيضاً من رأى أن المدينة المقدسة تستحق هذا الثمن الكبير، معلّلاً ذلك بأن الصليبيين كان لديهم من القوة ما يتيح لهم جرّ المسلمين إلى حرب طويلة، قد لا تكون نتيجتها النهائية في مصلحتهم. وهكذا، من أجل القدس التي تمّ تحريرها بفضل النصر في حطين، كان «الصلح» للحفاظ عليها، ولكن من دون أن يعني ذلك وقف حركة الجهاد، بدليل قيام صلاح الدين بتحصين المدينة وضبط أسوارها، وتفقّد الحصون المحرّرة وهو في طريق العودة إلى دمشق[1].

بيد أن حطين، وهي في الذاكرة العربية خصوصاً، مثار اعتزاز بالتاريخ المتّصل بنبض الحاضر وتحدياته، ربما توخى المنتقدون لصلح الرملة، أن تؤدي ـ أي حطين ـ إلى إنهاء الاحتلال الصليبي في الشام، مقارنة بعين جالوت، ونتائجها الحاسمة على الغزو المغولي. ولعل التشبّث بالقدس من جانب صلاح الدين، دفع بالصليبيين إلى التشدّد باستعادة الثغور التي افتقدوها بعيد المعركة، وهو ما ذهب إليه المؤرخ حسن الأمين في قوله: «إذا كان الانتصار في حطين يثير في النفس البهجة، فإن البهجة لا تلبث أن تتلاشى حين نذكر التصرفات التي أعقبت المعركة وذهبت معها دماء المقاتلين هدراً»[2].

ومن هذا المنظور، فإن «الصلح» كرّس لأول مرّة الاعتراف بالوجود الصليبي في الشام، وهو أمر لم يحدث من قبل، حتى في مرحلة الضعف السابقة على عهد نور الدين. وقد زاد الأمور تعقيداً أن بطل النصر التاريخي لم يطل به البقاء، إذ توفي بعد عام على «الصلح»، مما سيخل بالتوازن في المنطقة، ويؤدي إلى انكفاء حركة الجهاد لوقت طويل. ولم يكن ما يحول حينئذٍ دون استئناف الحركة الصليبية اندفاعها في أوروبا، مستغلّةً حالة التمزّق والصراع بين أمراء الأسرة الأيوبية. ولكنها لحسن الحظ بدت متعثرة في الشرق،

(1) ابن الأثير، ج12 ص87.
(2) صلاح الدين بين العباسيين والفاطميين والصليبيين ص131.

لافتقادها خطة واضحة وقراراً سياسياً موحداً، مما حدّ من خطرها المباشر على المنطقة. ويمكن التوقف هنا عند تحوّل الحملة الصليبية الرابعة عن خط سيرها المتجه إلى مصر (599/ 1202)، إلى اجتياح القسطنطينية وتأسيس دولة لاتينية فيها، متخلّيةً عن الحافز الديني الذي تقدمت عليه الحوافز التجارية والثأرية[1] وما إلى ذلك من الانحراف عن قضيتها الأساسية.

وكان الأكثر صدمة بانحراف الحركة الصليبية عن غايتها «المقدسة»، البابا أنوسنت الثالث، فلم يجد بدّاً لتصويب مسيرتها، من الدعوة إلى حملة جديدة، لم تحمل بدورها هواجسه الصليبية، بقدر ما كان «إشعال الحرب التجارية في مصر»[2] المحرّك الأساسي لها. وما لبثت هذه الحملة، وقد وافاها صليبيون من المشرق، أن حاصرت دمياط واستولت عليها (616/ 1219)، مما دفع بالسلطان الكامل، صاحب مصر، إلى التفاوض مع قادتها، عارضاً تسليم القدس لهم مقابل الجلاء عن دمياط. ولكن تعنّت الموفد البابوي أدى إلى فشل المفاوضات، واتجاه الكامل نتيجة لذلك إلى الاستنجاد بأخيه الأشرف، صاحب دمشق، الأمر الذي أسفر عن هزيمة الصليبيين واسترجاع المدينة[3] في أعقاب اتفاق على هدنة مدتها ثمان سنوات، كانت جلّ ما حققته الحملة الخامسة، قبل انسحابها (618/ 1221).

وفي تلك الأثناء حدث ما جعل العالم الإسلامي يعاني أسوأ ظروف في تاريخه، مع بدء هجمة المغول على الأطراف الشرقية للخلافة العباسية، في وقت كانت فيه الأخيرة، المتكئة على جهود الأيوبيين في مقارعة الاحتلال الصليبي، عاجزة، بعد ضعف هؤلاء وانقسامهم، عن الحدّ من وطأة تلك الهجمة المنذرة بخطر شديد[4]. فقد تقاطع ــ ربما بصورة غير مباشرة ــ الزحف

---

(1) باركر، الحروب الصليبية ص98 ـ 99.
(2) المرجع نفسه، ص107.
(3) ابن الأثير، الكامل ج12 ص330. باركر، الحروب الصليبية ص109.
(4) المصدر نفسه، ج12 ص358 وما بعدها.

المغولي في الشرق، مع تداعيات الحركة الصليبية في الغرب، وذلك باستهدافهما معاً، ومن دون تحالف مُعلن، المراكز الإسلامية، بدءاً من أقاليم ما وراء النهر حتى الشام فمصر. وفي صخب ذلك التحوّل، تنعكس على الحركة الصليبية مناخات المرحلة، جانحة بها عن الهدف الديني[1]، إلى مشروع يعطي الأولوية لمسائل السياسة والاقتصاد. فجاءت الحملة السادسة بقيادة الامبراطور فريدريك، تعبيراً عن ذلك، في وقت كان فيه الصراع محتدماً بين الكامل ومنافسيه الأيوبيين في الشام، فلم يتردّد وقد تهيّب الحشود الصليبية، في التنازل عن بيت المقدس (626/ 1228)، بعد تخريب أسوارها والاتفاق على هدنة لمدة عشر سنوات[2].

ولكن الامبراطور الذي جوبه بمعارضة من صليبيي الشرق، وجد نفسه مضطراً إلى التخلّي لهؤلاء عن المدينة. فلم يبق له من منجزات الحملة السادسة غير صور التي افتقدها أيضاً لمصلحة معارضيه (1243)، أي قبل عام من استعادة المسلمين مجدداً لبيت المقدس. فكان ذلك مؤشراً إلى بدء اندحار الحركة الصليبية في عمقها الأوروبي[3]، على الرغم من الحملات الخاصة بالملك الفرنسي لويس التاسع الذي سيعرف بالقديس لويس. وقد انعكس هذا الواقع بالضرورة على مراكز نفوذها في الشرق، والتي بدت متعثرة بعد سقوط القدس، الحلقة الأساسية في مشروعها، من دون أن يكون بمقدور البؤرتين الباقيتين منه (انطاكية وطرابلس)، الحلول مكانها في المواجهة الفعلية مع المسلمين.

(1) باركر، الحروب الصليبية، ص113.
(2) المرجع نفسه، ص115.
(3) ابن خلدون، ج5 ص764.

معركة فارسكور
والنهاية الفعلية للدولة الأيوبية في مصر

من المفارقات اللافتة أن الأيوبيين، انطلاقاً من مؤسس دولتهم صلاح الدين، المتأثر، نشأةً ومنهجاً بالمدرسة الزنكية التي أرست دعائم النهضة في خطّها الجهادي ضد الاحتلال الصليبي، قد لا يتعدى تاريخهم الحقيقي، على هذا المستوى، المرحلة التأسيسية الأكثر إشعاعاً فيه. فقد ظلّ هؤلاء يتكئون على تراث حطين التي توقفت مفاعيلها عند حدود تحرير بيت المقدس، فيما جيل أو أكثر من «ملوكهم»، لم تكن لديه هواجس السلف، تراجعت معه الحوافز الجهادية، إلى الحدّ الذي دفع بأحدهم إلى التنازل دونما حرج عن المدينة الأثيرة من أجل التفرغ للسيطرة على دمشق[1]. ولعل تكوين هذه الدولة، إقطاعاً خاصاً بالأسرة الحاكمة، من دون أن تحمل سوى القليل من حوافز السلف، ما أسهم في تراجع العمليات الحربية الكبيرة في المنطقة، وشجع الصليبيين، على ضعفهم، على القيام بحملات ما كانت لتحدث لو ظلّت الجبهة الإسلامية متماسكة، كما كانت عليه أيام صلاح الدين.

والواقع أن هذه الدولة أصبحت ـ بعد وفاة المؤسس، وكان هو نفسه، انطلاقاً من المفهوم الإقطاعي للسلطة، قد كرّس فيها هذا التقليد بعد توزيعها في

(1) ابن خلدون، ج5 ص764.

أسرته ـ عرضةً للانفجار. ذلك ما أكدت عليه مرويات المرحلة، المضطربة بأخبار التنافس بين أبناء البيت الحاكم، لا سيما حول دمشق التي كان لموقعها الجغرافي في صميم حركة الحدث السياسي، تأثيره في اتخاذها محوراً في الصراع المحتدم على النفوذ في ذلك الوقت[1]. وقد روى ابن كثير أن صلاح الدين «قسّم البلاد بين أولاده، فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين أبي الفتح، ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده، والمملكة الحلبية لولده الطاهر غازي غياث الدين، ولأخيه العادل الشوبك وبلاد جعبر وبلدان كثيرة قاطع الفرات، وحماه ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر ابن أخي السلطان، وحمص والرحبة وغيرهما لأسد الدين شيركوه بن ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير. . واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين ابن أيوب، أخي السلطان صلاح الدين، وبعلبك وأعمالها للأمجد بهرام بن فروخ شاه، وبصرى وأعمالها للظافر بن الناصر»[2]. فكيف تجتمع مواقف هذا الحشد من الحكام، بألقابهم الملكية والسلطانية على قضية واحدة، وكل منهم يطمح إلى أن تكون له السيادة على الآخرين؟ لقد أدّى ذلك فعلاً إلى اضطراب الأمور في الشام ومصر، وإلى اختلاف هذه «الممالك» بعد وفاة صلاح الدين على حد تعبير المؤرخ نفسه[3].

وهكذا غدت الجبهة الإسلامية التي كانت وحدتها من أهم إنجازات نور الدين، مفككة، تطغى الصراعات الداخلية فيها، على ما عداها من شؤون الحرب والسلم، لا سيما المسألة الجهادية التي خبا بريقها في ذلك الوقت. وكان من حسن الحظ أن الجبهة الأوروبية لم تكن أحسن حالاً في تناقضاتها، بين البابوية والسلطات الزمنية، من دون أن تقلّل منها استعادة الامبراطور

---

(1) المقريزي، السلوك، ج299.
(2) البداية والنهاية، ج13 ص6.
(3) المكان نفسه.

فريدريك لبيت المقدس، وبين الأخير والقوى الصليبية في الشرق[1]، مما جعل الحرب تستعيد سجاليتها أو ما يقاربها مع المسلمين، على نحو ما كانت عليه عشية السيطرة الزنكية على المنطقة. وكانت أوروبا، مع ذلك، ما تزال تختزن آخر أوراقها الصليبية، في محاولة إلإمساك بزمام الأمور في الشرق، ولكن ما يلفت أن عملياتها لم تنبثق هذه المرة من البابوية التي تخلّت عن الحماسة الدينية لمصلحة أغراضها السياسية[2]، وإنما كان المحرّض على هذه الحركة لويس التاسع ملك فرنسا، حين استفزّه سقوط بيت المقدس مجدّداً في أيدي المسلمين، فلم تمض أربع سنوات على ذلك، حتى كان يأخذ طريقه، على رأس ما يعرف بالحملة السابعة إلى قبرص (646/ 1248).

وثمة ما يلفت أيضاً، هو اتجاه الحملات الأوروبية الثلاث الأخيرة إلى مصر، ليس تفادياً لخطر المسلمين إلى حدٍّ كبير في الشام فحسب، بل لأنها جوبهت بتحفظ حينذاك من صليبيي الشرق، المعترضين على هيمنة الحملات القادمة من الغرب، ما جعل الأخيرة تجد في مصر، مساحة أكثر مواءمة لعملياتها الحربية. وكانت دمياط مرة أخرى هدف الحملة الصليبية الجديدة، فلم تجد هذه صعوبة في احتلالها، إلا أن المقاومة الشعبية التي فاجأتها في المنصورة، حيث انتقل إليها الملك الصالح أيوب تحت وطأة مرض شديد لتنظيم دفاعها، سرعان ما غيّرت موازين الحرب لمصلحة المسلمين. وقد أسفر ذلك عن تراجع الملك الفرنسي وهزيمته في فارسكور بين المنصورة ودمياط، ليقع في الأسر ومعه أخوه وعدد كبير من جنوده، مخلّفاً مئات القتلى في ساحة المعركة[3]، من دون أن يكون لوفاة السلطان الأيوبي حينئذٍ، والتي أخفتها زوجه شجر الدر، تأثير سلبي على مجرياتها. وقد تتوج النصر بمعاهدة نصّت على إجلاء الصليبيين، ـ مرفقاً بغرامة كبيرة ـ عن دمياط، على أن يتمّ في المقابل إطلاق الملك

---

(1) باركر، الحروب الصليبية، ص117.
(2) المرجع نفسه ص20.
(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6 ص369.

والأسرى[1]. فغادر لويس التاسع إلى عكا، حيث قضى أربع سنوات في محاولة غير مجدية لاستنهاض الأوروبيين من أجل دعم حركته المتطرفة والانتقام لهزيمته المذلّة في مصر، ولم يجد في النهاية بداً من التخلّي عن مشروعه والعودة إلى بلاده.

ولعل معركة فارسكور التي أعطت المسلمين ثقة بقوتهم، ورأوا فيها «بداية النصر» على حدّ تعبير المقريزي[2]، لم تتوقف نتائجها عند هذا الحدّ، بقدر ما شكّلت منعطفاً بارزاً في تاريخهم الذي شهد تحولات مثيرة، انعكست بصورة غير متوازنة على المسلمين والصليبيين في آن. فقد شكّل مقتل السلطان الأيوبي الجديد توران شاه بُعيد المعركة، أحد تجليات المرحلة العاصفة التي كان من تعبيراتها المباشرة زوال الدولة الأيوبية. ومن المؤكد أن اصطدامه بالمماليك، القوة العسكرية الصاعدة، والتي أبلت في المعركة السالفة، أودى به إلى ذلك المصير، حين قامت زوج أبيه (شجر الدّر) بالتحريض عليه بعد محاولة تجريدها من نفوذها وامتيازاتها[3]، مختتماً على هذه الصورة المأساوية عهداً دام أكثر من أربعين عاماً، وما برحت العلاقة مع الصليبيين خلاله، تتراوح ما بين النهوض والانكفاء، وإن كان بدايةً ونهايةً قد اقترن بإنجازين كبيرين: الأول في حطّين، مكرّساً شرعية الدولة الأيوبية، والثاني في فارسكور، حيث أخذت هذه الشرعية تتحوّل لمصلحة الطرف الأقوى، والأكثر قدرةً بالتالي على الفوز بها أمام تحديات، لم تكن الهوية الإسلامية في منجى من أخطارها.

(1) باركر، الحروب الصليبية، ص122.
(2) المقريزي، السلوك، ج1 ص351.
(3) النويري، نهاية الأرب، ج29 ص341 وما بعدها.

المماليك، النشأة وملامح الدور الجهادي

تعود ظاهرة المماليك في جذورها إلى عهد المعتصم، ثامن الخلفاء العباسيين، حين استعان بالترك في حروبه الداخلية والخارجية، ليصبحوا بعد وفاته القوة المحركة للسلطة والمهيمنة على الخلافة. ولم يمض سوى القليل من الوقت، حتى امتدّ نفوذهم إلى مصر، التي «انتقلت من الإمارة إلى الملك»، حسب تعبير القلقشندي[1]، وباتت شبه مستقلة عن الخلافة بعد إقطاعها ـ كما سبقت الإشارة ـ إلى ابن طولون، وهو من مماليك بخارى الذين بعث بهم حاكمها الساماني نوح بن أسد، إلى المأمون[2]. وعلى غرار المعتصم الذي بنى لمماليك الأتراك مدينة سامراء، بعد تململ أهل بغداد من سلوكهم، أقام ابن طولون مدينة خاصة بمماليكه المتكاثرين، للحدّ من وطأتهم على الفئات الأخرى، وهي «القطائع»[3]. وإذا كان الأصل التركي ما تحدّر منه المماليك حتى العهد الأخشيدي في مصر، فإن مصدراً آخر شكّل رافداً إضافياً لهم في العهد الفاطمي، وهو المتمثل بالصقالبة[4] القادمين من الغرب. بيد أن العنصر

(1) مآثر الإنافة، ج1 ص247.

(2) البلوي، سيرة أحمد بن طولون ص33 وما بعدها.

(3) المقريزي، الخطط ج1 ص152، ابن أياس، بدائع الزهور، ج1 ص37.

(4) كلمة مشتقة من الكلمة الفرنسية Esclave.

الشرقي لم يفقد نفوذه، وما لبث أن استعاده في عهد الخليفة العزيز، الذي قلّدهم ـ أي المماليك ـ مراكز قيادية رفيعة في الدولة.

ولكن ثمة ما ينبغي توضيحه في هذا السياق، وهو أن المماليك بات اسمهم مجرّد اصطلاح تمّ تداوله ماضياً بمعنى الاسترقاق، من دون أن تكون له الدلالة عينها في عهود لاحقة[1]، إذ تنوّعت مصادرهم، وما لبثوا جميعاً أن أصبحوا في نسيج المجتمع، وبعضهم بين نخبه المشاركة في إدارة الدولة وسياساتها الحربية. وإذا عمّمنا المصطلح على مساحته التركية في ذلك الحين، سنجد أن «الأتابكة» ممن ينطبق عليهم هذا التوصيف، باعتبارهم مماليك لأمراء السلاجقة، مع العلم أن أيّاً منهم لم ينخرط في النظام الاجتماعي والعسكري للمماليك. فقد توالد هؤلاء، كما غيرهم، أحراراً، وتلقّوا العلم في المدارس، ونشأوا على الولاء للخلافة ومذهبها، وبعضهم على شيء من التفقّه بالدين[2]. وإذا كان جزء غير قليل من المماليك ـ وهم من أصول في الغالب تركية (تركمان، جراكسة، خوارزم...)[3] ـ من سبي الحروب، حيث توافدوا على مصر عن طريق تجارة الرقيق، فإنهم ابتداءً من عهد بيبرس، لم يعد ما يميّزهم عن الفئات الأخرى أو تعوقهم ظروفهم الاجتماعية دون التقدّم إلى المواقع القيادية[4].

ومن هذا المنظور، فإن وضع المماليك الأتراك، لم يختلف كثيراً عن الأيوبيين الأكراد، الذين التحقوا بخدمة الزنكيين، من دون أن يكونوا مماليك لهم[5]، ومثلهم اندرجوا في السلطة حتى أمسكوا بزمامها، وعلى غرارهم واجهوا تحديات الواقع، بل كانوا أكثر كفاءة في دورهم الإنقاذي من الغزو

(1) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك في مصر ص72.
(2) المقريزي، ج3 ص347 ـ 348.
(3) المصدر نفسه، ج1 ص368.
(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7 ص183.
(5) المصدر نفسه، ج6 ص3 ـ 4.

الخارجي. ولعل المصطلح يكتسب مضمونه في هذا الاتجاه، مع ظهور الدولة الأيوبية، انطلاقاً من مصر، واجدةً في المماليك ما يساعدها على تثبيت نفوذها أمام منافسيها في الشام، وتنفيذ خططها العسكرية ضد المراكز الصليبية في الأخيرة. وكان الأكراد، وصلاح الدين منهم، إضافة إلى المماليك، مادة الفرقة التي تشكّلت حينذاك، وعرفت بـ«الصلاحية» نسبة إليه، ومن ثمّ أثبتت وجودها في العمليات الحربية لتلك المرحلة. ولكن جناحها المملوكي كان أكثر حضوراً في تداعياتها، وأشدّ تماسكاً أمام الخيارات الصعبة، إلى حدّ الاعتراض أحياناً على قرارات القائد الأيوبي. وقد أشار ابن واصل إلى مثل ذلك، إبّان توغّل حملة ريتشارد (الملك البريطاني) في جنوب الشام، واتجاه صلاح الدين إلى البقاء في بيت المقدس للدفاع عنها، خلافاً لرأي المماليك الذين آثروا الخروج لمواجهة الحملة، وهو موقف استصوبه القائد ولكن لم يأخذ به[1].

واستمر صعود المماليك بعد صلاح الدين، متزامناً مع تراجع نفوذ الأكراد، فاتخذ بعض خلفائه فرقاً منهم تحمل اسمه على غرار المؤسس، مثل العزيزية والعادلية والأشرفية والكاملية والصالحية، تيمناً بأسماء العزيز والعادل والأشرف والكامل والصالح[2]. وكان من الطبيعي أن تنعكس عليهم الصراعات بين «الملوك» على السلطة، فأضعفت هؤلاء بقدر ما قوّت المماليك الذين بلغوا من النفوذ ما جعلهم قابضين على الزمام، يعزلون سلطاناً ويقيمون آخر مكانه. وكانت عناصر كثيرة حينذاك، قد انضوت تحت هذه التسمية (المماليك)، مثل «التركمان والأرمن والروم والجركس وغيرهم، إلا أن اسم الترك (ظلّ غالباً) على جميعهم لكثرتهم ومزيتهم» حسب مروية ابن خلدون[3]. ولكن ذروة نفوذهم في العهد الأيوبي، تجلّت أيام الصالح أيوب، الذي دفعه التنافس مع

(1) مفرج الكروب، ص130 ـ 131.
(2) ابن خلدون، ج5 ص806.
(3) المكان نفسه.
(4) ابن أياس، بدائع الزهور، ج1 ص71.

أقرانه إلى الاعتماد عليهم قوةً أساسية في جيشه[1]، وبنى لهم مقرّاً خاصاً في جزيرة الروضة، حيث سيُعرف الأوائل من سلاطينهم بالمماليك البحرية، نسبة إلى القلعة التي نزلوا فيها بالجزيرة[2].

وليس ثمة شك أن النظام الحربي، والفروسية من أبرز تقاليده، كان وراء تفوّق المماليك في ميادين القتال، ومن ثمّ ارتقائهم إلى المراكز العليا في السلطة. فلم يكن مصادفة توهّج الروح الجهادية في نفوسهم، والتي كانت تتم رعايتها منذ وقت مبكر، في ظلّ تربية إسلامية، تبدأ بحفظ القرآن، ومعرفة الشروط الدينية وآداب الشريعة، وصولاً إلى اكتساب بعض العلوم الفقهية، حتى إذا كان سن البلوغ، يجري التدريب على فنون القتال، كركوب الخيل ورمي السهام واستخدام الرمح، والتدرج أخيراً إلى مرتبة أمير الحرب[3]. وكان ترقّي المملوك في العادة، يخضع لتفوّقه في الفروسية، بما يلفت إليه نظر السلطان الذي يُلحقه، بناءً على ذلك، فيما يعرف بـ«الخاصكية»، وهي تضمّ الصفوة من الأمراء والأكثر سرعة في التدرّج وفي اكتساب ثقته[4]. إلى جانب ذلك كانت العصبية المشتركة، بين السلطان ومملوكه ما يفتح للأخير أبواب الترقية[5]، كذلك العلاقة الخاصة المنبثقة من صلات قديمة بينهما، تجعل المملوك محظياً لدى صاحبه بعد تولّيه الحكم، فيقرّبه إليه ويقلّده أحد المناصب المهمة[6].

وهكذا ارتبط ظهور المماليك في مصر، بمجموعة من المعطيات التي مهّدت أمامهم الطريق، ليس فقط إلى سدة السلطة، ولكن لاتخاذهم، بفضل تكوينهم الثقافي الديني، الدور القيادي في حركة الجهاد ضد القوى الغازية للعالم الإسلامي في ذلك الحين. بالإضافة إلى ذلك، فإن التربية العسكرية

(1) المقريزي، الخطط، ج2 ص116.
(2) المصدر نفسه، ج3 ص347 ـ 348.
(3) السيد الباز العريني، المماليك ص139.
(4) السخاوي، الضوء اللامع ج3 ص232، ج10 ص271.
(5) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7 ص42.

الصارمة، وما انبثق عنها من عقيدة قتالية متوهجة، جعلت المماليك متأهبين في الوقت المناسب لخوض التجربة العاصفة التي غيّرت معالم التاريخ. فلا يعود حينئذ التساؤل ملحّاً، إذا كانوا أرقاء في أصولهم، أو أحراراً في الأساس، «لأن لفظ مملوك ـ حسب تعبير المؤرخ العريني ـ ساوى ورادف لفظ سيد في المجتمع»[1]. وقد يتطابق ذلك مع نظرة المماليك إلى أنفسهم، بأنهم ليسوا مختلفين عن الآخرين، أو تنازعهم عقدة دونية نحوهم، إذ كان موقعهم، قريباً من السلاطين والأمراء، يُشعرهم بأهمية دورهم خارج مفهوم التبعية بمعناها الاسترقاقي المطلق.

وهكذا، ابتداءً من عهد الصالح أيوب، السلطان الأيوبي ما قبل الأخير في مصر، لم يعد المماليك ملحقين فقط بالبلاط، أو مجرد أداة عسكرية تتولى الدفاع عنه ضد الطامعين به من أبناء الأسرة الحاكمة، ولكن السلطة الفعلية باتت حينئذٍ في حوزتهم، حتى قبل إعلان سقوط الحكم الأيوبي. ولعل التداعيات الأخيرة للصليبية الأوروبية، مهّدت ـ من دون قصد ـ الطريق أمام المماليك لإتمام عملية الاستيلاء على مقاليد الأمور في مصر، حيث أصبحت هذه، بعد «حطّين»، الهدف المركزي لحملاتها، بعد الإقرار بفشل المشروع الصليبي في الشام. وهو ما عبّر عنه ابن واصل، المؤرخ المعاصر للصالح أيوب، بأن الملك الفرنسي (لويس التاسع)، في سعيه إلى استرجاع بيت المقدس، كان يدرك «أن ذلك لا يتمّ إلاّ بمُلك الديار المصرية»[2].

ولم يتردّد المماليك إزاء ذلك، في الإفادة من الفرص التي لاحت تباعاً أمامهم، من سقوط دمياط في يد الفرنسيين وعزمهم على التقدم نحو القاهرة، إلى وفاة الصالح أيوب بعد تراجعه إلى المنصورة، حيث المقاومة الباسلة للأخيرة.. كل ذلك جعل المماليك في اللحظة المناسبة أمام دور كان في

(1) المماليك، ص129.

(2) مفرج الكروب، ج2 ص351.

انتظارهم، فلم يتقاعسوا عن التصدي بشجاعة له. وما لبث أحدهم، وهو «أقطاي»، قائد الجيش آنذاك، أن شنّ هجوماً على الفرنسيين، لم يجد هؤلاء أمامه بدّاً من التراجع والانسحاب إلى دمياط. وحدث في تلك الأثناء، أن قدم توران شاه السلطان الأيوبي الأخير إلى مصر، ليخلف أباه الصالح، بتدبير من زوج الأخير (شجر الدّر). فبادر إلى استئناف القتال، مستخدماً السفن الحربية التي حُملت برّاً، وأُنزلت خلف مواقع سفن الأعداء، مسهمة في تشديد الحصار على الفرنسيين، وجرّهم إلى هزيمة قاسية عند «فارسكور»، تتوجت بأسر ملكهم كما سلفت الإشارة.

وكان للفرقة «الصلاحية» بقيادة أقطاي وبيبرس، دور أساسي في تحقيق النصر، الذي رهص بتغيّرات مهمة، سواء على صعيد الجبهة الأوروبية، حيث ركدت الموجة الصليبية بعد حملة لويس التاسع، أو على صعيد الجبهة الإسلامية، منبثقةً منها حالة استنهاض جديدة، بفعل التحديات الخطرة التي واجهتها في ذلك الحين. ولعل ما هو أكثر أهمية من ذلك، أن الإنجاز الحربي تمخّض عن متغيّر سياسي بارز، مع اقتراب السلطة من المماليك، ربما أكثر من اقترابهم منها.. وفي الحالتين كان القادة صانعو النصر، يفرضون حضورهم في خضم هذا التحوّل المثير، ويكرّسون عن جدارة شرعيتهم في ساحة القتال.

ولقد حاول توران شاه توظيف النصر لمصلحته، مخطّطاً لإضعاف المماليك والاستئثار بالسلطة، فعزم على التخلّص من كبيرهم أقطاي، ولكن هذا تنبّه لما يحاك له، وأخذ يخطّط بدوره لإطاحة السلطان، حيث قام مع حليفه بيبرس بمفاجئة الأخير وقتله[1]، من دون أن يتصدّى أحد للدفاع عنه، مما يؤشّر إلى الانهيار الكامل للحكم الأيوبي في مصر. بيد أن قادة المماليك الذين نشأوا على الولاء لهذا الحكم، لم يستعجلوا نقل الأمر إليهم، ربما تخوّفاً من المعارضة الشعبية، أو لعدم التوافق بين قادتهم على اختيار واحد منهم، فآثروا

(1) 27 محرم 648 (2 أيار 1250)، ابن واصل، مفرّج الكروب، ج2 ص371.

اختيار زوج السلطان الأسبق (الصالح أيوب) شجر الدّر، لتبوء الحكم باسم ابنها (خليل) الصغير السّن»[1]. وقد وُصفت هذه المرأة في المصادر العربية، بقوة الشخصية والبأس[2]، فتمكّنت بفضل ذلك من فرض هيبتها وإثبات وجودها في المرحلة الصعبة، مما سيكسبها ـ على قصر المدة التي تولت فيها الحكم ـ شهرتها في التاريخ العربي الإسلامي. وكان أول امتحان لقدرتها، قد تجلى في قيادتها بنجاح المفاوضات مع لويس التاسع، الذي سرعان ما رضخ لشرط الجلاء عن مصر، على أن يقترن إطلاق سراحه بفدية كبيرة.

وعلى الرغم من جهود شجر الدّر في استرضاء مراكز القوى في مصر، لا سيما المماليك البحرية، كذلك محاباة الفقهاء والفئات الشعبية، إلا أن وجود امرأة على رأس السلطة، لقي حينذاك استنكاراً، فيما يرويه ابن خلدون[3]. فاتفق القادة المماليك على اختيار أكبرهم سنّاً (أيبك التركماني) لتولّي الحكم، الذي تخلّت عنه شجر الدّر بعد انقضاء ثمانين يوماً على ولايتها[4]، وكانت حينذاك قد أصبحت زوجاً له فانفرد بالأمر واتخذ لقباً سلطانياً وهو الملك المعزّ (648/ 1250). ولم يمرّ ذلك من دون استفزاز أمراء البيت الأيوبي في الشام والجزيرة، فتوحّدوا تحت قيادة صاحب حلب الناصر يوسف، الذي عرض على لويس التاسع ـ وكان مقيماً في عكا بعد إخراجه من مصر ـ التنازل عن القدس، مقابل مساعدته في استرجاع مصر من النفوذ المملوكي. ولكن ظروف الملك الفرنسي لم تكن مؤاتية لذلك التحالف، لا سيما وأن «أيبك» هدّده بقتل الأسرى، المتبقين لديه بانتظار تسديد بقية الفدية عن إطلاق سراحه، فآثر الوقوف على الحياد، فيما شنّ الأيوبيون حملة، توغّلت مسافة في مصر، قبل أن تندحر في معركة العباسية (649/ 1251)، وتنهار معها آمالهم في العودة إلى هذه

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين ص196.
(2) ابن أياس، بدائع الزهور، ج1 ص89.
(3) كتاب العِبرْ ج5 ص808.
(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج6 ص373.

البلاد. فقد سارع الخليفة العباسي (المستعصم) ـ وقد أثارت مخاوفه حينذاك بوادر الزحف المغولي باتجاه العراق ـ إلى التدخّل وحمل الطرفين على إنهاء الصراع بينهما، والاتفاق على صلح تحت إشرافه، يقضي بتكريس السيطرة المملوكية على مصر، بالإضافة إلى أجزاء من جنوب الشام، على أن تبقى الأجزاء الأخرى في الأخيرة خاضعة لنفوذ الأمراء الأيوبيين[1].

ولكن المماليك الذين تعزّز نفوذهم السياسي بعد الانتصار في معركة فارسكور، حيث أبلى قادتهم في القتال ضد جيش الملك الفرنسي، كان عليهم تجاوز عقبات أخرى، قبل أن تستقيم لهم الأمور في مصر. ومنها الحركة الشعبية التي عُرفت بثورة الأعراب، بقيادة الشريف خضر الدين المتحدّر على حد زعم الرواية التاريخية من سلالة جعفر بن أبي طالب، وكانوا ـ أي الأعراب ـ قد نزحوا إلى الصعيد من الحجاز[2]، وهي ثورة تندرج لدى ابن خلدون في سياق ردّة الفعل على استبداد الترك[3] (المماليك). ولكن مؤرخاً معاصراً يربط بينها والسياسة الاقتصادية للحاكمين الجدد، إذ كانت هذه القبائل العربية، المنخرطة في حياة مستقرة، تعتمد الزراعة نمطاً إنتاجياً لها، وتتولى حفظ الأمن في أماكن وجودها، ومن ثمّ تحظى برعاية الحكم الأيوبي، مقدّمةً له في المقابل ما يحتاج إليه من المقاتلين خلال الحرب[4]. ويردّ هذا المؤرخ السبب المباشر للثورة، إلى تغيّر أسلوب المماليك إزاء هذه القبائل، لا سيما في نزوعهم إلى احتكار «المنتجات الزراعية» وتحديد أسعارها[5]، مما أثار نقمة الفلاّحين ودفع بهم إلى التمرد.

ولعل الواقع الاقتصادي كان يخفي وراءه موقفاً سياسياً ضد الحكّام الجُدد،

---

(1) ابن خلدون، ج5 ص811.
(2) المكان نفسه.
(3) المكان نفسه.
(4) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص128 ـ 129.
(5) المكان نفسه.

الذين رأت فيهم القبائل المتمردة مجرّد مغتصبين للسلطة، لما أظهروه في تلك المرحلة الانتقالية من سوء الإدارة والتعسّف، ما «لم يفعله الفرنج بالمسلمين» على حدّ قول المؤرخ أبي المحاسن[1]. وقد استفزّت هذه الحركة السلطان أيبك، لا سيما بعد طلب قائدها الدعم من الناصر يوسف الأيوبي، إلا أن الأخير أحجم عن التدخل التزاماً منه بالصلح مع المماليك[2]، وعهد أيبك إلى «أقطاي»، القائد المبرّز حينذاك، مهمة القضاء على المتمردين، فأوقع بهم هزيمة قاسية في معركة أخميم (651/ 1253)، ولكن قائدهم الذي تمكن من الفرار، ظلّ يثير قلق السلطة، حتى القبض عليه وإعدامه في عهد الظاهر بيبرس[3].

وثمة عائق آخر حال دون استتباب الأمر بصورة نهائية للمماليك، كان مصدره هذه المرّة، المجموعة الحاكمة نفسها، وهو يتّصل بصعود نجم أقطاي الذي يصفه ابن خلدون بأنه «من أمراء (المماليك) البحرية وعظمائهم»[4]. وقد ساور القلق أيبك إزاء تألق قائده الذي اتخذ من الاسكندرية إقطاعاً له، ومنطلقاً لتحقيق طموحه في السلطة، لا سيما وقد تناهى إلى السلطان خبر عن خطبته ابنة صاحب حماه الأيوبي دعماً لشرعيته في هذا السبيل. فعمل أيبك على إنشاء فرقة خاصة به (المعزّية)، وتقريب قائد (قُطز) لا يقلّ براعة عن أقطاي، ومن ثمّ تعيينه نائباً له[5]، في خطوة لتعزيز موقعه وتحجيم منافسه الخطر، تمهيداً للإيقاع به، قبل أن يقع فريسة له. وما لبث أيبك أن دبّر مكيدة لخصمه، حين استدرجه إلى قلعة المقطّم، وما كاد يجتاز بابها من دون حرسه، حتى انقضّ عليه القائد قطز وفتك به، من دون أن يتمكّن أنصاره، وعلى رأسهم بيبرس من إنقاذه، فمضوا هاربين إلى الشام[6].

---

(1) النجوم الزاهرة، ج7 ص9.
(2) المقريزي، السلوك، ج1 ص386.
(3) المصدر نفسه، ج1 ص388. ابن خلدون، ج5 ص811.
(4) العِبَرْ ج5 ص811.
(5) المقريزي، السلوك، ج1 ص381 وما بعدها.
(6) المصدر نفسه، ج1 ص390، ابن خلدون ج5 ص812.

بيد أن التخلّص من منافس خطر مثل أقطاي، لم يضع حدّاً للصراع المملوكي ـ المملوكي، الذي استشرى حينذاك بين المجموعة المؤيدة لأيبك (المعزّية) والمجموعة الأساسية المنحازة إلى بيبرس، حيث اتصل الأخير بعد لجوئه إلى الشام بالناصر الأيوبي وأغراه بالزحف على مصر لاستعادة نفوذ أسرته فيها[1]. وفي المقابل لم يتأخر أيبك عن التودّد للأيوبيين، مبدياً رغبته في مصاهرة بدر الدين لؤلؤ صاحب حماه، بهدف تكريس موقعه السياسي في مصر[2]. وقد فجّر ذلك أزمة داخل قصره، حيث العلاقة يشوبها الحقد أساساً مع زوجه القوية (شجر الدّر)، وبدا أحدهما يضمر للآخر شرّاً، ويتوسّل أقصى الطرق للقضاء عليه. ولكن شجر الدّر، التي أصبحت على رأس المعارضة في الداخل، متحالفةً في الوقت عينه مع المماليك البحرية، كانت الأكثر ذكاءً، والأسرع إلى تنفيذ خطتها. فقد نجحت في حمل السلطان على موافاتها إلى القلعة، بعدما غادرها متحوّطاً من مؤامرة ضده، حيث كان في انتظاره خمسة من رجالها الأشداء، بينهم أحد فرسان أقطاي، فانقضوا عليه وقتلوه (655/ 1257)[3].

ولم تتوقف مؤامرات القصر، فكانت ضحيتها الثانية، شجر الدّر التي سرعان ما استهدفتها موجة الحقد عندما تربّصت بها الزوج الأولى لأيبك، وتمكنت من قتلها بمساعدة المماليك «المعزّية»[4]. وقد حاول هؤلاء الإفادة من الظروف، بإعلانهم تنصيب ابن السلطان المقتول (علي)، ملقباً بالمنصور خلفاً لأبيه، ولكن ذلك أثار اعتراض الفرق الأخرى التي اتّجهت مجدّداً إلى الاستعانة بالأيوبيين لإيقاف الصراع الدموي في مصر. وكان المغيث عمر، صاحب الكرك، في الموقع الموائم للتدخل، فشنّ حملتين، ومعه المماليك البحرية الملتجئين إليه بقيادة بيبرس، ولكنه فشل في كلتيهما، بعد اصطدامه بالمقاومة

(1) ابن خلدون، ج5 ص813.
(2) المصدر نفسه، ج5 ص815.
(3) ابن أياس، بدائع الزهور، ج1 ص91 ـ 92.
(4) المقريزي، السلوك، ج1 ص404.

الشرسة من جانب القائد سيف الدين قطز، نائب السلطان السابق، كما أُسر عدد من «البحرية» وأُعدموا فيما بعد[1].

ولكن الصراع الدموي بين المماليك، طغى عليه حدث كبير شدّ الأنظار إليه، إذ سقطت حينذاك عاصمة الخلافة العباسية أمام الزحف المغولي، متزامنةً مع انهيار مريع للجبهة الإسلامية في مصر والشام. ففي الأولى كان سلطانها الصبي، الملقب بالمنصور، من قبل أن يخوض غمار حرب، محاصراً بالمؤامرات والاقتتال الداخلي، وفي الثانية ملوكٌ على عدد مدنها، وألقابٌ كثيرة يتخاطبون بها، وكلّها تشير إلى الظفر والنجدة والسؤدد، مثل الناصر (حلب) والمنصور (حماه) والمغيث (الكرك).. فكيف ستواجه هذه الجبهة المزعزعة، الخطر المغولي الذي بات على أبوابها القريبة؟

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7 ص45 ـ 46.

الفصل الثاني

معركة عين جالـوت

إشكالية التاريخ الانقلابي

الشام والمغول ـ الصحوة الكبرى

لعل المعاصرين لتلك الفترة، بصورتها المظلمة، عاشوا أسوأ أيامهم، يعاقرون اليأس، فلا تبدو أمامهم سوى ملامح الهزيمة القادمة. وكانت الشام، خصوصاً، حيث عانت جبهتها انقساماً لم يحدث من قبل في تاريخها الإسلامي، أكثر اضطراباً بموجة القلق الذي خيّم عليها بعد الغزو المغولي للعراق، فيما كانت هواجس المماليك في مصر، محصورةً بالشأن الداخلي، من دون أن يحظى الهاجس المغولي بالاهتمام الفعلي حتى ذلك الحين من جانب دولتهم الناشئة. وقد أسهب المؤرخون في وصف حالة الإحباط التي اجتاحت المسلمين، وكأنها نهاية العالم قد اقتربت[1]، إذ «كان قصدهم ـ أي المغول ـ إبادة العالم لا قصد الملك والمال»[2]، على حد ما رواه السيوطي. كما أورد من قبل ابن الأثير توصيفاً للمحنة الأعظم في تاريخ المسلمين، فقال: «هذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها»[3].. هذه المحنة ربما كان من أوضح تعبيراتها، زوال الخلافة بما تمثّله ـ على ضعفها ـ من رمز لوحدة المسلمين، وأملٍ لنهوضهم من التردّي والانكسارات.

---

(1) تاريخ الخلفاء، ص466.

(2) المصدر نفسه، 467.

(3) الكامل، ج12 ص502.

بهذه المشاعر ترقّبت الشام استهداف المغول لها، خطوةً طبيعية بعد سقوط بغداد، ولم يجد حينذاك أقوى أمرائها الأيوبيين، الناصر يوسف، صاحب حلب ثم دمشق، من سبيل سوى التودّد للغزاة، فحمّل ابنه رسالة بهذا الشأن إلى هولاكو، إلاّ أن سوء التقدير للمتغيرات، كان ما يزال يقوده، حين طلب من الأخير الدعم في المقابل لاسترجاع مصر من المماليك[1]. ومن البديهي، أن القائد المغولي الممسك بزمام الأمور، لم يأخذ بجدية عرض الناصر، وما لبث أن وجّه إليه ردّاً قاسياً، يطلب فيه الرضوخ وتسليم البلاد التي يسيطر عليها دون شروط[2]. بيد أن الناصر، وقد أدرك خطورة الموقف، سعى إلى التحالف مع سيف الدين قطز، وكان ما يزال نائباً للسلطان (علي)، في محاولة يائسة، لمواجهة الزحف المغولي. وقد تجاوز القائد المملوكي، بشخصيته القوية الخلافات الحادة مع الأيوبيين، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، معترفاً بالولاء لهم، ومستعدّاً لتوجيه حملة تحت رعايتهم إلى الشام[3].

ولكن الكلمة الأخيرة كانت للقائد المغولي، فقد عبرت جيوشه حينئذٍ الفرات قاصدةً حلب التي سرعان ما غادرها «الملك الناصر»، قبل أن تسقط المدينة تحت وطأة حصار دام سبعة أيام حافلة بالقتل والتخريب[4]. وما لبث صاحب حماه (المنصور)، أن هرب بدوره[5]، ممهّداً الطريق أمام قائد الحملة (كتبغا) للزحف إلى دمشق، فاستولى عليها «من غير ممانعة»[6] على حد قول ابن كثير (ربيع الأول 658/ آذار 1260). وكان الناصر قد حلّ فيها بعد فراره من حلب، فخرج بقواته، ومعه المعارضة المملوكية بقيادة بيبرس، حيث أقام

(1) المقريزي، السلوك، ج1 ص410 ـ 411.
(2) المصدر نفسه، ج1 ص416 ـ 417.
(3) المقريزي، السلوك ج1 ص418.
(4) المصدر نفسه، ج1 ص423 وما بعدها.
(5) ابن خلدون، ج5 ص81.
(6) البداية والنهاية، ج13 ص519.

معسكراً على مسافة غير بعيدة من المدينة[1]، ثم انصرف عنها بعد انفضاض قوّاده، متهيّبين القتال ضد المغول[2]، فهام الناصر على وجهه حتى أسره جنود كتبغا واقتادوه إلى هولاكو الذي أحجم عن قتله للإفادة منه في خططه الحربية. فقد استغّل نقطة الضعف عند الناصر نحو السلطة، فأوحى له برغبته في إعادة الحكم للأيوبيين، في ظلّ الاعتراف بالامبراطورية المغولية[3]، اعتقاداً منه بقوة تأثيرهم على الجبهة الإسلامية المناهضة للمماليك.

لقد فوجئتْ مصر بالانهيار السريع للشام، ولم يكن في الوقت متّسع لمواجهة التحدي المغولي، إلا بتحصين جبهتها الداخلية، قبل أن تقع بدورها فريسة لتلك الهجمة العاصفة. ولعل أول المؤشرات في هذا السبيل، جاء من المعارضة (البحرية) في الشام، حيث اصطدم بيبرس بالتخاذل الأيوبي، فانكفأ إلى غزّة، مستأذناً خصمه اللدود قطز في العودة إلى مصر، لتوحيد الجهود ضد المغول، من دون أن يتردّد الأخير في استقباله، ليصبح بمثابة وزير له[4]. وقد أثبت «قطز» أنه في مستوى التحدي الكبير، فدعا كبار القادة المماليك إلى مجلس حربي، للبحث في الخطة الموائمة لمواجهة الموقف الخطر. وبدا من بُعد نظره، أنه أشرك الفقهاء في القرار السياسي، لما يملكون من التأثير الشعبي والقدرة على التعبئة والاستنفار في مثل هذه الظروف، حيث يتمّ اجتياح ديار الإسلام، فيما بيت المقدس ينتظر مرة أخرى سقوطه الوشيك.

وقد عكس أبو المحاسن هذا التحوّل باتجاه وحدة الجبهة المصرية، فقال: «جمع (قطز) القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه في أمر التتار. فحضروا دار السلطنة بقلعة الجبل، وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضي بدر الدين السنجاوي قاضي الديار المصرية وغيرهما من

---

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7 ص74.
(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2 ص394.
(3) Blochet. E, Histoire des Sultans Mamlouks P.380.
(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2 ص364.

العلماء، وجلس الملك المنصور علي في دست السلطنة، وأفاضوا في الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام. وخلاصة ما قال: إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام، وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألاّ يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة. وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا. وانفضّ المجلس على ذلك ولم يتكلم السلطان بكلمة في المجلس لعدم معرفته بالأمور ولصغر سنّه، فلهج الناس بخلع المنصور وسلطنة قطز حتى يقوم بهذا الأمر المهمّ، واتفق ذلك بعد أيام، وقبض قطز على الملك المنصور علي»[1].

وتكمن أهمية هذا النص ـ الوثيقة، في تشخيصه الدقيق للأزمة الداخلية في مصر، والحلول المقترحة لمواجهة الخطر المغولي، ويمكن اختصاره بالنقاط الآتية:

1 ـ إعطاء الغزو بعده الديني، في استهداف المغول للإسلام، عقيدة وأرضاً ومقدّسات وهوية حضارية، مما اقتضى إشراك الفقهاء وكبار القضاة في القرار، واتخاذ دورهم التوجيهي إزاء تحديات تعنيهم في الصميم.

2 ـ تمويل الخطّة العسكرية، فلا يقع عبئه على العامة فحسب، بل يكون لبيت المال ومدخرات القادة إسهام وافر فيه.

3 ـ الدعوة إلى الجهاد، وقد أفتى بها كبير الفقهاء المتحدّث الرئيس في المجلس، مصرِّحاً من موقعه بوجوب قتال العدو وتأمين احتياجات الحرب.

4 ـ التعبئة العامة، التزاماً بقضية تخصّ الرعية، وليس السلطة وجهازها العسكري فقط.

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص72 ـ 73. السيوطي، تاريخ الخلفاء ص475.

5 ـ المنحى الترشيدي، بما يساعد الحكم على تذليل الصعوبات التي تعترض خططه وتمكّنه من القيام بدوره إزاء الأخطار الداهمة.

6 ـ وحدة الجبهة السياسية، شرطاً لتفعيل حركة الممانعة ضد العدوان المرتقب، والتي تجلّت في تكريس قطز سلطاناً، بعد خلع سلفه «الصبي»، العاجز عن «تدبير الملك»[1]، وإدارة الموقف الاستثنائي في المرحلة الاستثنائية.

وهكذا وحّد الخطرُ المغولي، الجبهة المصرية، فسارت في خيار الحرب، ولما تزل ذاكرتها مضطربة بالنصر الكبير على جيوش الملك الفرنسي في المنصورة وفارسكور، مستمدّةً منه الإرادة الصلبة والروح المعنوية العالية. وفي ظلّ هذه الأجواء، يصل كتاب هولاكو إلى قطز، طالباً منه الرضوخ، ومهدِّداً، متوعِّداً إن أبى ذلك وصمّم على القتال. هذا الكتاب الذي أورده، بشيء من التفصيل، المقريزي، ربما تمّت صياغته في وقت لاحق على يد المؤرخين المتأخرين، لا سيما وأن كثيراً من مفرداته، ليس مختلفاً عمّا درجوا عليه في هذا المجال. وقد يكون القائد المغولي استعان بأحد الكتّاب المسلمين، ممن نهجوا على اعتماد الأسلوب السجعي، بما يجعل وتيرة التهديد أكثر شدة، كما ورد في هذه العبارة على سبيل المثال: فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق....»[2]. ولكن الكتاب في النهاية الذي «صاغته» عملياً غطرسة القائد المغولي الواثق من النصر، كان ردّ السلطان المملوكي عليه قد صيغ أيضاً بلغة السيف، حين أطاح رؤوس الموفدين المغول، على إيقاع الدعوة إلى الجهاد[3]. ولعلها جسارة، ربما رآها بعض أركانه تهوّراً، أقدم عليه السلطان دون حساب للخوف الذي أشاعته العمليات الحربية العاصفة للمغول، ولكنه في اتخاذه خيار القتال، وضع جانباً مثل هذه المشاعر، وصمّم على

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص73.
(2) المقريزي، سلوك ج1 ص427 ـ 429.
(3) المصدر نفسه، ج1 ص429.

المضي في المهمة الخطرة. فكان دائب التحرّك، باعثاً الحماسة في نفوس الجنود، مستنهضاً القادة للقيام بواجبهم الجهادي، ومندِّداً بالمتقاعسين ممن استباحوا الأموال وهم كارهون للغزو. فلم يعد ثمة تراجع عن القرار الذي بدا حاسماً في مخاطبته هؤلاء: «أنا متوجّه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطّلع عليه، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين» حسب مروية المقريزي[1].

ومرة أخرى نتساءل، إذا كان هذا القول منسوباً بحرفيته للسلطان المملوكي، أو أن الرواية أعادت تركيبه فيما بعد، وهي إشكالية منهجية تنسحب على النصوص كافة، لا سيما التي تنطوي على أقوال أو خطب، من الصعب أن يتمّ تدوينها بصورة دقيقة. ولكن المضمون، أو جزء منه، كانت مفعمة به، من دون شك، هذه المرويات، دون أن تفقد، على الرغم من المسافة التي تفصلها عن الحدث، صخب الموقف وتداعياته المشحونة بالقلق أو الحماسة، وما إلى ذلك من أجواء تعكسها المراحل الاستثنائية في التاريخ. ومن هذا المنظور، يصبح مثل هذه الأقوال، مطابقاً ـ في روحه على الأقل ـ لما كانت تضطرب به اللحظة من الممانعة، والنفوس من التصميم على مواجهة الخطر، بما يستجيب في النهاية لخيار القائد الشجاع.

كان ذلك ما آل إليه موقف الجبهة المصرية في ذلك الحين، أما جبهة المغول، فقد شهدت تطوراً لم يعدم تأثيراً على الوضع العام في الشام، إذ توفي حينذاك الخان الأكبر مونكو (آب 1259)، مما حمل أخاه هولاكو على العودة إلى بلاد فارس، ومعه فرقة كبيرة من الجيش تاركاً لكتبغا مهمة القيادة في الشام[2]. وفي سبيل تدعيم موقعه العسكري، سعى الأخير إلى التحالف مع الصليبيين، إلا أن هذه المسألة ظلّت غامضة، وبدا أن محاولته لقيت الفشل في

---

(1) السلوك ج1 ص429.
(2) العريني، المغول ص254.

هذا السبيل، لعزوف أكثريتهم عن مثل هذا التحالف[1]، ربما لشعورهم بأن المغول لن يتوانوا عن استهدافهم بعد انتهاء حربهم مع المسلمين. وقد أفاد هذا الموقف غير الودي ـ على الأقل ـ المماليك الذين كانت سياساتهم حينذاك ترمي إلى تحييد الصليبيين عن الحرب مع المغول، لأن انحيازهم إلى هؤلاء سيزيد من صعوبة المهمة وتعقيدها.

وهكذا تتوفّر معطيات للجبهة المصرية، من دون أن يكون لها رأي فيها، أو تدبير، مما سيؤدي إلى تغيير ما لمصلحتها في موازين الحرب الوشيكة الوقوع. وكان السلطان قطز حينذاك، قد استكمل إعداد قواته، معزّزةً بانضمام المعارضة إليها، وغادر بها نحو الشام في رمضان 658/ آب 1260. وما لبثت فرقة منها أن توجهت بقيادة بيبرس إلى غزة، في مهمة استطلاعية لأخبار الجبهة المعادية، فاصطدمت بطلائع الجيش المغولي، ودفعت بها إلى التراجع، ممهّدةً لوصول قطز إلى المدينة[2]. وكان لنجاح هذه المهمة، تأثيره الإيجابي على معنويات المماليك، فساروا، وهم أكثر ثقة، بقواتهم عبر الساحل حتى عكا، حيث قابلهم الصليبيون بحذر، وإن اتّصف موقفهم بالمرونة، إلى حدّ إظهار استعدادهم للتعاون معهم[3]. ولكن السلطان، فيما يشبه الاتفاق غير المكتوب مع الصليبيين، شدّد، على الرغم من تقديره لمبادرتهم، على حياد المدينة، مُحذِّراً، من اللجوء إلى قتالها في حالة الخروج عليه[4].

ولعل واقع الصليبيين حينذاك، ما يستثير الاهتمام، إذ بدوا غائبين عن حركة الحدث، منكفئين إلى مدنهم وحصونهم، ليس فقط نتيجة لهيمنة المغول، ولكن الضربة التي سبق أن تلقّاها لويس التاسع، أبرز الدعاة الزمنيين حماسة للمشروع الصليبي، قد أسهمت بصورة مباشرة في هذا الانكفاء، بعد أن

(1) العريني، المغول ص254.

(2) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص78.

(3) Grousset, L'Empire des Steppes. P.438.

(4) المقريزي، سلوك ج1 ص430.

أصبحت مواقعهم في الشام شبه محاصرة، وفي الوقت عينه شبه معزولة عن عمقها الأوروبي. ولم يكن موقف عكا السالف من السلطان قطز، منفصلاً عن هذا الواقع العام للصليبيين في المنطقة، والذي انعكس عليها بأزماته السياسية والاقتصادية. كما أن المدينة سبق أن عانت صراعاً حاداً بين البنادقة والبيازنة والجنوية على أرضها، سرعان ما تورطت فيه مراكز أخرى (انطاكية انحازت إلى البندقية وصور إلى جنوى)، وكاد يجرّها إلى حرب أهلية شاملة[1]. وبناءً على ذلك لم يكن حياد الصليبيين قراراً اختيارياً، بقدر ما كان الدافع إليه تجنّب مواجهات عسكرية غير متكافئة، مع القوى المتصارعة حولهم، مما أسهم في تهميشهم وانحسار نفوذهم عن مساحة الحدث في ذلك الحين.

وفي المقابل، لم تؤثر مغادرة هولاكو للشام، في الموقف المغولي، فما زال كتبغا يملك قوة عسكرية جبارة، تدعمها فرق محلية تابعة للأمراء الأيوبيين المنحازين له، لا سيما الأشرف موسى صاحب حماه[2]. وكان بعضهم قد نصحه بعدم التسرّع في ملاقاة قطز، انتظاراً لوصول مدد من هولاكو، وآخر أشار عليه بعكس ذلك، حسب مروية أبي المحاسن[3]، فمال إلى الأخذ بالرأي الثاني، واستنفر جنوده للتحرك باتجاه معسكر المماليك. ومن الصعب الجزم بأن الأشرف كان مخلصاً في نصيحته لكتبغا، إذ نجده، من جانب آخر، على اتصال بواسطة أحد مماليكه بمعسكر المسلمين، كاشفاً لهم ثغرات في جيش العدو[4]. بيد أن المغول في اندفاعهم إلى تحقيق أهداف توسعية، لم يطرأ حينذاك أي تعديل على خطتهم لغزو مصر، إذ كانوا ما يزالون الأكثر تفوقاً[5]، ولم يجدوا في الحشود «المصرية» ما يربك مسيرتهم الحافلة بالانتصارات الكبيرة.

---

(1) Weit, Gaston, Histoire de la Nation Egyptienne P.410.

(2) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص78.

(3) النجوم الزاهرة، ج7 ص79.

(4) العبادي، قيام دولة المماليك في مصر والشام، ص164.

(5) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص79.

وفي تلك الأثناء كان السلطان قطز قد تقدّم شرقاً إلى عين جالوت، حيث التقى بيبرس (25 رمضان 658)، وهي قرية في الغور من أعمال فلسطين بين بيسان ونابلس، كانت خاضعة للنفوذ الصليبي حتى استعادتها على يد صلاح الدين[1]. وقد ورد ذكرها لأول مرة في المرويات التاريخية الإسلامية، أثناء نزول قوات صلاح الدين فيها، أمام معسكر للصليبيين، ثم انسحابها دون قتال بين الطرفين[2]. وما لبث كتبغا أن وصل بقواته إليها، فكانت معركة طاحنة، حيث نجح المغول بداية في السيطرة على الموقف بعد دحر ميسرة المماليك[3]، الأمر الذي أحدث اضطراباً على جبهتهم كاد يؤدي بهم إلى الهزيمة، لولا شجاعة قطز وصموده الباهر في المعركة.

وليس ثمة شك أن عنصر القيادة على جبهة المماليك، كان له دور أساسي في مسار الحرب، التي أبرزت السلطان قطز شخصية قيادية فذة، مسيطرة على الموقف ومؤثّرة في ضبط حركة الجند المتفانين في القتال. وهو ما توقف عنده أبو المحاسن قائلاً: «حمل الملك المظفر بنفسه في طائفة من عساكره، وأردف الميسرة حتى تحايوا وتراجعوا، واقتحم.. القتال وباشر ذلك بنفسه وأبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً، وعظُم الحرب وثبُت كلٌّ من الفريقين مع كثرة التتار. والمظفر مع ذلك يشجّع أصحابه ويحسّن إليهم الموت، وهو يكرّ بهم كرّة بعد كرّة، حتى نصر الله الإسلام وأعزّه، وانكسرت التتار وولّوا الإدبار على أقبح وجه، بعد أن قُتل معظم أعيانهم، وأصيب مُقدّم العساكر التتارية (كتبغا)، فإنه أيضاً لما عظم الخطب باشر القتال بنفسه، فأخزاه الله تعالى وقُتل شرّ قتلة»[4].

أسفرت عين جالوت عن نصر كبير للمماليك، بقدر ما كانت الصدمة كبيرة على المغول الذين لم يُهزموا في معركة خلال اجتياحهم الشهير.. فقد

---

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4 ص177، أبو المحاسن، نجوم ج7 ص79.

(2) LEWIS, B, Ayn Djalut, Ency. de l'Islam P.810.

(3) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص79.

(4) النجوم الزاهرة، ج7 ص79.

خاض المسلمون الحرب، باعتبارها قضية مصيرية، دفاعاً عن عقيدتهم ووجودهم المهدّدين بالزوال، تحفزهم على التضحية، قيادة أبدت من الجرأة والبسالة ما لم نشهد مثيلاً له في التاريخ العسكري[1]. ولم يكن ممكناً حينذاك، كسب معركة بهذا الحجم من دون قيادة لمّاحة، تكتنه ليس فقط الخطط التي تفضي إلى النصر، ولكن بصورة أكثر شفافية، البعد الديني الموائم له، إذا توقفنا عند الشعارات المترددة على لسان السلطان، وهو في ذروة الحماسة مخترقاً الخطوط الأمامية للعدو، مثل: «واإسلاماه، أو ياألله! أنصر عبدك قطز على التتار»[2]، إلى آخر ما صدع به القائد في تقدّمه الحثيث نحو النصر الذي توجّه ـ على حد مروية المقريزي ـ بالسجود على الأرض والصلاة ركعتين شكراً لله[3].

وتصبح هذه المعركة أكثر أهمية في إطارها الزمني، المطابق في تداعياته للتاريخ «المنقلب»[4] عند ابن خلدون، حين توقف عند حدثين حاسمين في تاريخ المغرب: غزوة بني هلال وسليم، وانتشار الطاعون، بنتائجهما السلبية على حركة التاريخ. . ألم يكن الاجتياح المغولي في تدميره للحضارة، ما يندرج في هذا التوصيف الخلدوني بل أكثر عمقاً فيما عكسه من تحولات انقلابية، صرفت تلك الحركة من خطّ سيرها الطبيعي؟ فقد وقعت المعركة في الوقت المناسب، في تصديها لتلك الهجمة العاتية ووقف الانهيارات الناجمة عنها. وهي عدا تحريرها الشام ودفعها الخطر عن مصر، أعطت لدولة المماليك الناشئة مسوّغ وجودها، متسلحة بالشرعية المنبثقة من النصر الكبير، مما تجلى في الموقف الإسلامي المتعاطف معها، والمقدّر لها دورها الإنقاذي. وكان أبو الفداء مفعماً بهذه المشاعر في تقويمه للمعركة حين قال: «تضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب قد يئست من النصرة

---

(1) المقريزي، سلوك ج1 ص431.

(2) المكان نفسه.

(3) المكان نفسه.

(4) علي أومليل، الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون، ص88. انظر ابن خلدون، المقدمة ص31.

على التتر، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه»[1]. هذه الهالة التي أحاطت بالمماليك انحسرت نهائياً، للأسباب عينها عن الأيوبيين الذين اتُهموا بالتخاذل أمام المغول، وبعضهم لم يتحرّج ـ كما سبقت الإشارة ـ عن مهادنتهم حفاظاً على ملكٍ أو توسّلاً لنفوذ تحت رعايتهم.

وليس ثمة شك أن عين جالوت، لم تنقذ مصر من الاجتياح المغولي فحسب، بل أصبح العالم الإسلامي في مأمن منه، بعد ردعه على يد المماليك. ومن هذا المنظور تكتسب هذه المعركة أهميتها الخاصة في التاريخ الإنساني، متجاوزة في نتائجها، معارك كبرى كان لها صداها وتأثيرها العميق فيه. ذلك أن المغول في هجمتهم المدمّرة على مراكز الحضارة، ما كان لهذه أن تتوقف عند حدّ في هذا السبيل، لو جاءت النتائج مختلفة عما آلت إليه تلك المعركة. فقد وجد المماليك أنفسهم أمام دور، لم يدركوا تماماً بعده الإنساني الشمولي، بقدر ما كان هاجسهم إنقاذ الإسلام من محنته العظمى في ذلك الحين، وهي مهمة اجتازوا بنجاح امتحانها الصعب.

ولم يكتف قطز، «الملك المظفر» حقيقةً، بالنصر العسكري في عين جالوت، ولكنه سرعان ما تقدم نحو دمشق، حيث دخلها «في أبّهة عظيمة وفرح به الناس فرحاً شديداً، ودعوا له دعاءً كثيراً»، حسب مروية ابن كثير[2]، ثم انتشرت قواته في البلاد الشامية مطاردةً فلول المغول، ومحرّرةً مدنها الكبرى حتى حلب التي تمّت استعادتها على يد القائد بيبرس[3].

ولكن تحرير حلب، بقدر ما كان تتويجاً لمنجزات «الملك المظفر»، فقد كان في الوقت عينه ذروة مجده السياسي الذي توقّف عند هذا الحدّ، قبل أن

---

(1) المختصر في تاريخ البشر، ج3 ص214.

(2) البداية والنهاية، ج13 ص222.

(3) المكان نفسه.

يطيحه التنافس على هذه المدينة المهمة. ذلك أن قطز في إعادة ترتيبه للأوضاع الشامية، اتجه إلى الاستعانة ببقايا نفوذ الأيوبيين، ربما إيثاراً لهم على المماليك الذين شكّل بعض قادتهم منافسة فعلية له. فأقرّ في هذا السياق كلاًّ من صاحبي حماه وحمص (الملك المنصور والأشرف موسى) على المدينتين، مقابل التزامهما بعهود الولاء وأداء الضريبة، بينما أجزل لأعوانه، لا سيما الفرقة «المعزّية»، بمنح بعض قادتها إقطاعات في الشام[1]، ابتغاءً للتوازن على جبهة المماليك، المُخترقة من القائد المنافس (بيبرس) الذي سطع نجمه في عين جالوت.

ولقد كان بيبرس الطموح يتطلع إلى حلب إقطاعاً له، بعد أن تمّ تحريرها، كما سبقت الإشارة، على يده، ولكن الملك المظفر آثر عليه صاحب الموصل السابق (علاء الدين بن لؤلؤ)، فعيّنه نائباً له على هذه المدينة، مقدِّراً موقفه من المغول برفضه التعاون معهم[2]، وربما تطلعاً إلى دور يقوم به في رصد حركة المغول في العراق، بالتنسيق مع أخيه (الصالح بن لؤلؤ) صاحب الموصل حينذاك[3]. بيد أن السلطان لم يتنبّه في المقابل، إلى رصد حركة بيبرس ضده، إذ سرعان ما تربّص الأخير به، وهو في طريق العودة إلى مصر، حيث كمن له بالقرب من الصالحية، وتمكن من قتله مع عدد من مماليكه (15 ذي القعدة 658/ 22 تشرين الأول 1260)، ولمّا يمض عام على تولّيه السلطنة[4].

وثمة من المؤرخين من يحمّل الملك المظفر مسؤولية المصير الذي انتهى إليه، إذ لم يبد براعة في السياسة كما في الحرب، واصفاً إياه بقصر النظر، لرفضه منح نيابة حلب لقائده البارز وشريكه في انتصار عين جالوت[5]. وثمة

(1) المقريزي، سلوك ج13 ص222.
(2) ابن كثير، البداية والنهاية ج13 ص222.
(3) أبو الفداء، مختصر ج3 ص216.
(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13 ص222.
(5) عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص171.

آخرون رأوا في ذلك مجرد سبب مباشر، فيما الأسباب الفعلية تتصل بالصراع القديم بين المماليك. ومن المؤكد أن عملية يسفر عنها اغتيال رأس الحكم، لا بدّ أن تكون لها خلفيات أكثر عمقاً، لا سيما وأن المماليك الذين تشكّل نفوذهم في ظلّ ظروف طغت عليها الحرب، كانت ما تزال الصراعات الداخلية محتدمة فيما بينهم حتى اتحادهم في ظروف مماثلة، لتعود أزمة السلطة بعد انتهائها إلى الانفجار. فقد ظلّ بيبرس مصدر قلق للسلطان، من دون أن يبدّد ذلك انضواؤه تحت قيادته في حرب المغول، ولم يدّخر الأخير فرصة في استهداف خصمه القوي، مدبّراً له عملية اغتيال لم تنل حظّاً من النجاح[1]، فيما حالف ذلك، القائد الأكثر حنكة في التخلص من صاحبه والحلول مكانه. وفي المحصلة، إن الأزمة التي نشبت مبكِّراً بين السلطان وقائده، لم تكن ناجمة عن تضارب المصالح بينهما فحسب، بل عكست بوضوح الصراع الحاد بين تيارين مختلفين في الصميم: المماليك المؤيدون للملك المظفر (المعزّية)، والمماليك «البحرية» الأكثر خطورة، المنضوون تحت قيادة بيبرس الذي سيطبع المرحلة الاستثنائية، بحضوره القوي مقاتلاً شجاعاً، وسياسياً بعيد النظر، وبالتالي مؤسساً فعلياً لدولة المماليك.

---

(1) المقريزي، سلوك ج1 ص447.

بين حطّين وعين جالوت

على سبيل المقارنة

ثلاث وسبعون سنة تفصل بين المعركتين الأكثر أهمية في التاريخ الإسلامي، بعد معارك الفتوح الكبرى التي كانت آخر حلقاتها المدوّية في وادي لكّة (أسبانيا) في مطالع تسعينات القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)[1]. وعبر تلك المسافات من الزمن كان ما يزال العالم الإسلامي سادراً في الانكفاء، مشتّت القوى، منشغلاً بصراعاته الداخلية، فيما الخلافة خلال ذلك تتحول إلى ثلاثٍ تناصب بعضها العداء. فقد انتهى عصر التوسع مع سقوط خلافة بني أمية التي تأسست مجتمعاً قبلياً، شكّل القوة العسكرية الضاربة على الصعيد الأمني، والآلة المتفوقة على جبهات الفتوح في الشرق والغرب. وعندما ركدت هذه الحركة، في أوائل القرن الثاني للهجرة، كان يعني ذلك اضطراب المعادلة التي استمد منها المجتمع مناعته وحيويته، لتصبح القبائل، مادة الفتوح، أدوات تفجير في المركز وأطرافه، مسهمةً بدور كبير في انهيار هذه الخلافة.

أما الخلافة العباسية، فقد بدا منذ نشأتها أنها اتخذت نهجاً آخر، عَكَسَ المجتمع التعددي فيها، مكتسباً تقاليد جديدة لم تكن بينها العصبية القبلية التي ارتكز إليها العهد السالف، واستمدّ منها الحافز التوسعي، إذ «لا بدّ في القتال

---

(1) 92هـ/ 711م.

من العصبية» كما يقول ابن خلدون[1]. ومن هذا المنظور تراجعت وتيرة الحروب الخارجية خلال الحكم العباسي، باستثناء ردّات فعل محدودة على الجبهة البيزنطية، في وقت انهمكت فيه الجيوش بحركات التمرّد، عاجزةً عن استعادة الولايات المستقلة أو شبه المستقلة عن السلطة المركزية. ولم تعد الأخيرة في منأى عن الخطر الذي استهدف موقع الخلافة نفسه، فصادرتها قوى الأمر الواقع، إلاّ من بعض نفوذ معنوي، وجعلت القائمين بها عرضةً للإذلال والترهيب.

وهكذا اختزل الشأن الداخلي سياسات القوى المسيطرة على العهود العباسية، فيما الجبهات الخارجية، لا سيما المتاخمة للبيزنطيين، انحسرت عنها الجيوش، مما دفع بهؤلاء إلى اختراق دفاعات الخلافة عبر عمليات منظمة، لم يجرؤوا على القيام بمثلها من قبل. ومن أخطرها حينذاك، حملة الامبراطور نقفوروس فوكاس إلى انطاكية، ومواقع في شمال الشام والجزيرة (359/ 969)[2]، ممهّدةً لحملة أكثر جرأة (365/ 975) بقيادة الامبراطور يوحنا زمسكيس، توغّلت حتى بيت المقدس، قبل أن تتراجع مخلّفة وراءها حالة من الذعر والتوجّس من إحياء المشروع البيزنطي للعودة إلى الشام. وقد بلغ من جرأة هذه العملية أن الامبراطور ـ حسب المؤرخ الفرنسي غروسيه ـ «توغّل في الأراضي السورية وعقد اجتماعاً لقادته تحت أسوار دمشق، متابعاً تقدّمه بعد ذلك إلى أرض الجليل المقدسة، وقد شوهد حينئذٍ يصلي والفرق البيزنطية على ضفاف بحيرة طبرية.. كما شوهد يتسلّق جبل الطور، ولم يكن ما يحول دون دخوله حينئذٍ القدس، ولكنه تحوّل عنها لمحاربة الحاميات العربية.. فاضطر إلى إيقاف حملته والعودة إلى القسطنطينية، حيث توفي قبل تحقيق حلمه في تحرير المدينة المقدسة»[3]. ولكن دخول الفاطميين طرفاً جديداً في الصراع على

---

(1) المقدمة، ص225.

(2) ابن الأثير، الكامل ج7 ص36 ـ 37. أبو المحاسن، نجوم ج4 ص55.

(3) René Grousset, L'épopée des croisades. P2-3.

المنطقة أعاد خلط الأوراق لغير مصلحة البيزنطيين، حيث كانت الشام محور سياستهم الرامية إلى إسقاط الحكم العباسي وتوحيد الخلافة الإسلامية تحت سيادتهم، بما يمكّنهم من صدّ الأخطار الخارجية عنها. وفي هذا السياق تتجلى حماسة المعزّ الفاطمي لإنقاذ الشام من التهديد البيزنطي، مصرِّحاً عشية زحف قواته إلى مصر، بأنه لم «يأت إلى الشرق طمعاً في ملك أو جاه، وإنما للجهاد ووقف خطر الروم»[1].

بيد أن الفاطميين، إذ حققوا نجاحاً كبيراً في مصر، حيث اندرجت الأخيرة، ليس في مشروعهم السياسي لنيف وقرنين فحسب، بل تطبعت بصورة أكثر شمولية بثقافتهم، فإن الشام ـ على الرغم من موقفهم الحاسم من البيزنطيين ـ شكلت عقبة أساسية أمام مشروعهم، حين اقتصر نفوذهم الفعلي فيها على جزئها الجنوبي. وقد اصطخبت الشام حينئذٍ بتيّارات عدة، ولكنها توحّدت، بتناقضاتها، ضد الحكم الفاطمي في الشام، مما جرّ إلى حروب لم تتوقف بين الأخير والقوى الموالية للعباسيين. ولكن ظهور السلاجقة قوة جديدة مهيمنة على خلافة بغداد، شكّل التحدي الرئيس لخلافة القاهرة، لا سيما في تصدّيهم لخطر التوسّع البيزنطي، متوّجاً بانتصار سلطانهم (ألب أرسلان) على الامبراطور ديوجين رومانوس وتدمير جيشه، قبل أن يقع أسيراً في معركة «ملاذكرد» إلى الشمال من بحيرة وان[2] (463/ 1171).

ولكن هذه المعركة التي أحدثت دوياً تجاوز المشرق الإسلامي، إلى العالم الأوروبي، كان من المفارقات أنها توقّفت في نتائجها عند هذا الحدّ، مع انكفاء السلاجقة إلى الداخل، مكتفين بترسيخ نفوذهم في فارس والعراق والشام، في الوقت الذي تراجع فيه الفاطميون جنوباً، منشغلين بدورهم في الدفاع عن مواقعهم، لا سيما بيت المقدس التي تناوبوا السيادة عليها مع

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج4 ص72.

(2) ابن الأثير، الكامل ج10 ص66. انظر: Grousset, L'Épopée des croisades P4.

السلاجقة. ولعل ما يثير الانتباه حينذاك، أن الانتصار الكبير على البيزنطيين، سرعان ما انطوت صفحته في الشرق، ليفجّر استنهاضاً في الغرب، حيث البابوية وجدت فرصتها النادرة لتعزيز دورها القيادي في أوروبا، الغارقة حينئذٍ في صراعات دموية طاحنة. فعملت على توظيف الطاقات المتحاربة من فرسان وإقطاعيين، وإغرائهم بمراكز نفوذ في الشرق، وذلك في إطار ما عرّف بـ«الإحياء الديني»[1] الذي تمخضت عنه الحركة الصليبية.

ومن اللافت حقّاً أن الحملة الأولى في هذا السياق، تقدمت برّاً باتجاه الأماكن المقدسة، متهيّبة السلاجقة، وجدت أن هؤلاء قد انتهوا إلى حالة من الضعف والتفكك، أكثر ما تجلّت في ارتباك صاحب انطاكية ومبادرته، دون ثمة مقاومة، إلى الفرار من المدينة»[2]. وكان لسقوط هذه المدينة المهمة، وهي بمثابة الخطّ الدفاعي الأول عن الشام، تأثيره الواضح على الجبهة الإسلامية، فلم تُظهر من المقاومة الجدية ما يشكّل إعاقة فعلية للزحف الصليبي الذي تابع تقدمه حتى بيت المقدس.

وهكذا تزامن اجتياح الصليبيين مع تصدّع القوتين الأساسيتين في الشام، وهما الفاطميون والسلاجقة، مما انعكس ركوداً على هذه الجبهة لفترة غير قصيرة. وفيما انصرف الصليبيون إلى تنظيم شؤونهم والتخطيط لعمليات توسعية جديدة، انهمكت القوى المحلية في الشام بأمورها الخاصة، وبدت أقرب إلى التعايش مع الغزاة، أكثر من العداء لهم. والتاريخ، مع ذلك، يبقى منحازاً إلى الطبقة الحاكمة، مولياً كل الاهتمام لحركة الحدث على مساحتها، وغافلاً، إلاّ قليلاً جداً، عن دور الفئات الشعبية حولها. ولعل هذا التغييب للأخيرة، يشكل فجوة في السياق التاريخي للمرحلة، التي عانى فيها المسلمون، من النخب الثقافية وعامة الناس، محنةً لم يتناه إلى أسماعهم مثلها من قبل، وكان من ردّات

---

(1) باركر، الحروب الصليبية ص9.

(2) ابن الأثير، الكامل ج10 ص275.

الفعل منهم إزاءها، ما لم يصدر عن الحكّام المتواطئين، أو في أحسن الأحوال المتقاعسين عن دورهم الجهادي، وبالتالي لم تأخذ سوى الحيّز الهامشي من المرويات التاريخية. فمن «المستَنفرين» الذين روّعهم سقوط بيت المقدس، إلى تشكيلات «المتطوعة»[1] والتركمان وبعض القبائل العربية، وغير ذلك من مظاهر الممانعة، بدت المرحلة حينئذٍ تشي بها، راهصةً بتغيرات مهمة، لم يكن ممكناً حدوثها من دون هذا الضغط الشعبي المتصاعد، والذي ستترتّب عليه ما وصفناه بالصحوة الأولى كما سلفت الإشارة[2].

وليس من المبالغة القول في هذا السياق، إن تلك الصحوة التي انطلقت من الموصل، خصوصاً مع الزنكيين، كانت مختلجة بهذا النبض الشعبي، ومستمدةً حيويتها منه. وإذا كانت حركة الإحياء الديني التي بلغت ذروتها في الحروب الصليبية الأولى، وكان لا بدّ من حركة موازية لها في المشرق، فإن الحركة الزنكية المؤسسة على الجهاد، أبدت تفوقاً على تلك التي ظهرت في الغرب، مع تحوّلها إلى قضية محورية في الوعي الإسلامي العام. وفي مقدمة ما يعنيه ذلك أن العدوان، وإن تواطأ التاريخ لحينٍ معه، راضخاً لقوته وجبروته، فإنه مندحرٌ أمام المقاومة المنبثقة من إرادة الشعوب، طال الزمن أو لم يطل. ويبقى الغزو الصليبي الأنموذج في هذا السياق، مطابقاً بصورة أو بأخرى نماذج، ما انفك مصطخباً بمثلها التاريخ العربي الحديث. فالقضية العادلة، هي المنتصرة في النهاية، إذ لا قضية لمعتدٍ على حقوق الإنسان وغاصب لإرادته وأرضه وثروته، وهي بالتالي إن حدثت، فهي تناقض حتمية التاريخ الذي يرتدّ في الوقت المناسب حليفاً للمستضعفين، مناصراً لهم في انتفاضهم على الظلم والعدوان.

ومن هذا المنظور، لم تكن «حطّين» إنجازاً لسلطة يمكن أن تنازعها ظروفها ومصالحها إلى التفرّد والاستئثار، وإنما جاءت نتيجة لتراث جهادي أسهم فيه

(1) سهيل زكار، كيف جاءت الحروب الصليبية ونتائجها. مجلة الجمعية التاريخية ـ حمص 1992 ص79.

(2) إبراهيم بيضون، تاريخ بلاد الشام في العصور الإسلامية ص300، 301، 305، 307 وما بعدها.

الجميع، حكّاماً ـ أو بعضهم ـ ومقاومين، وكان ما يزال يتراكم لأكثر من سبعة عقود من الزمن. وإذا كانت المرويات التاريخية، لا تشير إلى دور للفئات الشعبية في الحرب، على غرار ما حدث في معركة طبرية السالفة، على الرغم من دورها البارز في النصر، فإن هذه لم تشكّل مادة الجيش الأيوبي فحسب، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، في احتشادها حوله، وإيثارها لقائده على منافسة الزنكي الصغير السّن، بعد أن وجدت فيه شخصية بمستوى تحديات المرحلة الصعبة. ولكن هل كانت حطين من «معارك التاريخ الفاصلة»[1]، كما في رأي كثيرين رأوا فيها منعطفاً حاسماً في الحروب الصليبية؟ لقد ذهب أحدهم إلى القول بأنها «حطّمت المؤسسة العسكرية الصليبية، وبات بعدها وجود الصليبيين في المشرق قضية زمن لا أكثر»[2]. فكيف تكون «فاصلة» والمؤرخ نفسه يعترف، وإن بصورة غير مباشرة، بأن الاحتلال الصليبي ظلّ قائماً[3]، تدعمه سلسلة من الحملات التي رفدته بالصمود لمدة طالت أكثر من مائة من الأعوام؟ وهو رأي لم يُقرّ به في النتيجة مؤرخ فرنسي مثل سورديل، في اعتقاده بأن صلاح الدين «اكتفى بإحراز نصف نصر بسبب تخلّيه عن عدد من المدن الساحلية»[4] بعد معركة حطين.

وليس ثمة شك أن هذه المعركة المظفرة، أمدّت الروح المعنوية للمسلمين بجرعة كبيرة من الأمل بالنصر الحتمي على الصليبيين، ولكن ذلك لم يدم أكثر من أربع سنوات، إذ جاءت في أواخرها «الحملة الثالثة»، لتؤكد أن المعركة «الفاصلة» ما تزال بعيدة. وهو ما كرّسه «صلح الرملة» الذي منح القوى الغازية، السيادة على المنطقة الساحلية، الممتدة من صور حتى أرسوف، مقابل احتفاظ المسلمين ببيت المقدس[5]. ولعل القراءة المتمعنة في المرويات التي

---

(1) سهيل زكار، كيف جاءت الحرب الصليبية ونتائجها. ص79.

(2) المكان نفسه.

(3) زكار، المرجع السابق، ص80 وما بعدها.

(4) Sourdel, Dictionnaire Historique de l'Islam p282.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص363.

أشارت إلى «الصلح» وظروفه، تخلص إلى اعتباره نكسة كبيرة للنصر في «حطين»، دون أن يكون القائد الأيوبي، في ضوئها بحاجة إليه، على الأقل بهذا الثمن الباهظ. وفي هذا السياق يروي ابن الأثير، وهو متعاطف مع صلاح الدين، أن ملك انكلترا «قال لمن معه من الفرنج الشاميين، صَوّروا لي مدينة القدس، فإني ما رأيتها، فصوّروها له، فرأى الوادي الذي يحيط بها ما عدا (موضع) يسير من جهة الشمال، فسأل عن الوادي وعن عمقه، فأُخبر أنه عميق وعر المسالك. فقال هذه مدينة لا يُمكن حصرُها ما دام صلاح الدين حيّاً وكلمة المسلمين مجتمعة»[1]. بالإضافة إلى ذلك ـ وحسب مروية للمؤرخ السالف نفسه ـ فإن الملك هو الذي طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده[2]، حيث كان عرشه في مهب الخطر.

وتبقى أهمية حطين في أنها انبثقت من جبهة تخلّت عن كثير من تناقضاتها، لتمسك بزمام الصراع ضد الصليبيين، وتنعطف به لأول مرة من السجال إلى الهجوم، بما يعنيه ذلك من التأسيس لتحرير الشام من احتلالهم. ولكن يبدو أن مثل هذه الخطة الطموحة لم تدر في خلد صلاح الدين، أو لم يكن قد حان أوانها بعد، أو أنه لم يجد في العمر متّسعاً لهذه المسألة. ولم يكن مثل هذه الخطة في بال أسرته التي تقاسمت النفوذ في الشام، العنصر الأساسي في الجبهة الإسلامية، حيث ساد التنافر محل الوحدة وطغى الانكفاء على التحفّز إلى الجهاد، مما أعاد هذه المنطقة مجدداً إلى أجواء ما قبل العهد الزنكي، وأخلّ مرة أخرى بموازين القوى لمصلحة الصليبيين الذين أفادوا من ذلك بالرجوع سلماً إلى بيت المقدس.

ومن المفارقات أن يكون لحطّين من الدّوي في التاريخ، ما فاق كثيراً عين جالوت، مع تمايز أيضاً لمصلحة القائد الأيوبي الذي اقترن اسمه، حتى في

(1) الكامل، ج12 ص75.
(2) المصدر نفسه، ج12 ص86.

الأدبيات الأوروبية بـ«بطل الإسلام»، بينما القائد المملوكي، على أهمية ما قام في التصدي البطولي لمشروع المغول التوسعي، غيبت المرويات تفاصيل أخباره، كذلك الدراسات الحديثة أشاحت عنه، مستأثراً بالهالة دونه بيبرس الذي يصبح من خلال موقعه في السلطة، شخصية المرحلة وبطلها الاستثنائي. وقد يُفسّر ذلك بأن «حطين» كانت لها ريادتها بعد فترات طويلة من الانكفاء الإسلامي الذي بلغ ذروته إبّان الغزو الصليبي، من دون أن يكون لسابقتها «ملاذكرد»، ذلك المضمون الجهادي، بقدر ما كانت النزعة التوسعية للسلاجقة حافزاً لها. كما أن المرحلة طالما ترقبت ظهور المنقذ، الذي شاءت الأقدار أن يكون صلاح الدين، فلم يتردّد في مواجهة التحدي وملء الفراغ بعد نور الدين، والصعود بكفاءة إلى دور كان بانتظاره. بالإضافة إلى ذلك، فإن مجموعة من المثقفين أحاطت بالسلطان الأيوبي، لا سيما العماد الأصفهاني، وجهازاً «إعلامياً» تابع عن كثب حركته اليومية، بما تخلّلها من حروب وعلاقات ومفاوضات، ولم يتوان عن إبراز صفاته الشخصية القيمية، على نحو لم يتوفّر للسلطان المملوكي (قطز) الذي اغتيل بعيد معركة عين جالوت، مما أسقط المقارنة عينها على المعركة الأخيرة التي طغت عليها حطين في مرويات التاريخ.

ولكن قراءة المؤرخ عن قرب، ليست كتلك الصادرة عن بعد، إذ تأتي الأولى مفعمة بالانحياز والانبهار، فيما تتخذ الثانية، من حيث المبدأ، منحًى أكثر واقعيةً وتجرّداً في سعيها إلى مقاربة الحقيقة التاريخية. وإذا أمعنّا في المقارنة بين المعركتين الأبرز في التاريخ الإسلامي المتأخر، سنجد أن حطّين، انطلاقاً مما تقدم، لم تكن «معركة فاصلة»، كما أشار المؤرخ السالف الذكر، بما يعبّر خصوصاً عن المشروع الزنكي، الهادف إلى تحرير الشام من الاحتلال الصليبي. وخلافاً لذلك، يصبح هذا التوصيف أكثر مواءمة لعين جالوت التي كانت حاسمة فعلاً في هذا المجال، إذا أخذنا في الاعتبار النتائج القريبة والبعيدة للنصر العظيم. فقد مرّ على وجود الصليبيين في الشام عشية معركة حطين، نحو تسعة عقود من الزمن، لم ينجحوا خلالها في إضافة مناطق جديدة مهمة إلى

دائرة نفوذهم بعد الحملة الأولى، وبالتالي ظلّ خطرهم محدوداً، ولم يصل إلى مستوى خطر الهجمة المغولية الكاسحة التي سبقت معركة عين جالوت.

وكان ذلك ما توقّف عنده المؤرخ حسن الأمين في قوله: «إن الزحف المغولي منذ تقدم بقيادة هولاكو، لم يوقفه شيء، وانهارت أمامه جميع القوى، حتى خُيّل للناس أنه ماضٍ في فتوحه حتى النهاية، وأن مصر هي هدفه الثاني بعد الشام، وأن هذا الهدف كغيره من الأهداف القريبة المنال.. ولو قدّر للمغول الانتصار العسكري في عين جالوت، لكان الأمر كما ظن الناس، ولكن المقاومة الباسلة التي لقوها عند حدود مصر، والصمود الرائع الذي أعدّه لهم الملك المظفر، أثبت.. أن المغول يمكن أن يُهزموا.. ومن هنا يمكن اعتبار النصر.. في عين جالوت نصراً حاسماً»[1]. وفي السياق عينه يرى المستشرق البريطاني ب. لويس «أن معركة عين جالوت هي انتصار نهائي، أنقذ الامبراطورية السورية ـ المصرية، وحتى الإسلام من التهديد المغولي. فقد كانت المرة الأولى التي تخسر فيها الجيوش المغولية في معركة منظمة. ومما زاد في قيمة هذا الانتصار أن معظم هؤلاء المنتصرين كانوا من الأتراك، وأنهم استعملوا ضد المغول الطرق الخاصة بهم في الحرب، مثبتين أن الحيوية والطاقة لدى شعوب السهوب، هي موضوعة حالياً في خدمة الإسلام»[2].

وليس القصد في مطلق الأحوال، التبخيس من شأن حطين، تلك المعركة التي أصابت المشروع الصليبي بنكسة كبيرة، وجعلته لأول مرة على طريق الفشل، ولكن ما قصدناه من هذه المقارنة، هو ما كان لعين جالوت من دور إنقاذي للعالم الإسلامي، لم ينل ما يستحقه من الاهتمام في الدراسات التاريخية. وإنصافاً للمعركة الأيوبية، فإنها لم تواجه تحديات المعركة المملوكية الأكثر خطورة على العالم الإسلامي، الذي وجد في الحالة الصليبية غزواً آيلاً

(1) الغزو المغولي لبلاد الشام، ص153.
(2) Encyclopedie de l'Islam. Lettre DJ. P810.

إلى الزوال، بخلاف حالة المغول المستهدفة لوجوده وهويته في الأساس، مما سيجعل المقارنة تتجه حتماً لمصلحة المعركة الثانية، أي عين جالوت. فمن وهج النصر في الأخيرة، توطّد حكم المماليك في مصر والشام، ولم يكن ذلك ممكناً من دونه، على الأقل في الثانية التي ما انفك للأيوبيين نفوذ فيها، إلا أن عجز هؤلاء في الدفاع عنها أمام المغول، لم يدعها تتردّد في الانحياز إلى الفريق الذي حرّرها من نير الاحتلال. أما الحرب التي توقفت بعد حطّين، تنفيذاً للصلح بين صلاح الدين وريكاردوس (ريتشارد)، فقد ظلّت مستمرة بعد عين جالوت، حين استمدّ المماليك الثقة بقوتهم القتالية، والتصميم على متابعة الجهاد ضد الصليبيين، فكان لهم مرة أخرى شرف ذلك الإنجاز الذي طال انتظار المسلمين له، بإجلائهم النهائي عن بلاد الشام.

المماليـك والشـرعيـة

الظاهر بيبرس رجل المرحلة

كان واضحاً أن المماليك أفادوا من التجربة الأيوبية، فلم تعصف بهم الصراعات الحادة شأن أسلافهم بعد صلاح الدين، إذ مرّ اغتيال الملك المظفر (قطز)، دون حدوث أزمة سياسية في دولتهم الناشئة التي آل أمرها إلى شخصية قيادية فذة هي الظاهر بيبرس. وبدا من اللقب الذي اتخذه (ركن الدين)، متماهياً مع قيادات الأسرتين الزنكية والأيوبية، أنه يستمدّ شرعيته من الإسلام الذي حالت عين جالوت ـ والظاهر شريك أساسي فيها ـ دون تعرّضه للمحنة الأكثر خطورة في تاريخه. ولعل من تعبيرات هذا النهج، ما تجلى في سلوك السلطان من مظاهر التقوى، كأداء فريضة الحج[1]، والتقرّب من الفقهاء، ومن ثمّ الانفتاح على المذاهب الأربعة، بتعيين قضاة لها في سائر الأقطار التابعة له. كما أظهر من الحماسة للجهاد، ما رسّخ المنحى الديني في مشروعه، الذي تبلور على هذه المساحة، عبر إحياء الخلافة العباسية، وجعلها إطاراً تكاملت فيه عناصر الشرعية لدولة المماليك، لا سيما وأن بؤراً كانت ما تزال للأيوبيين على تخومها في الشام، وبعضها يطمح إلى استعادة نفوذه في مصر.

ولعل هذه المسألة فرضت نفسها بعيد معركة عين جالوت، إذ كان فراغ

(1) المقريزي، السلوك ج1 ص512.

الخلافة ما يستفزّ مشاعر المسلمين، الذين رأوا أنها ـ على الرغم من تهميشها طوال القرون السالفة ـ من ضرورات الأمة، فلا تكون وحدة للأخيرة من دونها. وفي ضوء ذلك أدرك بيبرس أهمية إحياء الخلافة، ليس تحصيناً لشرعيته على صعيد جبهة المماليك فحسب، بل توسيعاً لدائرتها على المستوى الإسلامي العام، وذلك عبر الاستجابة للموقفين الفقهي والشعبي اللذين كان كلاهما واضحاً في تمسّكه بالخلافة، وفي الوقت عينه في الالتفاف حول القائد، المنقذ للأمة ومؤسساتها. وكان ثمة ما جعل بيبرس يلحّ على هذه المسألة، هو قيام حركتين مناوئتين له في كل من الشام ومصر، حيث تكتّل ضده في الأولى، نائب سلفه، مؤيَّداً من بعض الأمراء الأيوبيين، ووقع في الثانية تمرّد، على الرغم من غموض أهدافه، صُنّف لمصلحة الاتجاه الشيعي على نحو ما يرويه المؤرخ المقريزي[1].

وكان قضاء بيبرس على بؤرتي التمرّد السالفتين، قد أعطى لقيادته ألقاً لم يحظ به أحد قبله، منذ غياب نور الدين محمود، وكرّس زعامته «سلطاناً للإسلام والمسلمين»[2]، متميزاً عن أسلافه بهذه الصفة الشمولية الجديدة[3]. وفي ضوء ذلك لم يبق أمامه سوى توفير الغطاء الشرعي لسيادته، وتحصينها مما يواجهها من طعن، خصوصاً من جانب الأسرة الأيوبية التي ما انفكّت تركّز على هذه الثغرة في معارضتها للحكم المملوكي. ولكن هذه كانت قد بلغت من الضعف ما جعلها غير قادرة على التصدّي الفعلي لمشروع بيبرس الذي جاء الفصل المتعلّق بإحياء الخلافة فيه، ردّاً على ادعاءات الأيوبيين، بأنهم يمثلون وحدهم هذه الشرعية. وكان السلطان في ذلك ـ وفقاً لما يراه رضوان السيد ـ يعبّر «عن وعي بالتاريخ والأمة ويعتبر دار الإسلام وحدة مستمرة في التاريخ الحاضر، رمزها الخليفة العباسي أمير المؤمنين الذي تتطلع إليه أبصار المسلمين في العالم كله»[4].

---

(1) السلوك، ج1 ص439 وما بعدها.

(2) رضوان السيد، الفقه والفقهاء والدولة، مجلة الاجتهاد عدد 3 ـ بيروت 1989 ص137.

(3) إبراهيم بيضون، المماليك ومآزق الشرعية، مجلة الاجتهاد عدد 22، بيروت 1994 ص46.

(4) الفقه والفقهاء والدولة، المرجع السابق ص137.

وهكذا يأتي قرار بيبرس في مستوى التحديات المحيطة به، وينمّ عما يتمتع به من ذكاء وشخصية قيادية فذّة، استطاع من خلالهما تدارك تهمة «اغتصاب» السلطة، سواء بالنسبة إليه، أو بالنسبة للمماليك عامة. وقد يكون ما شجّع بيبرس على ذلك، أن مصر باتت، بعد سقوط بغداد وتدميرها، مركز العالم الإسلامي، دون أن تملك الشام التابعة لها، من الشروط ما يؤهلها حينذاك للقيام بهذا الدور المركزي. ولعله ـ كما يرى أحمد مختار العبّادي[1] ـ استلهم قراره من نماذج سابقة في التاريخ، حين راودت بعض الخلفاء العباسيين فكرة اللجوء إلى مصر. وكان من هؤلاء «المعتمد»، بعد خلافه مع أخيه المهيمن على السلطة، الأمير الموفّق، وقد زيّن له حينئذٍ واليها الطموح ابن طولون هذه الفكرة، ولكن الأمير تنبّه لذلك وحال دون خروج الخليفة من بغداد[2]. وتكررت التجربة مع الخليفة «المتّقي» الذي ضاق ذرعاً باستبداد القادة الأتراك، فغادر عاصمته إلى الرّقة في الشام، حيث استقبله بالتعظيم، الأخشيد، حاكم مصر بعد الطولونيين، وعرض عليه اتخاذ مصر مقرّاً للخلافة، ولكن المتّقي لم يتحمّس للفكرة، وما لبث أن عاد أدراجه إلى بغداد[3].

ولعل بيبرس، لو أتيحت له تلك الفرصة بمعطياتها السالفة، لما تردّد بدوره في اغتنامها، ولكن الظروف تغيّرت الآن، فلم يعد هناك خليفة، كما الأسرة العباسية افتقد المسلمون أثرها بعد نكبة بغداد الدامية، مما جعل هذه العملية ملتبسة ويكتنفها الشك بصدد انتماء الرجل، الذي وقع عليه الاختيار، فعْلاً لهذه الأسرة. فقد بدا حينذاك من التداعيات في هذا السبيل، ما يعزّز الارتياب بهذا الأمر، خصوصاً في ظلّ تضارب الأخبار عن أمير عباسي يدعى أبا العباس أحمد، كان قد قدم إلى دمشق، فاستدعاه السلطان لهذه الغاية، ولكن أميراً وصل بالمصادفة إلى مصر، وهو أبو القاسم أحمد، فكان أسعد حظّاً من

---

(1) قيام دولة المماليك في مصر والشام، ص180.
(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص365.
(3) المصدر نفسه، ص396.

الآخر، حيث استُقبل ونُودي به خليفةً في جوٍّ احتفالي مهيب[1].

كان السلطان في الواقع بحاجة إلى مثل هذه المظلّة، لحلّ مأزق الشرعية في دولته، يؤكد ذلك استعجاله حسم هذه المسألة، من دون التوقف عند شخصية الخليفة أو ربما انتمائه الحقيقي للأسرة العباسية. فثمة من شكّك من المؤرخين بصحة نسب الخليفة المُعيّن، إذ كان يميل إلى السمرة الشديدة في لون بشرته، خلافاً لأبناء الأسرة، مما حدا أبا الفداء إلى وصفه بـ«الخليفة الأسود»[2]، ولكن ذلك لم يحل دون تثبيت نسبه، باعتباره عم الخليفة الأخير، المستعصم بالله، والبيعة له تحت لقب المستنصر بالله، وذلك بعد عامين ونصف على شغور الخلافة (660هـ/ 1261م)[3].

ولكن الخلافة لم تستعد شيئاً من بريقها، حتى المعنوي الذي احتفظت ببعض منه قبل سقوطها، وما لبث القائم بأمرها في القاهرة، أن غاب عن الأنظار، مُحتجزاً في قصرٍ خاص به، بعدما حقق السلطان غرضه من بيعته. وعلى ذلك درج الخليفة الثاني والآخرون الذين أقاموا شبه معتقلين في «البرج الكبير»[4]، وليست سوى خطبة الجمعة ما تذكر بهم وتشير إلى حضورهم الهامشي في السلطنة. ومع الوقت لم تعد مسألة الشرعية تثير قلقاً لدى بيبرس، والتي استمدّها مما حققه على الأرض من نفوذ عزّزته انتصاراته الباهرة، وبالتالي تشرّفه ـ استناداً إلى رأي الفقهاء ـ «بتفويض السلطنة على الوجه الشرعي»[5]، ولعل الألقاب التي حملها الخلفاء العباسيون في مصر مثل: المستنصر بالله والمتوكل على الله والمعتضد بالله والمستعين بالله، وصولاً إلى المستنجد بالله الذي عانى المرض لسنتين قبل وفاته[6]، تعكس جميعها محنة الخلافة، وتعبّر

---

(1) المقريزي، السلوك ج1 ص453 ـ 457.

(2) المختصر في أخبار البشر، ج1 ص213.

(3) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص201، 206.

(4) السيوطي، تاريخ ص479.

(5) الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص92.

(6) السيوطي، تاريخ ص514.

عن عجزها، بالمقارنة مع تلك الهالة التي اتخذها المماليك، بألقابهم التي كان فعل السلطة واضحاً فيها، بمثل ما تصادت مع الفعل العسكري، كالمظفر (قطز)، والظاهر (بيبرس)، والمنصور (قلاوون)، والناصر (محمد)، إلى آخر ذلك من ألقاب تواءمت مع دورهم الجهادي الذي أسبغ عليهم من الشرعية، ما لم تستطعه الخلافة القابعة منذ وقت بعيد، وراء الحدث، والمفرغة من أبسط أدواتها المؤثرة في المجتمع.

وسواء كانت البواعث دينية لدى السلاطين المماليك، أو حرّكتها دوافع محض سياسية، فإن المسلمين تعاطفوا معهم بمعزل عن إحياء الخلافة التي كانت مجرد حالة ظرفية، أكثر مما هي ضرورة لدولة تملك من المقومات ما يمكّنها من قهر التحديات. فقد اخترق بيبرس المألوف في اكتساب شرعيته، من غير أن «يُقطعه» خليفة غير قائم في حينه، أو «يقلده» من الأمور ما آل دون اعتراض إليه، ولم يكن بالتالي بحاجة إلى الغطاء الإسلامي، كما هو شائع في المرويات، لتدعيم حكمه بعد اجتماع الفقهاء عليه. ولعل ما احتاج إليه حينئذٍ من الخلافة، هو توظيفها من أجل حسم الصراع الداخلي لمصلحته في مصر، وتحصين نفوذه أمام بقايا الأيوبيين في الشام، وهي مسافة قصيرة يختصرها الموقف من «خليفة الله» الجديد، الذي ما كادت تؤخذ البيعة له حتى اقتيد مغلوباً على أمره[1] إلى القلعة، من دون أن يثير ذلك أي ردة فعل لدى الفقهاء، إذ وجدوا في «سلطان الإسلام» بديلاً مرجعياً عن الخلافة التي ناضلوا طويلاً من أجلها، فإذا بها ـ وفقاً لتوصيف المقريزي ـ «ليس فيها أمر ولا نهي وحسبه (الخليفة) أن يقال له أمير المؤمنين»[2].

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13 ص232.
(2) المواعظ والاعتبار، ج3 ص394.

الشام بين المماليك والمغول

من الواضح أن المماليك فيما وصلوا إليه من دور إسلامي قيادي، إنما يعود الفضل فيه إلى نظام كانت له فرادته، قياساً إلى الأنظمة السالفة. فهؤلاء الذين تنوّعت مصادرهم، واتخذوا من الفروسية طريقاً إلى التّرقي، وإطاراً لوحدة اجتماعية، تعدّت الانتماء إلى الكفاءة، لم يقتبسوا تقاليد النظام الأيوبي الذي تدرجوا فيه، إذ كانوا أقلّ تمسّكاً بمبدأ الوراثة، وبالتالي أكثر تماسكاً من أسلافهم الذين انتهى بهم الأمر إلى التفكك والانقسام. وفي ضوء ذلك يمرّ اغتيال قطز من دون ارتدادات سلبية على تلك الوحدة، ومن دون إثارة لمسألة الوراثة في بيت السلطان السابق، على الرغم من احتجاج تيّار عريض على مصرعه. فقد تواءم هذا النظام مع التقليد الحربي الذي شكل عنصر القوة الأساسية في دولة المماليك، في وقتٍ كان على الأخيرة مواجهة مرحلة ما بعد عين جالوت بتحدياتها الكبيرة.

ولعل هزيمة المغول السالفة، قد دفعت بهم إلى التقارب مع الصليبيين، ضد قوة المماليك الصاعدة، مما جعل الشام محور الصراع بين الأطراف الكبرى الثلاثة، وبالتالي مركز التحدي الأكثر خطورة للسلطان بيبرس. وفيما كان الأخير منهمكاً في ترتيب أوضاعه الداخلية، كانت الهزيمة تتفاعل لدى المغول، مترصدين الفرصة للانتقام، والانقضاض على الشام، وهي سرعان ما تهيأت لهم

بعد تمرّد سنجر الحلبي، الذي كان قطز قد عينه نائباً له على دمشق، وإعلان استقلاله عن المماليك. فاستغلّ ذلك المغول، وسرعان ما شنوا هجوماً على حلب، حيث ارتكبوا فيها مجزرة، انتقاماً للقائد كتبغا، ثم تابعوا تقدمهم حتى تخوم حماه[1] (659هـ/ 1260م). ولكن الحملة المغولية توقفت عند هذا الحدّ، بعدما نجح صاحب حماه في صدّها[2]، في الوقت الذي تحرك فيه بيبرس إلى الشام، فارضاً سيطرته عليها، بعد القضاء على منافسه الأيوبي المباشر، صاحب الكرك[3]، وهزيمته الأيوبي الآخر صاحب حماه، ولكن أبقى الأخير في منصبه تقديراً لموقفه من المغول.

وإذا بدا الوضع حينذاك يتجه لمصلحة المماليك، بعد تحوّل مفاجئ على جبهة المغول، تمثّل بوفاة هولاكو (663/ 1265)، آخذين في الاعتبار إصرار الأخير على تنفيذ مشروعه التوسعي نحو الشام ومصر، فإن التوتّر ما لبث أن عاد إلى هذه الجبهة حين آلت قيادتها إلى ابنه (أبغا)، ومعها الحماسة لمتابعة السياسة العدائية للسلف ضد المسلمين، فضلاً عن نهجه المتعاطف مع القوى الصليبية في المنطقة. ولكن بيبرس، كان لديه من الجرأة والحزم، ومن سرعة المبادرة، ما كان جديراً بإفشال المخطط الهجومي للمغول وإيقافه عند حدود الفرات. وإزاء الانتكاسات التي فاجأتهم، كان على هؤلاء انتهاج سياسة أكثر واقعية نحو المماليك، وذلك عبر محاولة احتوائهم بالوسائل السلمية، والتي استهلّها «أبغا» بعرض صلح على بيبرس، لم يعبأ الأخير به، لما انطوى عليه من الغطرسة والتهديد المبطّن[4]. فلم يتخل المغول عن الشعور بالتفوّق وبحتمية النصر على أعدائهم المماليك، الأكثر جرأة في التصدي لمشروعهم التوسعي، ولكنهم في إصرارهم على تجاهل معطيات الواقع الجديد، بانعكاساتها السلبية على

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص106.

(2) المكان نفسه.

(3) المصدر نفسه ج7 ص658.

(4) المقريزي، سلوك ج1 ص574.

جبهتهم، وجدوا أنفسهم أمام مأزق لم يكن من السهولة الخروج منه. وفيما أخذت التناقضات تشقّ طريقها إلى صفوفهم، متفاعلةً مع حالة عدائية في البلاد التي انتشروا فيها، كانت الصورة مختلفة على جبهة المماليك المتماسكة، والمتوحدة سلطة ونخباً وفئات شعبية حول قرار الحرب، فضلاً عن قيادة جاءت بمستوى التحوّلات الخطرة في المنطقة.

وهكذا، والشام محور الحركة في ذلك الحين، وحيث الأزمات الاقتصادية المتفاقمة، والخوف من اجتياح مغولي جديد، يستهدف الأرض والناس والعقيدة، لم يكن ثمة خيار إزاء ذلك سوى التشبث بخيار المقاومة الذي عبّر عنه السلطان بيبرس، وهو يضع مصيره، ودولته، دون تهيّب أمام التحدي الكبير. وفي ضوء ذلك يكتنه المؤرخ مصدر القوة في موقف السلطان الجريء، الذي ربما رأى فيه القائد المغولي، تهوّراً يشبه ما بدر عن الخليفة المستعصم عشية الهجوم على بغداد. كما يكتنه حقيقة راسخة، أن خيار المقاومة مُنبثقاً عن إرادة الشعوب، هو الذي يخطّ في النهاية حركة التاريخ، وليست آلة الحرب المتفوقة ما يحدّد دائماً مسارها، دون أن تخفي انحيازها في هذه الحالة لغير الطغاة مدمري الحضارة. وغالباً ما تجد تلك الممانعة رديفاً غير منظور يشدّ أزرها باتجاه النصر، فَيُردُّ ذلك إلى قوى غيبية أسهمت فيه، كما صرّح بذلك وليم الصوري في تقويمه لهزيمة الصليبيين في معركة طبرية[1]. وفي ظل هذه الرؤية الرومانسية التي طبعت ثقافة المرحلة، يعجب المقريزي، على الضفة الأخرى، كيف تحالفت الظروف مع الظاهر بيبرس ضد أعدائه المغول، الذين هزموا ـ كما سبقت الإشارة ـ على يد أمير ضعيف هو صاحب حماه، وكيف تدخّلت الرياح فحطمت السفن التي استهدفت الشام في خطة مشتركة بين المغول والصليبيين، مفسّراً ذلك وكأنه «قد ألقى الله في أنفس الناس أن السلطان وحده يقوم مقام العساكر الكثيرة في هزيمة الأعداء، وأن اسمه يردّ الأعداء من كل جانب»[2].

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية ج1 ص548 ـ 549.

(2) السلوك، ج1 ص584.

ولعل ما يلفت المؤرخ، أن السلطان في دوره الإنقاذي، لم يكن مجرد رجل حرب واثق من نفسه فقط، ولكنه أثبت بعد نظر في السياسة، تجلى في القدرة الفائقة على تحقيق التوازن لمصلحته في الشام، على الرغم من تشابك القوى المتصارعة على أرضها. وكان من تجليات هذه السياسة الذكية، أنه في الوقت الذي واجه فيه قوتين معاديتين قاربت بينهما قواسم مشتركة للتحالف ضد المسلمين، فقد سعى إلى تحييد الصليبيين عن المعركة الأساسية مع المغول. وإذا كانت عناصر هذا التحالف، غير كافية لتأسيس جبهة متّحدة، كان الصليبيون طرفاً ضعيفاً وأقلّ حماسة فيها للحرب، فإن السلطان المملوكي نجح، على الأقل، في إعاقة هذه الجبهة، بعدم خوضه القتال مباشرة ضد مواقعهم في الشام، مكرّساً هذه السياسة باتفاق هدنة مع عكا[1]، أهم حصونهم على ساحل الأخيرة.

وفي موازاة ذلك، وأمام تعقيدات الجبهة المغولية، كان موقف قائدها يزداد حراجة، وهو يبحث عن سبيل يؤدي إلى رفع الروح المعنوية لجنوده، المنكفئين وراء خطوط القتال. وكان التطلّع إلى نصرٍ سريع ما خالجه في ذلك الوقت، فوجّه حملة إلى الشام (669/ 1271)، توقفتْ عند حصن حارم[2]، وما لبثتْ أن تراجعت بعد وصول أخبار عن حشود للمماليك تتقدم نحوها، فغادرت إلى مواقعها دون أن تحظى بذلك النصر[3]. ومرة أخرى يلجأ «أبغا» إلى السياسة، في محاولته استدراج بيبرس إلى الصلح، ولكن الأخير جدّد رفضه لمبدأ المهادنة مع المغول، إلا بعد استرداده الأراضي الواقعة تحت سيطرتهم، مما دفع قائدهم إلى اتخاذ نهج مختلف في الحرب ضد أعدائه، متّجهاً إلى التحالف مع القوى المحلية في آسيا الصغرى، لشنّ حملة جديدة على الشام.

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص157.
(2) حصن باتجاه انطاكية، ياقوت، معجم البلدان ج1 ص205.
(3) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص658.

بيد أن بيبرس كان أكثر دينامية في خططه الحربية، وذلك بنقله ساحة الصراع إلى الجبهة الشمالية، مداهماً القائد المغولي قبل اتّصاله بحلفائه سلاجقة الروم، حيث أنزل به هزيمة قاسية في معركة «ابلستين»[1]، ثم دخل مظفراً «قيصرية»، عاصمة السلاجقة (675/ 1277)[2]. وقد أسفرت عن هذه المعركة نتائج شديدة الأهمية، إذ بدتْ للمغول حينذاك ـ على الرغم من متابعة حملاتهم لوقتٍ في المنطقة ـ صعوبة مهمتهم، وكان عليهم أن يعيدوا النظر جدياً في مشروعهم التوسعي. كما أن الحدود الشمالية لدولة المماليك باتت آمنة حينذاك، إضافة إلى ردع الخطر عن حدودها الشرقية، مما جعل جبهة الشام، لوقتٍ، مستقرّة وفي منأى عن التهديد المغولي المباشر.

والواقع أن معركة أبلستين، كانت تتويجاً لجهود الظاهر بيبرس، في حربه على المغول، والذي لم يدّخر وسيلة في هذا السبيل لإبعاد خطرهم عن الشام. فقد توفي بعيد هذه المعركة، إلا أن صورة القائد الشجاع ظلّت في نبض التاريخ، وفي وعي خلفائه الذين اقتبسوا نهجه والتزموا خطّه الجهادي. وعلى الرغم من رغبته في استمرار الحكم في أسرته، وفقاً للتقاليد المتّبعة في الأنظمة الإسلامية، فإن ذلك لم يصبح قاعدة ثابتة في دولة المماليك التي شهدت تقلّبات حالت دون قيام سلطة وراثية راسخة. ولعل بيبرس بوصفه مملوكاً لا يحترم مبدأ الوراثة، «ومع ذلك ـ برأي المؤرخ عاشور ـ فقد غلبت عليه غريزة الأبوة، فأراد أن يتحدى طبيعة المماليك ونظامهم، وأن يورّث العرش لابنه البكر بركه، وقد ظنّ. أن تولية ابنه عهد السلطنة في حياته، وجعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لذلك الابن، كفيل بأن يجعل الأمور تستتبّ على الوجه الذي يريده بعد وفاته»[3].

---

(1) أَبلسْتَين: مدينة في بلاد الروم. ياقوت، معجم البلدان ج1 ص75.

(2) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ ج2 ص62. انظر، عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص186.

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص187.

ولكن السلطان الجديد الذي سيعرف بالملك السعيد[1]، على الرغم من وصية أبيه له بالحزم مع الأمراء المماليك، فإن هؤلاء، أو معظمهم، لم يُقرّوا بزعامته، إذ كان بينهم من يرى أنه أحقّ بالسلطنة منه، فتآمروا على خلعه، وسرعان ما حاصروه في القلعة وحملوه على الرضوخ لمشيئتهم بالتنازل عن الحكم لقلاوون، أحد أكثر الأمراء تحريضاً عليه. ولكن الأخير رفض البيعة خشية أن تؤدي إلى انقسام المماليك، مؤثراً أن تكون لأخي السلطان المخلوع، وكان في السابعة من عمره، على أن يكون الوصي عليه[2]. وقد أبدى قلاوون، وهو الأقوى شخصية حينذاك بين المماليك، حنكة وبُعد نظر في موقفه، ما لبث أن قطف ثمارها بعد شهور فقط، حين وجد أن الظروف تهيأت أمامه للانفراد بالحكم، فلم يتردّد حينذاك في عزل السلطان الطفل والحلول مكانه، متخذاً لقب الملك المنصور[3].

كان قلاوون في قوة شخصيته وذكائه، ندّاً لبيبرس، ومثله ينتمي إلى «المماليك البحرية» الأكثر نفوذاً في السلطنة. ولكنه إذ شكك بولاء قادتهم الكبار، لجأ إلى تأسيس فرقة خاصة به، أتقنت فنون القتال، وأصبحت مادة الحملات المظفرة التي شهدها عهده، كما أعطى اهتماماً للشأن الداخلي، وذلك بإقامة منشآت مدنية وعسكرية في كلٍّ من مصر والشام[4]، كان لها صداها في التأييد الشعبي الذي حظي به، ومكّنه من متابعة المشروع الجهادي، دون معوقات، ضد المغول والصليبيين.

بيد أن الفترة الانتقالية للحكم، من بيبرس إلى قلاوون، لم تمرّ من دون تداعيات سلبية، جعلت دولة المماليك مجدّداً أمام تحديات أخطار جسيمة. فما لبث الأمير شمس الدين سنقر، من جماعة الملك الظاهر (بيبرس)، مستغلاً أزمة

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص274.
(2) المقريزي، سلوك ج1 ص657.
(3) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص326.
(4) المصدر نفسه ج7 ص226 ـ 227.

الحكم في القاهرة أن أعلن نفسه سلطاناً في الشام[1]، بعد عام من تولي قلاوون الحكم (678/ 1279)، واتصل بالمغول لمساندته ضد الأخير. فلم يتردّد «أبغا» خليفة هولاكو في توجيه حملة جديدة، اجتاحت حلب، مذكّرةً بعمليات القتل والدمار المألوفة لدى المغول. ولكن هؤلاء، انطلاقاً من التجارب السالفة غير المشجّعة، تفادوا البقاء في المدينة، وما لبثوا أن غادروها بعد أن تناهت إليهم أخبار عن تقدّم لقوات المماليك نحوها.

ولعل العنصر النفسي كان له تأثيره في هذه الحرب، التي جعلت المغول يتهيبون المواجهة المباشرة مع أعداء تصدّوا بجرأة متناهية لهم، ونالوا من هيبتهم العسكرية.. وهو ما لفت إليه أبو المحاسن في مرويته عن الغزوة المغولية الأخيرة، لتلك المدينة التي ما انفكت تشكل بالنسبة إليهم مفتاح السيطرة على الشام، وقد جاء فيها: «إن بعض من استتر بحلب يئس عن نفسه في الحياة، فطلع منارة الجامع وكبّر بأعلى صوته على التتار وقال: جاء النصر من عند الله وأشار بمنديل كان معه إلى ظاهر البلد، وأوهم أنه أشار به إلى عسكر المسلمين، وجعل يقول في خلال ذلك: اقبضوهم من البيوت مثل النساء! فتوهم التتار من ذلك وخرجوا من البلد على وجوههم»[2].

وبذلك نجت الشام من غزو، ما انفك المغول يتوقون إليه، منذ اندحارهم في عين جالوت، فيما آلت حركة الأمير سنقر إلى الفشل، بعد انفضاض أصحابه عنه[3]، ورضوخ قائدها لمشيئة قلاوون الذي أدرك نقطة ضعفه إزاء السلطة، فعيّنه بعد قدومه إلى الشام حاكماً على انطاكية[4]. وليس ثمة شك أن أخذ الأمير المتمرد بهذه المرونة، ناجم عن خطورة الموقف في الشام، وحرصٍ من جانب السلطان على تحصين جبهتها لردع المشروع المغولي الذي ما انفك يستهدفها في

(1) المصدر نفسه، ج7 ص294.
(2) النجوم الزاهرة، ج7 ص299.
(3) المكان نفسه.
(4) المصدر نفسه، ج7 ص301.

ذلك الحين. فقد أظهر «الملك المنصور» بعد نظر في سياسته الحربية، مقتدياً بسلفه (الظاهر بيبرس) في تحييد الصليبيين، ليتاح له التفرغ للعدو الأكثر خطورة في الشام. وقيل إن رسولاً مغولياً، وفد حينذاك على عكا، طالباً من حاكمها المساعدة[1]، ولكن الموقف الصليبي عموماً، سواء في الشرق أو في أوروبا، كان ما يزال حذراً في العلاقة مع المغول، في الوقت الذي مال إلى تثبيت الهدنة مع المماليك، بعد انقضاء أوانها مع تحرك السلطان إلى الشام، فلم يتردّد هذا في تجديدها عشر سنوات أخرى (680/ 1281)[2]، تأكيداً على السياسة الرامية إلى تحييد القوى الصليبية في المنطقة.

وبوصول الملك المنصور إلى دمشق وسيطرته على الموقف فيها بعد تجديد الصلح مع عكا، واحتواء تمرّد الأمير سنقر، بات وجهاً لوجه أمام المغول الذين أعدّوا حملة جديدة، سرعان ما انطلقت نحو الشام، فاستدعى السلطان قوات إضافية من مصر، «ولم يتأخر أحد ـ حسب مروية أبي المحاسن ـ من التركمان والعربان وسائر الطوائف»[3] لتشهد الشام جوّاً من التعبئة، كان شبيهاً بذلك الذي عرفته مصر عشية معركة عين جالوت. وما لبثت طلائع القوات المغولية بقيادة «منكوتمر»، الابن الآخر لهولاكو، أن وصلت إلى عينتاب، فيما تقدّم الملك المنصور بجيشه إلى حمص، حيث التقى مع أعدائه في معركة طاحنة كاد يهزم فيها، لولا المقاومة الباسلة التي أظهرها، وجعلته ينتزع بصعوبة النصر[4] (680/ 1281). ولعل هذه المعركة، بنتائجها المهمة، غيّرت موازين الصراع في المنطقة بصورة شبه نهائية لمصلحة المماليك الذين فرضوا أنفسهم قوة أساسية فيها. ولم يعد أمام المغول الذين تراجعوا إلى العراق، متكبّدين خسائر فادحة، سوى الانكفاء فترةً أخرى عن الشام بعدما عانت هاجس غزواتهم لنحو عشرين من الأعوام.

(1) العريني، المغول ص299.
(2) المرجع نفسه، ص300.
(3) النجوم الزاهرة ج7 ص302.
(4) المصدر نفسه ج7 ص303 ـ 304.

بيد أن المغول، على الرغم من الهزائم والنكسات التي نزلت بهم في حروبهم الطويلة مع المماليك، ظلّوا يمنّون النفس باجتياز هذه العقبة الكأداء واستعادة زمام المبادرة في مسيرتهم التوسعية. وبعد أقل من عشر سنوات على معركة حمص، وفي عهد السلطان «غازان»، عاد خطر المغول يستهدف مجدّداً هذه الجبهة، فتوغّلت جيوشهم فيها، حتى إذا اقتربت من «السلمية» انهارت مقاومة المماليك، وطوردت فلولهم حتى دمشق (699/ 1299)[1]. ولكن حامية المدينة في القلعة، أبدت من الممانعة، ما حال دون السيطرة الكاملة للمغول عليها، وما لبثت أن تعزّزت بحملة على رأسها السلطان الناصر محمد الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه قلاوون، مسبوقة بكبار قادة المماليك، حيث التقوا جميعاً في مرج راهط بالقرب من دمشق، وأنزلوا بالمغول هزيمة أجبرتهم على الانسحاب من الشام، متكبدين خسائر فادحة[2].

وكان لهذه المعركة صدى كبير في أقطار السلطنة، لا سيما في دمشق، التي خرج منها الناس مهلّلين للفتح العظيم حسب تعبير أبي المحاسن، واستقبلوا في موكب احتفالي كبير السلطان الناصر[3]، بينما شهدت القاهرة إزاء ذلك، حركة مؤيدة للأخير ضد منافسيه من القادة المماليك، لم يجد هؤلاء بدّاً أمامها من الرضوخ له والاعتراف بسيادته[4]. وهي حركة تعكس الموقف الشعبي وتأثيره في مسار المرحلة، منذ أن تولى المماليك زمام الأمر، مستمدين قوتهم من هذه الانتصارات الباهرة. وقد تجلى ذلك على نطاق واسع، خصوصاً أمام تحدّي الغزو المغولي، إذ لم يعد هذا الأمر من شأن القادة العسكريين فحسب، بل كان للشعب، نخباً وجمهوراً، تأثيره في تلك التداعيات، معبِّراً عن رأيه أحياناً في شؤون تخصّ الحرب والسياسة على السواء، وليس مجرد مجموعات

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14 ص6.
(2) أبو المحاسن، نجوم ج8 ص158 ـ 159.
(3) المصدر نفسه، ج8 ص163.
(4) المصدر نفسه، ج8 ص173.

خاضعة لمشيئة السلطة، ومنصاعة بالمطلق لأوامرها. وكان ذلك واضحاً في تقلّد الناصر مرات ثلاث الحكم، فما يكاد ينقلب عليه خصومه وينزلوه عن عرشه، حتى يعود إلى منصبه بضغط من الحركة الشعبية المتعاطفة معه، تقديراً لانتصاره البارز في مرج راهط، دون أن يدّخر سبيلاً من جانبه في توفير الاستقرار والرخاء، لدولة شهدت نهوضاً عمرانياً واقتصادياً وثقافياً لافتاً خلال عهده الطويل[1].

وعلى الجانب الآخر كانت جبهة المغول تشهد تحوّلاً جديداً، إذ توفي القائد أبغا، ولحق به في السنة عينها (681/ 1282) منكوتمر قائد الحملة الأخيرة على الشام. ومع تولّي أخي أبغا، تكودار سلطاناً (ايلخاناً) على مغول فارس، بدا هؤلاء أكثر تفاعلاً مع البيئة ومناخها الديني والثقافي، بعد تنصّر السلطان الجديد على المذهب النسطوري، المنتشر في العراق والجزيرة. ولكن المثير أنه تحوّل بعد ذلك إلى الإسلام[2]، أو تظاهر به لكسب ودّ المحيط الذي ما انفك رافضاً للمغول، مقاوماً احتلالهم، مما يعبّر عنه كتابه إلى السلطان قلاوون قبل وفاته، مظهراً فيه الإسلام ومستخدماً مصطلحاته، مثل الدعوة إلى اجتماع «كلمة الأمة» وإخماد «الفتنة النائرة»، و«الله الموفق للرشاد والسداد»[3]، إلى آخر ما يشي به الكتاب من نفس إسلامي وصياغة، لا بدّ أن أحد الفقهاء المحيطين به قد تولى أمرها. ولكن السلطان المملوكي حينئذٍ، وإن حمل جوابه نبرة مماثلة، ربما وجد في دعوة نظيره المغولي، مجرّد مناورة لاستدراجه، فلم يتخل عن الشك في نواياه، لا سيما وأن الأخير ما زال ممعناً في سياسته العدوانية إزاء المسلمين، فاشترط السلطان المملوكي وقف الغارات على الشام لعقد اتفاق سلام معه[4].

(1) المقريزي، المواعظ ج2 ص306. انظر أيضاً: أبو المحاسن، نجوم ج8 ص208 وما بعدها.
(2) العريني، المغول ص302.
(3) المرجع نفسه، ص360.
(4) العريني، المغول ص365.

ولعل تكودار الذي اتخذ لنفسه اسماً جديداً هو أحمد، كان صادقاً في تحوّله إلى الإسلام، ولكن ذلك لم يحل دون استمرار عدائه للمماليك، في الوقت الذي جوبه بمعارضة شديدة لهذا المنحى من جانب المحيطين بالخان الأكبر للمغول (قوبيلاي)، لا سيما المتعاطفين مع بطاركة الكنيسة النسطورية الساخطين عليه. وما لبث حاكم خراسان أرغون (ابن أبغا)، أن زحف على رأس حملة لقتال تكودار، حيث أنزل به هزيمة بالقرب من قزوين، قبل أن يتعرض الأخير لمؤامرة أودت به من جانب قادته المقربين (683/ 1284)، لتشهد الجبهة المغولية حينذاك تحوّلاً جديداً في العراق، كانت الكنيسة النسطورية الأكثر إفادة منه. وقد نجم عن ذلك تقاربٌ مع الصليبيين الذين ترددوا حتى ذلك الوقت في التحالف مع المغول، مشكّكين بدورهم في صدقية ما قيل عن تنصّر القائد «أرغون»، مما حال دون الاستجابة السريعة لدعوته إلى غزو مشترك ضد المماليك. وفي سبيل تنفيذ خطته، اتّصل الإيلخان المغولي بالبابوية، محرّضاً على توجيه حملة جديدة إلى الشرق[1]، ولكنه اصطدم بركود الموجة الصليبية في أوروبا، متأثرة بالانتكاسات السابقة، فضلاً عن انشغال القوى المعوّل عليها، في صراعاتها ضد بعضها البعض، وغير ذلك من معوقات فاجأت أرغون ودفعت به إلى طوي فكرة القضاء على دولة المماليك.

وهكذا فشل مشروع المغول التوسعي، من دون أن يجد حلاًّ في محاولة الاختراق عبر الإسلام حيناً، والمسيحية حيناً آخر. فكانت آخر تداعياته العسكرية في مرج راهط، تلك المعركة التي شكلت منعطفاً حاسماً في العلاقات الحربية بين المغول والمماليك. وكان من أبرز نتائجها، أن الغزاة وجدوا أنفسهم أمام مأزق لم يكن ثمة سبيل للخروج منه، إلا بالتحالف مع قوة أخرى أو الإقرار بالهزيمة، وهو إقرار طال أمده. وفي ضوء ذلك نفسّر محاولة الاتصال ـ كما سلفت الإشارة ـ مع الغرب الأوروبي، من أجل شنّ حرب مشتركة على الشام،

---

(1) العريني، المغول، 331.

مساومين الصليبيين على أن تكون لهم بيت المقدس، مقابل سيطرة المغول على حلب ودمشق. كما نفسّر غياب أي تهديد للمنطقة خلال عهد «أرغون»، الذي سرعان ما قضى نحبه، فيما التحوّل حينئذٍ يبلغ ذروة تداعياته، ولكن في غير الاتجاه الذي سار فيه، حيث انضوى مغول فارس في الإسلام بعيد سنوات على غيابه. وكان المماليك الأكثر إفادة من هذه التحوّلات، لا سيما وأنهم أثبتوا تفوقهم، في الحرب، كما في السياسة، على المغول، ونجحوا في احتواء الموقف على الجبهة الصليبية التي ظلت شبه هادئة خلال تلك المرحلة.

الشام بين المماليك والصليبيين

ليس ثمة شك أن تفوّق المماليك في الصراع على الشام، يدين بصورة خاصة للسياسة التي نهج عليها مؤسس دولتهم الظاهر بيبرس، وذلك في إرسائه نظاماً عسكرياً، أظهر كفاءة عالية في القتال على الجبهات كافة، سواء ضد المغول، أو الصليبيين، أو القوى الحليفة للطرفين في آن. وإذا كان الصليبيون لم يخوضوا مباشرة في المواجهات الكبرى حينئذٍ، فإن إحدى إماراتهم، وهي انطاكية، بدت في موقعها الجغرافي على تخوم الحدث، متفاعلةً مع حركته، خلافاً للمراكز الصليبية الأخرى. كما أن حاكمها بوهمند السادس تورّط في الانضمام إلى تحالف المغول ـ أرمينية الصغرى، مسهماً في تأجيج الصراع الذي امتدّ لوقت طويل بين المغول والمماليك. ولكن الحرب ضد الصليبيين اتّسمت عموماً في تلك الفترة بالتقطّع، خلافاً لتلك التي شهدتها جبهة المغول، إذ كان السلطان بيبرس ما يعنيه في الأساس، هو منع تحالف ضدّه كان كثير من شروطه متوفراً بين الطرفين.

وفي هذا السياق كانت الهجمات التي شنّها السلطان على عكا وبعض المواقع الصليبية، تحذيراً لأمرائها من التعاون مع المغول، أكثر مما استهدفت احتلالها، على الرغم من خضوع عدد منها لسيطرته[1]. وفي السياق عينه تندرج

(1) المقريزي، السلوك ج1 ص550.

حملته إلى أرمينية الصغرى، ردّاً على التكتّل السالف الذكر، مُوقعةً هزيمة كبيرة بقواتها في سهل كيليكيا، ومتوغّلة حتى عاصمة الأخيرة[1] (664/ 1266). ولم تكن الحملة على انطاكية في ذلك الوقت، تعني بدء الحرب الموسّعة ضد الصليبيين، بقدر ما صبّت في عرقلة خطط تلك الجبهة ضد المماليك، إذ سرعان ما لجأ السلطان (بيبرس) إلى المهادنة معها، بعد أن تناهى له خبر تكتل القوى الحليفة لإنقاذ انطاكية التي شكّلت خطّاً دفاعياً منيعاً لتلك الجبهة.

بيد أن الصراع على النفوذ بين قادة المغول في ذلك الحين، أتاح للسلطان القوي، التحرك مجدّداً لحسم السيطرة على هذا الثغر المهم، فأعدّ لذلك خطّة مُحكمة، قضت باختراقه عبر جيوش ثلاثة: يستهدف الأول محاصرة الميناء (السويدية) لمنع اتصال المدينة بالبحر، والثاني، السيطرة على دروب طوروس، والثالث بقيادة بيبرس، اتجه إلى حصارها بصورة مباشرة. وما لبثت جيوش المماليك مجتمعة أن أحاطت بأنطاكية، في وقت كان حاكمها قد غادرها إلى طرابلس، من دون أن تنجح حاميتها ـ التي اعتمدت على دعم خارجي، لم يتوفّر هذه المرّة لها ـ في منع سقوطها (666/ 1268)[2]. وقد شكل ذلك ضربة قاسية، ليس للصليبيين الذين فقدوا ثانية إماراتهم الشرقية بعد الرها، بما يعنيه هذا الواقع الجديد من الانحسار لنفوذهم، ليس في الشام فحسب بل لحلفائهم الذين وجدوا في سيطرة المماليك على انطاكية تهديداً مباشراً لهم.

وبسقوط انطاكية التي ظلّت أكثر من مائة وسبعين عاماً في قبضة الصليبيين، تضعضع نفوذ هؤلاء في الشام، وبدا أن العدّ العكسي لمشروعهم قد بدأ فعلاً في ذلك الوقت. ولكن الحرب على الرغم من الإنجاز الكبير، لم تأخذ بعدها الشمولي في هذا الاتجاه، إذ كانت معركة انطاكية مرتبطة بالصراع مع المغول، أكثر من الصراع مع الصليبيين، والذي اقتصر بعد ذلك على عمليات

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص140.
(2) المقريزي، ج1 ص567.

محدودة. وكان من نتائج هذا السقوط، أن المدينة الأكثر أهمية في موقعها الجغرافي بين المراكز الصليبية، سرعان ما افتقدت امتيازها، ليس على الصعيد العسكري فحسب، بل على الصعيد الاقتصادي أيضاً، كونها حلقة أساسية في تجارة الشرق التي انكفأت عنها، إلى «أياس» في أرمينية الصغرى، لتتحول إلى مجرّد خطّ دفاعي للمماليك، أمام المغول وحلفائهم في المنطقة[1].

وقد شجّعت استعادة انطاكية السلطان بيبرس، على اتخاذ مبادرات أكثر جذرية ضد المواقع والحصون الصليبية، مغتنماً فترات الركود على جبهة المغول، لتوسيع دائرة عملياته التي استهدفت إحداها جزيرة قبرص، وهي ما انفكّت لوقتٍ تقلق بحرية المماليك، وتشكّل خزاناً يرفد الصليبيين بالمساعدات العسكرية والاقتصادية. ولكن عملية قبرص واجهتها ظروف مناخية قاسية، أجبرتها على التراجع إلى الساحل الشامي (668/ 1270)[2]. وبدت طرابلس حينذاك هدفاً حيوياً للسلطان المملوكي، ممهّداً لذلك باحتلال عدد من الحصون الواقعة في فلكها، إلا أن مجيء الأمير البريطاني ادوارد وما أُشيع عن حملة صليبية كبيرة بقيادته، فضلاً عن تردّد أخبار عن غزوٍ جديد للمغول، كان ما دفعه إلى التريّث في خطّته، والاتجاه إلى عقد هدنة مع الصليبيين في طرابلس (680/ 1281)[3].

وليس ثمة شك أن بيبرس بشخصيته القيادية اللمّاحة، وعبقريته الحربية، اكتنه جيداً أبعاد المرحلة في تناقضاتها وتعقيداتها، موظّفاً المعطيات لمصلحة خططه، ومتحكّماً بالتوقيت المناسب لها. فيخوض القتال حيث تتوفر الظروف الموائمة له، وينثني عنه إلى المهادنة حين تلوح أمامه معالم الخطر بما يقلب موازين الصراع لغير مصلحته. وبفضل هذه المعادلة التي أمسك بزمامها، بات رجل المرحلة القوي، وحقق خلال سنوات قليلة من الإنجازات، ما لم يتح لأسلافه تحقيقه عبر عقود طويلة من الزمن. فعلى هامش الحرب مع المغول،

(1) العريني، المغول ص290.
(2) عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص47 ـ 48.
(3) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص152.

حيث كانت قوات المماليك معبأة لقتالهم، لم يتوان بيبرس عن الحصون الصليبية، وفي مقدّمتها عكا التي وجد صعوبةً في اختراق دفاعها[1]، إلا أنها باتت في دائرة عمليات المماليك، ولم يكن بوسعها التدخّل لإنقاذ الحصون التابعة لها[2]. وكان التحاق عدد من الصليبيين حينذاك بالمدينة، ممن رافقوا لويس التاسع في حملته الفاشلة على تونس، قد أسهم في تعزيز صمودها، وتشجيعها أحياناً على اتخاذ مبادرات هجومية في محاولة الاستعادة لمواقع افتقدتها من قبل. ولعل امتناع عكا، لم يكن ناجماً عن قوتها، بقدر ما خضع لتوازنات المرحلة، التي جعلت السلطان بيبرس يتعامل بحذر مع المسألة الصليبية لا سيما انعكاساتها على جبهة المغول. وكان تحرك هؤلاء باتجاه الشام، قد أنقذ عكا من سقوط حتمي، حيث سارع المماليك إلى رفع الحصار عنها تفادياً لحدوث تقارب، على قاعدة العدو المشترك، بين المغول والصليبيين. وكان «الصلح» مع عكا، كفيلاً حينذاك بتعطيل أية مبادرة في هذا الاتجاه، أو عدم تسويغها على الأقل لدى الطرفين، وهو إنجاز كبير في السياسة لبيبرس، لا يقل شأناً عن منجزاته الحربية الكبيرة.

ولعل من حسن حظ المماليك أن عدم تطبيق النظام الوراثي بصورة دقيقة في دولتهم، أتاح لنخبة من القادة الأكفياء التعاقب على الحكم، مستمدّين قوتهم المعنوية من التأييد الشعبي المحفّز على الجهاد، خلافاً لأولئك «الملوك» المتعاقبين بالوراثة، إذ كان منهم قياديون لامعون، ومنهم أيضاً آخرون غير مؤهلين للحكم، هذا إذا لم تقتضِ الضرورة تنصيب أطفال يتولى الأمر باسمهم الأوصياء، ممن يؤثرون عادة مصالحهم الخاصة على المصالح العامة. ومن هذا المنظور يأتي تقلد المنصور قلاوون السلطنة بعد فشل خطة الظاهر بيبرس باستخلاف ابنه، مثبتاً أنه الأكثر جدارة في الحفاظ على نهج السلف المؤسس ومتابعة سياسته الجهادية. وعلى الرغم من إعطاء الأولوية في العهد الجديد

---

(1) أبو المحاسن، نجوم، ج7 ص153.

(2) المصدر نفسه، ج7 ص157.

لحرب المغول، فإن هؤلاء قد تراجع خطرهم إلى حد كبير نتيجة العمليات المظفرة التي استهدفتهم، فضلاً عن اثنين من المعطيات كان لهما تأثير في ذلك: تحوّل مغول فارس إلى الإسلام، وفشل التحالف بينهم وبين الصليبيين في الشام.

وهكذا، بدلاً من تضافر القوى المعادية للقضاء على دولة المماليك، فإن الأخيرة بدت أكثر تماسكاً وقدرة على الصمود، بينما اتجه المغول إلى الخروج من دائرة ذلك الصراع الطويل، لا سيما بعد الهزيمة القاسية التي نزلت بهم في معركة حمص السالفة[1]. وعانى الصليبيون من الانقسامات ما جعل نفوذهم واهياً في المنطقة، وليس ما يطمحون إليه حينذاك سوى تجديد معاهدة الصلح مع السلطان قلاوون. وكان الأخير، شأن سلفه بيبرس، يرى في تحييد الصليبيين، ما يؤمن له حرية الحركة في الشام، فلم يتردّد في إبرام اتفاق مع عكا وبعض الحصون التابعة لها (682/ 1283)[2]، كان من أهم بنوده: توقف العمليات الحربية ضد الأراضي التابعة للمماليك، والتوقف عن بناء الأسوار والتحصينات، وإنذار السلطان بالتحركات الأوروبية المعادية، مقابل السماح للحجّاج القادمين من الغرب بزيارة الأماكن المقدسة[3]. ولكن قلاوون على الرغم من استجابته للهدنة، فإن التزامه بها كان خاضعاً للظروف التي لم يتردّد في الإفادة من فرصها، من دون أن تكون الهدنة شاملة المواقع الصليبية كافة. وقد وجد حينذاك في تفاقم الخلافات بين الصليبيين، ما شجّعه على مهاجمة حصن المرقب المنيع الذي جاء سقوطه[4] تهديداً مباشراً للنفوذ الصليبي في شمال الشام. ففي أعقاب هذه العملية تمّ الاستيلاء على اللاذقية آخر المواقع التابعة لإمارة انطاكية، فيما أصبحت طرابلس، ثالثة الإمارات في المنطقة، محاصرة تنتظر سقوطها الوشيك.

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص303.

(2) المصدر نفسه، ج7 ص300.

(3) زكار، كيف جاءت نهاية الحروب الصليبية. مجلة الجمعية التاريخية ـ حمص ص101.

(4) المقريزي، السلوك ج1 ص738.

وكان حاكم هذه المدينة، بوهمند السابع، قد توفي تاركاً بعده صراعاً على السلطة، دفع بأطرافه إلى الاحتكام لقلاوون. فسارع الأخير، مغتنماً هذه السانحة إلى التحرك بجيش كبير نحو الشام، وما لبث أن حاصر طرابلس التي عجزت مقاومتها الضعيفة عن الصمود، ولم تجد سوى الرضوخ له، ومعها الحصون التابعة لها (688/ 1289)[1]. وبذلك انحسر الوجود الصليبي في الشام، ولم يعد من مراكزه قائماً سوى عكا وصيدا وصور، ومواقع قليلة باتت شبه ساقطة في ذلك الحين. وكانت عكا ما تزال أكثر الحصون منعة، بفضل ما تلقاه ـ وإن بصورة متقطعة ـ من المساعدات الأوروبية، لا سيما وقد أضحت البؤرة الأساسية للنفوذ الصليبي في المنطقة. وقد بدت أهميتها من هذا المنظور، في تشبّث الملك البريطاني (ريتشارد) بها في مفاوضاته مع صلاح الدين، إذ كان الحصول عليها بمثابة ردّ اعتبار له، مقابل التخلّي عن استعادة بيت المقدس. كما حظيت عكا بمكانة اقتصادية، جعلت المدن الإيطالية تتسابق على إقامة مراكز تجارية فيها. وإذا كان سقوط طرابلس قد شكّل ضربة قاسية لتجارة جنوى، فإن عكا التي كان للبندقية نفوذ بارز فيها، حرصت الأخيرة على أن تبقى تجارتها محيدةً وفي منأى عن التهديد الذي استهدف المدينة في ذلك الحين.

ولكن الأمر تعدى المصالح التجارية، لا سيما وأن المدن الإيطالية كانت ضالعة أساساً في الحركة الصليبية، ولم يعد بوسع البندقية حينئذٍ تحييد نفسها، بعد استنفاد هذه الحركة نفسها، فاقدة، ليس الحوافز الدينية فحسب، بل مسوغات البقاء، منذ سقوط القدس التي شكّلت الغطاء «الشرعي» لها، وتحت مظلّتها كان الدعم الأوروبي بوجوهه المختلفة. ولم يبق مما يشدّ بقايا الصليبيين إلى هذه الأرض، سوى مصالح غرائزية، وربما أحلام واهية من غابرات السنين. فالمدن الإيطالية التي اعتُمد عليها حيناً في تمويل الحركة، كانت هواجسها التجارية، ما أثارت ردة الفعل حينذاك، سواء سقوط طرابلس بالنسبة

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص320 ـ 321 Grousset, L'épopée des croisades P.377

لجنوى، أو تهديد عكا بالنسبة للبندقية. أما الهاجس الديني، فيمكن التعرّف إلى مدى انحساره، في محاولة استنهاض الملك القبرصي هنري الثاني، القوى الأوروبية لدعم عكا في محنتها أمام خطر المماليك[1]، من دون أن تتعدى الاستجابة، مساعدات محدودة، كانت البابوية الأكثر إسهاماً فيها[2]. بيد أن المدينة التي عانت انقسامات الصليبيين، واحتدام التنافس التجاري بين المدن الإيطالية، ظلت ملتزمة بمعاهدة الصلح مع قلاوون، ولم يبد منها حينذاك ما ينمّ عن التأثر بالحملة التحريضية للملك القبرصي.

ومن المفارقات أن آخر مظاهر التحرك الصليبي الأوروبي من أجل الدفاع عن عكا، أسهم بصورة مباشرة في إسقاطها. فبدا المنخرطون فيه، وهم في معظمهم من الفئات الشعبية، وكأنهم يستعيدون شريط الحملة الأولى، في ارتكابهم مجزرة ضد السكان الآمنين خارج أسوار المدينة، وكان ذلك مما استفزّ قلاوون، الذي رأى أن الوقت حان للتخلّص من البؤرة الصليبية الأخيرة في قلب دولته، مستنيراً برأي الفقهاء الذين سوّغوا له نقض الهدنة. بيد أنه، وفيما كان يستعدّ للهجوم عليها، إذا بالموت يدركه (689/ 1290)، فتتوقف العملية ولكن لوقت قريب. ومرةً أخرى، متماهياً مع سلفه بيبرس، كان قلاوون قد مهّد لتولّي ابنه علاء الدين الحكم من بعده، فنُودي به ولياً للعهد باعتراف كبار رجال الدولة. ولكن علاء الدين توفي في حياة أبيه، فيما عزف السلطان عن تسمية ابنه الثاني خليل لخلافته، ربما لاعتراضه على سلوكه غير الرصين، أو حتى الشك به ضمناً بالتخطيط لوفاة أخيه، إذ اتّهمه بعض المؤرخين بوضع السمّ له[3].

لقد كان خليل من قوة الشخصية، ما جعل أمراء الدولة يعترفون به سلطاناً بعد أبيه، بينما حرص في المقابل على إثبات جدارته بالسلطنة، إذ كانت عكا حينذاك امتحاناً لكفاءته القيادية. فما كاد يتولى الحكم حتى أعلن التعبئة العامة،

---

(1) Grousset, L’épopée des croisades. P.383.

(2) العريني، المغول ص315.

(3) المقريزي، السلوك ج1 ص792 ـ 793.

وسار على رأس جيش كبير، مجهّز بأدوات الحصار، مستهدفاً آخر الإمارات الصليبية في الشام، على الرغم من وصول وفد من المدينة، لتهنئته بالسلطنة، والطلب إليه تجديد الهدنة معها[1]. وفي مطالع أيار 1291 (690هـ)، كانت قوات المماليك تحاصر عكا، وتتساقط عليها قذائف مجانيقها، من دون أن يمنع الاحتشاد الصليبي فيها وضراوة المقاومة، من حسم الموقف خلال أسبوعين لمصلحة السلطان الجديد (18 أيار 1291)، بعد اختراق قواته دفاع المدينة وسيطرته على زمامها، في وقت امتلأت السفن بالهاربين، وبعضها غرق لشدة حمولته، فيما الباقون ـ باستثناء النساء والصبيان ـ كانوا هدفاً للقتل، انتقاماً للمجزرة السالفة في عهد السلطان قلاوون[2].

ويعلّق المؤرخ أبو المحاسن على سقوط عكا، فيقول: «والعجب أن الله سبحانه وتعالى، قدّر فتح عكا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه، ومثل الساعة التي أخذوها فيها، فإن الفرنج كانوا قد استولوا على عكا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة في الساعة الثالثة من النهار، وأمنوا من كان بها من المسلمين، ثم قتلوهم غدراً، وقدّر الله أن المسلمين استرجعوها منهم هذه المرة يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابع عشر من جمادى الأولى، وأمنهم السلطان ثم قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم»[3].

وقد يكون التوقيت من المصادفات، أو مما تواتر للمؤرخ أبي المحاسن، بما يستجيب لتوجّهات المدرسة التاريخية التي ينتمي إليها، معتمداً في ضوء ذلك تفسيرات تنطلق من الدين والمشيئة الإلهية. وهي مطابقة غير دقيقة، ليس في التوقيت فحسب، إذا توقفنا عند اختلافٍ بين ما يعتبره المؤرخ سقوطاً لعكا

(1) المقريزي، سلوك ج1 ص792 ـ 793.
(2) أبو المحاسن، نجوم ج8 ص7 ـ 8.
(3) المصدر نفسه، ج8 ص8.

في العهد الأيوبي (جمادى الأولى)، وبين استرداد المماليك لها بعد سبع عشرة ومائة من السنين (جمادى الآخرة)، بل في الظروف التي رافقت كلاً من الحدثين البارزين. ففي الحالة الأولى تمّ التنازل عن المدينة في سياق «صلح الرملة»، من دون أن يكون واضحاً، بناء على ذلك، أنها ترافقت مع عمليات انتقامية، حتى لدى المؤرخ نفسه[1]. وفي الثانية، تمّت السيطرة عليها في أعقاب معركة طاحنة، لم يكن الواقع الانتقامي بعيداً عنها، ردّاً على المجزرة التي جرت في عهد قلاوون، كما سلفت الإشارة.

ولعل مثل هذا المنهج، كان ما يزال مألوفاً لدى المؤرخين التقليديين، لا سيما الذين صنفوا أخبار تلك المرحلة، متأثرين بعوامل نفسية لا تساعد كثيراً على اتخاذ جانب التجرّد والموضوعية. فقد كان هؤلاء في صميم الحدث أو على مسافة غير بعيدة عنه، فاندرجوا طرفاً فيه، وما انفكوا يرون إلى الغزو الصليبي، كما المغولي، اعتداءً على الإسلام، وليس مجرد صراع من أجل التوسّع والنفوذ. وفي ضوء ذلك، تصطبغ مرويات المرحلة بالتوتّر، وغالباً ما يردّ تفسير ظواهر التاريخ إلى أسباب دينية، سواء كان النصر ما يؤرخون له أو كانت الهزيمة. ولم يختلف الأمر لدى مؤرخي الحروب الصليبية، في استخدامهم، شأن المسلمين، مفردة «الكفّار» في الإشارة إلى الأعداء، مع تشدّد أكثر في محاكاة العنصر الغيبي، بردّ الهزائم على أنها عقاب من الله[2].

المهمّ أن الأشرف خليل، على الرغم مما قيل في شخصيته من الجفاء والنزعة إلى العنف، وغير ذلك من صفات لم تجذب المؤرخين إليه[3]، فإنه سجّل إنجازاً عظيماً، وهو وضع حدّ لتلك الحروب في بلاد الشام. فقد انهارت بعد عكا آخر الجيوب الصليبية (صور وصيدا...)، كما تمّ تدمير الحصون

(1) أبو المحاسن، ج6 ص45.
(2) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج1 ص548.
(3) أبو المحاسن، نجوم ج8 ص21.

الواقعة على الساحل، منعاً لمحاولات العودة إليها[1]. ولكن الإنجاز التاريخي، لم يمنع عودة الصراع الدموي إلى جبهة المماليك التي فشل الأشرف في توحيدها تحت قيادته، إذ بدا من صلافته وتعاظمه بعد النصر، ما أدى إلى انفجار أزمة الحكم مجدّداً، وإلى أن يتآمر كبار القادة عليه، وعلى رأسهم الأمير بدر الدين بيدرا[2]. وقد حاول الأشرف احتواء الأزمة، إلاّ أن زمام الأمر أفلت من يده، فوقع في شرك الخطة المدبّرة له، ولقي مصرعه أثناء قيامه برحلة صيد، ومن ثمّ بويع لبيدرا سلطاناً من بعده[3].

بيد أن الأزمة لم تنته عند هذا الحدث، فسرعان ما انتفض على السلطان الجديد، مماليك الأشرف وقتلوه انتقاماً لسيدهم، فيما بويع استناداً إلى تسوية، محمد بن قلاوون، متخذاً لقب الناصر، شأن أسلافه الذين انعكست على ألقابهم تحديات المرحلة. ولعل من نتائج تلك الأزمة، أنها فتحت الباب مرة أخرى على الخطر الخارجي، وذلك في انبعاث جديد للحركة الصليبية نجم عنه غزو الاسكندرية (767/ 1365)، حيث تحولت قبرص إلى قاعدة لمثل تلك العمليات في ذلك الحين. ولكن انتقال الحكم إلى مجموعة أخرى من المماليك هم الشراكسة (البرجية) نسبة إلى أبراج القلعة التي أقاموا فيها، قد أعاد الحيوية إلى دولتهم، والقدرة على دحر العدوان عليها، لا سيما بعد سيطرة السلطان برسباي على جزيرة قبرص[4]، بؤرة العمليات الصليبية الموجهة إلى مصر. وهي في النتيجة عمليات لم تشكل خطورة فعلية على دولة المماليك، إذ إن الحركة الصليبية انتهت فعلياً عند سقوط عكا، وأصبحت من تداعيات الماضي، وإن كانت تنبعث بصورة أو بأخرى، وفي مفاهيم جديدة، عبر مسارات التاريخ وتحولاته المريبة.

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج8 ص8 وما بعدها.
(2) المقريزي، سلوك ج1 ص782 ـ 783.
(3) المصدر نفسه، ج1 ص790.
(4) المصدر نفسه ج4 ص374.

الفصل الثالث

الشام في ظلّ الأيوبيين والمماليك

المجتمع وثقافة الحرب

المجتمع والاتجاهات الفكرية

لا يستوي البحث التاريخي في موضوعة ما، دون قراءة للمجتمع بظواهره المختلفة، ومؤثراتها المباشرة وغير المباشرة في طبيعة الحدث التاريخي، على الرغم من اختزاله عموماً بأخبار السلطة والمتّصلين ببلاطها من القادة والفقهاء والشعراء، فيما الشرائح الأخرى، ظلّت، بعيداً عن الضوء، ولم يكن لها نصيب، إلا قليلاً جداً، من اهتمام المؤرخ الذي هو في الأساس جزء من حركة السلطة، ومندرج بكليته في عالمها الخاص. ولكن ذلك لا يعفي الباحث من القراءة المعمّقة، حتى بين السطور، في محاولة اكتناه بعض ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وربما السياسية، إذا توقفنا عند حالات اعتراضية على الحكّام، وردّات فعلٍ على الظلم، أو على العدوان الخارجي، فضلاً عن التدخّل في بعض الأحيان، بتحريضٍ من الفقهاء، لمناصرة اتجاه ضد آخر في السلطة، أكثر كفاءة لمواجهة تحديات المرحلة.

وكان واضحاً أن ثمة رأياً عاماً أخذ يتشكّل، خصوصاً بعد الغزو الصليبي، ولم يعدم تأثيراً في متغيرات الجبهة الإسلامية، منذ العهد الزنكي، ومن تجلياته دخول نور الدين محمود دمشق، محور تلك الجبهة، محاطاً بالدعم الشعبي الذي واكبه أيضاً في شتى تحركاته السياسية والعسكرية، كذلك أحيط به صلاح الدين، بعد انحياز الرّأي العام له ضد منافسيه غير الأكفياء في الشام، وتدخلت

في وقت لاحق القوة الشعبية لمرات في الصراع بين المماليك، لمصلحة القيادات التي أثبتت جدارةً في الدور الجهادي المتميز ضد المغول والصليبيين.

ولعل قضية القدس، ما ينبغي التوقف عندها في هذا السياق، إذ تحوّلت بعد صلاح الدين إلى ورقة مساومة بين الأمراء الأيوبيين، المتنافسين فيما بينهم، ووصل الأمر بالملك الكامل، كما سلف، إلى حد التنازل عن المدينة الأثيرة للصليبيين، تعزيزاً لنفوذه في الشام. ولم يمرّ هذا الموقف دون استنكار شعبي واسع عبّر عنه ابن الأثير بقوله: «استعظم المسلمون (ذلك) وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه»[1]. ولكن الصليبيين لم يحتفظوا طويلاً بالقدس، فما لبث أن استغلّ منافس الكامل، الناصر داوود صاحب الكرك، النقمة الشعبية، ونجح في استردادها[2]، ولكن هذا الإنجاز طغت عليه الانقسامات الأيوبية التي بلغت حينئذٍ ذروتها، فيما لم يُثر في المقابل ردة فعل جدية لدى الصليبيين. فقد بدا الطرفان منهكين، ليس نتيجة للحروب الطويلة بينهما فحسب، بل كان للصراعات الداخلية على كل من الجبهتين تأثيرها في ركود حالة الحرب، وفي افتقاد القدس بالتالي بريقها، قضيّة محورية لديهما في آن. ومن المفارقات أن تحرير القدس أسفر عن نهاية المملكة اللاتينية، بمثل ما حمل معه أيضاً النهاية الفعلية للدولة الأيوبية، مفسحةً المجال أمام قوة جديدة (المماليك) نشأت في ظلّها وبرزت في حروبها، خصوصاً على الجبهة المصرية، قبل أن تنتزع منها الدور القيادي، في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

ولعل المرحلة فرضت مثل هذا الدور الذي اكتنه أبعاده المماليك، في وقت أحاطوا فيه بأسرار الحكم الأيوبي وعرفوا عن كثبٍ مشاكله ونقاط ضعفه. ولذلك سنجد تفاوتاً على مستوى النهج بين المجموعتين، الأيوبية والمملوكية،

---

(1) الكامل، ج12 ص483.

(2) ابن خلدون، ج5 ص773.

إذ كان التسامح، أو شيء منه، ما انفطرت عليه الأولى في العلاقة مع الصليبيين، والذي تجلى خصوصاً في سياسات صلاح الدين والعادل والكامل، بينما اتّصفت الثانية نحوهم بالشدّة إلى حدّ التصلّب، من دون أن يشهد عهدهم مفاوضات أو مهادنات فعلية، وإنما استمرت حالة الحرب قائمة حتى الجلاء الصليبي عن المواقع كافة في الشام.

بيد أن «التسامح» الأيوبي ربما كان محصوراً مع تلك القوى المعادية، منعكساً كذلك على النصارى واليهود في السلطنة، مما أعطى لصلاح الدين صورته المضيئة في الأدبيات الأوروبية، واحداً من ألمع أبطال الإسلام[1]. وخلافاً لهذا الواقع، فإننا نفتقد مثل هذا التسامح على الجبهة الداخلية، بما في ذلك بين أفراد الأسرة الحاكمة التي انطوت على أحقاد وخلافات حادة. وفي هذا السياق، لم يحد العهد الأيوبي عن سلفه الزنكي في الانحياز المطلق للمذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي لا سيما اتباع الخلافة الفاطمية والعمل على محو آثارهم في مصر[2]، بمثل ما تجلى هذا الموقف في قتل صلاح الدين للشاعر عمارة اليمني مع سبعة من أصحابه وصلبهم في القاهرة بعد اتهامهم بتدبير مؤامرة عليه[3]، على الرغم من انخراط عمارة وقتاً في بلاطه ومدحه له. كذلك استهدف بالأسلوب عينه الشيعة (الإمامية) في الشام، حيث تعرّضوا للاضطهاد ـ إن لم نقل أكثر من ذلك ـ في هذا العهد، دون أن نغفل إعدام «السهروردي»، وهو من أصل فارسي قصد حلب فرحب به «ملكها»، ولكن فقهاءها وجدوا فيه منافساً لنفوذهم، فاتهموه بالإلحاد والزندقة[4].

ولعل الأيوبيين، وقد ورثوا النزعة الأصولية من أسلافهم، والتي جاءت

---

(1) جنفياف شوفيل، صلاح الدين بطل الإسلام ص442. جيمس رستون (الابن)، مقاتلون في سبيل الله، صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ص12 ـ 13.

(2) ابن الأثير، الكامل ج9 ص111 ـ 113.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب ج1 ص122 وما بعدها.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان ج6 ص268 وما بعدها.

موائمة لاسترضاء الخلافة العباسية المتشددة في هذا الاتجاه، تأثروا بمناخ التطرّف الذي كانت المرحلة مفعمة به على الجبهتين الإسلامية والصليبية، وما انفك مألوفاً عبر الأزمنة في خطاب الدعوات المنبثقة من ردّات الفعل الدينية على الغزو الخارجي (الأيوبيون والمماليك في المشرق والموحّدون في المغرب على سبيل المثال). وفي ضوء ذلك دأب السلاطين، بدءاً من صلاح الدين، على رعاية الفقهاء المتشدّدين، والاستماع إليهم، والاقتباس من أفكارهم، ما كرّس هذه «الأصولية» في خطابهم السياسي بصورة عامة. وفي هذا السياق يشيد ابن خلكان بالعزيز عثمان (خليفة أبيه صلاح الدين في مصر)، فيقول: سمع الحديثَ عن الحافظ السلفي والفقيه أبي طاهر بن عوف الزهري، وسمع من العلامة أبي محمد بن بري النحوي»[1]. كما يشيد المقريزي بالكامل الذي «كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم، وعنده شغف لسماع الحديث النبوي.. وكان يناظر العلماء.. ويبيت عنده جماعة من أهل العلم.. فينصب لهم أسرّة ينامون عليها بجانب سريره يسامروه»[2].

وهكذا انخرط السلاطين الأيوبيون مباشرةً في هذه الحركة العلمية وتشرّبوا فكرها السلفي، ولم يكونوا فقط مجرد رعاة لها. فكانت المدارس مما يلفت حينذاك الانتباه، ويعبّر عن الاتجاه الفكروي للدولة، إذ «صارت المدرسة ـ كما يقول المؤرخ عاشور ـ مكاناً للدرس والتحصيل، فضلاً عن كونها قلعة لنشر المذهب السني»[3]. ولكن الحركة المدرسية، على الرغم من محاكاتها لتوجّهات السلطان، عكست صخب الحياة الثقافية في العهد الأيوبي، لا سيما في الشام التي شهدت نهضة كبيرة في هذا المجال، وتميزت بالتنوع على قاعدة المذهب السني، إذ كان لكل مدرسة فقهها الخاص، وبعضها شمل فقه الاتجاهات الأربعة، ما جعلها أقرب في نهجها إلى الجامعة، بحيث لم تقتصر

(1) وفيات الأعيان، ج1 ص315.
(2) السلوك ج1 ص258.
(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص119.

على علوم الدين فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى الفلسفة والنحو والعلوم الطبيعية[1].

وابتداءً من عهد نور الدين، أخذت المدرسة ـ الجامعة ترسي تقاليدها في هذا المجال، فزُوّدت بالمكتبات، شأن المساجد الكبيرة، وطُوّر نظام التدريس فيها، حيث تولى مهامه شيوخ يتمتعون بمكانة علمية رفيعة ويساعدهم «معيدون» متفوقون من الطلاب، خُصّص اثنان منهم لكل أستاذ حسب مروية السيوطي[2]. وقد سطعت في ظل هذا المناخ العلمي، أسماء كبيرة، نالت حظاً من الشهرة في مجالات التاريخ والفقه والشعر وغيرها. ولعل أبرز هؤلاء عماد الدين الأصفهاني، شاعر البلاط الأيوبي ومؤرخه، بالإضافة إلى آخرين انهالت مدائحهم على السلطان وشحنوا المرحلة بالحماسة والتحريض على الاحتلال الصليبي[3].

ولعل الشعر الأيوبي باستثناء النصر الذي تحقق في حطين لم يواكب إلا قليلاً حركة الحدث السياسي، ما يُفسّر، بأنه انعكاس لواقع الإحباط الذي عاشه المسلمون بعد الغزو الصليبي، مع العلم أن حوافز كثيرة كانت جديرة بتنشيط قرائح الشعراء وصهر معاناتهم في ذلك الوقت، ولكن هؤلاء المتحلّقين حول السلطان لم تكن هموم المرحلة ما يلتفتون كثيراً إليها، وربما صرفتهم عنها مسائل ليست مطلقاً في دائرة الحدث، على غرار شاعر مصر ابن سناء الملك الذي اهتم خصوصاً بالموشحات الدينية[4].

وعلى غرار الشعراء، نهج المؤرخون متأثرين بشخصية السلطان، وكان الانحياز واضحاً في مصنفاتهم له، من أمثال عماد الدين الأصفهاني (ت597/ 1201م) صاحب الكتاب المعروف «الفتح القسي في الفتح القدسي»، وقد أشاد

---

(1) عاشور، المرجع السابق ص121.
(2) حسن المحاضرة، ج2 ص157.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2 ص145.
(4) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ج19 ص356.

فيه بالسلطان الأيوبي وانتصاراته، كذلك ابن شداد[1] (ت: 632هـ/ 1239م) في كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وهو بمثابة سيرة لصلاح الدين، ومنهم أيضاً أبو شامة (ت: 665/ 1266) مصنّف «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين»، وكثيرون لا يتسع المجال لذكرهم في هذه الدراسة، وإذا كانت السلطة محور المصنفات السالفة، وهي في الغالب تراجم لصلاح الدين، فإن ثمة مؤرخين اتخذوا منحى موسوعياً في أخبارهم، مثل ابن عساكر (499 ـ 571) في مصنفه الشهير «تاريخ دمشق»، الذي اشتمل على مادة غزيرة عن فضائل دمشق وخططها ومساجدها وعلمائها وشعرائها ورواتها، وتشعب أحياناً ليضمّ تفاصيل في هذا السياق عن مدن أخرى مثل صيدا وحلب وبعلبك والرقة والرملة[2].. مما يجعله مصنفاً فريداً في هذا الاتجاه بالمقارنة مع المصنفات السالفة المتأخرة عليه.

وقد أصبح بعض المؤرخين، رموز الحركة العلمية التي انطلقت مع نور الدين بعد تحوّل مقرّه إلى دمشق، ثم حظيت برعاية خاصة من صلاح الدين، فكانوا الأدوات الإعلامية لعهده الذي واجهته لوقتٍ تحديات الشرعية من الزنكيين، فضلاً عن الخلافة الراعية لهم، مما ساعده على تثبيت ملكه وأسهم في تألق شخصيته في الوعي الإسلامي العام. ومن هذا المنظور، فإن الهالة التي أحاطت بالسلطان الأيوبي وتعدت المرويات إلى الذاكرة الشعبية، كانت ما تزال مدينة لنخبٍ من تلك المرحلة وما بعدها، ممن أسسوا لصورة البطل في عالمه، وصولاً إلى عالم أعدائه البعيد. ولم يكن تأثيرهم خافياً كذلك في التأريخ لخلفاء صلاح الدين، والذين خلت المرويات غالباً من إدانة مباشرة لسلوكهم الداخلي أو لسياساتهم المتواطئة أحياناً مع الصليبيين. وهو ما درج عليه مؤرخو المرحلة

---

(1) (بهاء الدين يوسف) وهو غير ابن شدّاد الآخر (عز الدين محمد) المتوفى سنة 684هـ/ 1285م، وصاحب كتاب الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، الذي يحوي بدوره تفاصيل عن العهد الأيوبي لاسيما «صلح الرملة».

(2) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ج2 ص241.

التالية، المفعمة مصنفاتهم بالانحياز عينه للدولة الأيوبية، مثل ابن واصل (ت: 697/ 1297)، في كتابه «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب»، فضلاً عن مؤرخي دولة المماليك وفي طليعتهم المقريزي في مؤلفاته الغزيرة.

النمط الاقتصادي

لم يكن للدولة الأيوبية نمط خاص في هذا المجال، يميّزها عمّا كان سائداً في المرحلة بصورة عامة، ولكن نظامها الإقطاعي، أصبح أكثر رسوخاً بعد تقسيم الدولة، دون أن يخفي تأثيره على حياتها الاقتصادية. ولقد شكلت الزراعة حينذاك المصدر الإنتاجي الرئيس للمجتمع الذي تعرّض أحياناً لأزمات وكوارث طبيعية، مثل انحباس المطر أو حدوث مجاعات وهجرات، ربما بالغ في وصفها المؤرخ أبو المحاسن[1]، وإن كان يعكس من خلالها تدهور الأحوال الاقتصادية في تلك المرحلة. ولذلك اتسمت حياة الفلاحين بعدم الاستقرار، في الوقت الذي كان عليهم تسديد الضرائب للدولة من دون مراعاة الأخيرة لمعاناتهم، على نحو أصبحوا معه ـ كما يقول المؤرخ عاشور ـ «تحت رحمة الطبيعة من ناحية ورحمة الحكام من ناحية أخرى»[2]. كما أن استمرار حالة الحرب، جعل اقتصاد الدولة خاضعاً لها، بما يلبّي الحاجة الدائمة إلى المقاتلين وتزويدهم بالسلاح، ولم يكن ممكناً في كل الأوقات تأمين التغطية المالية لعملياتها، مما كان يدفع بها إلى منح القادة إقطاعات من الأرض، مقابل

---

(1) النجوم الزاهرة، ج6 ص172.

(2) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص126.

خدماتهم العسكرية، على أن تستردّها بعد انتهاء مهماتهم[1]، من دون أن يخلو ذلك من نتائج سلبية على الإنتاج الزراعي.

وهكذا يتشكل المجتمع في العهدين الأيوبي والمملوكي، بناءً على التنظيم الإقطاعي الذي انسحب على قطاعات الدولة كافة، وهو ما يمتدّ جذوراً إلى عهد سيطرة الترك الأوائل على الخلافة العباسية، حين كوفئ أحد قوادهم (بايكباك) بإقطاعه مصر، فعهد بها إلى أحمد بن طولون الذي كان «أول من جلب المماليك الترك» إليها، حسب مروية القلقشندي[2]، مؤسّساً لسلطة وراثية فيها. كما تبلور ذلك بصورة خاصة في عهود الأتابكة المعاصرة للمرحلة الصليبية الأولى، والتي شهدت ظهور الأيوبيين أسرة إقطاعية في ظل الرعاية الزنكية، ومن ثمّ انبثاق المماليك نظاماً شبه وراثي من الحكم الأيوبي. ولكن الأمر مختلف هنا عمّا كان سائداً في أوروبا، حيث النظم الإقطاعية لها تقاليدها وتراتبياتها، والتي عانى المجتمع بطبقاته الدنيا خصوصاً، أسوأ ظروفه الحياتية بسببها. فعلى خلاف ذلك لم يضع الأيوبيون أو المماليك، شروطاً على الإقطاع، تتعدى ما أشرنا إليه بالنسبة للقادة العسكريين، فيما كان المقطعون الآخرون، عليهم الالتزام بالعدل في علاقتهم بالفلاحين والمحافظة على الأرض وتحسين عمارتها[3]. وبهذا المعنى يصبح الاقتصاد الزراعي موجّهاً من جانب الدولة التي حرصت على تأمين الاستقرار الداخلي، وتوفير التغطية المالية لحروبها المستمرة، لا سيما ضد الصليبيين الذين واجهوا أزمات في هذا المجال، وكان اعتمادهم على المصادر الأوروبية عاملاً أساسياً في صمودهم.

بالإضافة إلى الزراعة، وفي سياق تعزيز الإنتاج الاقتصادي، شهدت المرحلة نهوضاً في القطاع الحِرَفي في مصر، لا سيما الخاصة بحرفة النسيج القديمة العهد فيها، وتطويراً لأصنافها المتنوعة، إلى جانب حرف أخرى،

---

(1) عاشور، المرجع السابق، ص126 ـ 127.

(2) القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج1 ص247.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى ج11 ص33 ـ 34، ج13 ص114، 148.

كاستخراج الزيوت والسكر والصابون والأسلحة وغيرها[1]. أما التجارة، فقد شكّلت عصب الاقتصاد في ذلك الحين، بعد توحيد الشام ومصر، وما رافق ذلك من تنشيط لحركة التبادل بينهما، فضلاً عن نمو التجارة الخارجية في عهد المماليك خصوصاً مع المدن الإيطالية. وعلى الرغم من الحروب، وهي غالباً ما كانت طابع المرحلة، فإنها لم تعق كثيراً التجارة التي ظلت قوافلها محيّدة بصورة عامة، ومستفيدة (في العهد الأيوبي خصوصاً) من فترات الهِدَن واسترخاء الجبهات الحربية في بعض الأحيان. وقد لفت ابن جبير ما يسود من علاقات طبيعية بين الأعداء خلال هذه الأوقات، فقال: «ومن أعجب ما يُحدّث به في الدنيا، أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج»[2]، وكان قد انضمّ إلى قافلة متّجهة من دمشق إلى عكا، «قاعدة مدن الإفرنج»، وأقام بعد وصوله «في خان معدّ لنزول القوافل وأمام بابه مصاطب مفروشة، فيها كتّاب الديوان من النصارى.. وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها»[3].

وليس ثمة شك أن مصر، وهي أقلّ تأثّراً من الشام بالحروب الصليبية، قد انعكست عليها إيجابيات الأخيرة فيما يتعلق بالنشاط التجاري الذي تبوأته بجدارة حينذاك المدن الإيطالية (بيزا، البندقية،. جنوى..)، وأصابت بفضله ثراء واسعاً. وقد استقطبت الاسكندرية بصورة خاصة، حركة التبادل التجاري، فكان ميناؤها يزدحم بالسفن الإيطالية[4]، وينعم التجار برعاية السلاطين والامتيازات المتوفّرة لهم. وإذا كانت البابوية قد حذّرت المدن الإيطالية من الاتجار مع المسلمين، فإن الأخيرة، على الرغم من غلبة الحافز التجاري عليها، لم تكن خارج دائرة الصراع في المنطقة، فيما كانت تقدّمه للصليبيين من مساعدات مالية

---

(1) المقريزي، الخطط ج1 ص102. انظر: عاشور، مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك ص129.

(2) رحلة ابن جبير، ص257.

(3) المصدر نفسه، ص260.

(4) Heyd, Histoire du commerce T2. P391-399.

وتسهيلات لهم. وفي المقابل، لم تكن نظرة المسلمين تخلو من حذر إلى أولئك التجار الذين وصفهم أبو شامة بأنهم «تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرّهم، وتارة يكونوا سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يدُ الحكام المرهوبة. ما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرّب إلينا بإهداء طرائف أعماله»[1].

وبكلمة أخيرة، فإن المجتمع في امتداداته الأيوبية والمملوكية، كان مجتمعاً حربياً، معبّأً على العموم لمواجهة الأخطار الخارجية. فكان من الطبيعي أن يتخذ الجيش أولويته في اهتمامات الدولة، ويستأثر بالتمويل الأساسي في ميزانيتها، عدا الإقطاعات التي مُنحت لبعض قادته. بيد أن التعبئة لم تكن على السوية عينها، إذ تفاوتت بين حالات الحرب الفعلية وتلك التي يسودها الصلح مع الصليبيين (العهد الأيوبي). ففي الأولى كانت تشارك ـ إلى جانب الجيش ـ فرق مساعدة وأخرى متطوعة، بينما في الثانية يقتصر الأمر على الجيش النظامي الدائم، والذي أصبح جيوشاً بعد تقسيم السلطنة الأيوبية، الأمر الذي يختلف عن واقع الحال في عهد المماليك، الأكثر تماسكاً في وحدته السياسية والأقل مهادنة للأعداء، وإن حدث مثل ذلك ـ أي المهادنة ـ فلم يكن، على ندرته، منفصلاً عن مصلحة الدولة وسياساتها التوسعية.

(1) كتاب الروضتين، ج1 ص243.

الشعراء ينظمون التاريخ

أ ـ في العهد الأيوبي

لعل المشهد التاريخي لتلك المرحلة، بتداعياتها المثيرة، ليست المرويات ـ وبعضها اقترب من الحدث أو كان معاصراً له ـ ما يعبّر دائماً بدقة عنه. . وربما كان الأدب في حالات ما، أكثر تفاعلاً مع حركة المجتمع واكتناهاً للتحوّلات على مساحتها، من تلك المرويات المأخوذة بصخب الطبقة الحاكمة. فما برح الشعر، ظاهرةً لافتة في الثقافة العربية، في صميم الحدث، مواكباً مساراته، وعاكساً وتيرة الصعود والهبوط في الأداء السياسي، من دون أن يكون محكوماً دائماً باعتبارات المؤرخ ومسوّغاته، وبالتالي محاكاته لنزعة الولاء فيه. وقد نجد من النخب من عبّر عن المرحلة في الاتجاهين، مثل العماد الأصفهاني الأكثر قرباً من صلاح الدين وحضوراً في بلاطه، إلى مؤرخين انطوت مروياتهم على استشهادات وفيرة من الشعر، كأبي شامة وأبي المحاسن الأتابكي.

وإذا رجعنا إلى العهود الماضية، ابتداءً من العهد الأموي، سنجد أن الصراع الداخلي شكّل سمة لافتة عبر تاريخها، وكان ما يزال الشعراء طرفاً بارزاً فيه مفعمين بأجوائه الساخنة (معركة مرج راهط عشية قيام خلافة بني مروان على سبيل المثال)، فلم ترق همومهم إلى ما يتعدى فنون المديح والهجاء والرثاء

بصورة عامة. ولكن تحوّلاً شهدته، بعد بضعة قرون المنطقة، وكانت الشام خصوصاً مسرحاً له، تاركاً مؤثراته الواضحة في نسيجها، سواء على صعيد السياسة، أو على صعيد الثقافة المواكبة بصورة ما للأخيرة والأكثر اضطراباً بنبضها، مما سيعمّق التفاعل بين الجبهتين، على مستوى التعبئة والهدف، والقضية في بعدها الشعبي. وإذا كانت مداهمة الغزو الصليبي لهذه المنطقة، قد كشفت عن تردٍّ مريع لموقع الخلافة العباسية والقوى المحيطة بها (السلاجقة)، فضلاً عن تفكك بنية الخلافة المعارضة لها (الفاطمية)، فإن ذلك لم يعدم إيجابيات على الموقف الإسلامي، في محاولة الخروج من المحنة، وإيجاد الحلول الموائمة للتغلب عليها. ولكن أيًّا من ردّات الفعل الجدّية على الاحتلال الصليبي لجزء من الشام والجزيرة، لم يصدر حينذاك، لا عن الخلافة العباسية، ولا عن الحكّام التابعين اسمياً لها، والمقيمين على تخوم الاحتلال، بينما كان بعض الفقهاء ـ كما سبقت الإشارة ـ وعلى رأسهم قاضي دمشق، أول المنتفضين على سقوط القدس، «مُستنفِرين» المرجعية في بغداد، ولكن من غير أن يكون لصرختهم صدى، فعادوا محبطين يعصف بهم اليأس.

بيد أن تخاذل الحكّام، أو عجزهم، لم يَحلْ دون اتخاذ مبادرات بديلة، عبّرت عنها حينذاك مجموعات اختارت المقاومة طريقاً لمواجهة تحدّي الاحتلال، لا سيما «المتطوعة» الذين أسّسوا على المدى الشعبي للصحوة التي ستنطلق من الموصل، حيث «أتابكتها» الشجعان تصدوا عن جدارة لدور كبير، ما لبثت ملامح مشروعه أن تبلورت في تحرير «الرها»، والسعي إلى تشكيل الجبهة الإسلامية الموسعة (الجزيرة ـ الشام ـ مصر)، سبيلاً وحيداً لتضييق الحصار على الصليبيين وإجلائهم عن المنطقة. وكان ما حققه المشروع من نجاحات، مديناً في الواقع لتلك الجبهة، قيادةً ومجتمعاً متلاحمين حول قضية مشتركة، ما لبثت أن تغيّرت بتأثيرها موازين الصراع لغير مصلحة القوى المعادية، بدءاً بحطّين، وانتهاءً بعين جالوت أعظم المعارك في التاريخ الإسلامي المتأخر.

ولعل الفضل في إرساء بنيان هذه الجبهة، يبقى معقوداً لنور الدين محمود، هذا القائد الذي تقدّمه لنا المرويات، شخصيةً رصينةً عبقت روحاً برسالية القضية وعُظم الإيمان بها، فضلاً عن براعته رجل دولة، وصفه المستشرق هاملتون جب بقوله: «لقد أظهر نور الدين القائد الإداري، بصيرةً ومقدرة تفوقان المستوى المعتاد في ذلك الزمن»[1]. لكل ذلك بات نور الدين رجل المرحلة الأكثر جاذبية، والذي اتّجهت إليه الأنظار مُنقذاً للأمة المغلوبة على أمرها، وكان من الطبيعي أن تستثير مواقفه البطولية قرائح الشعراء، ومن أبرزهم حينذاك العماد الأصفهاني، الذي عرض للموضوعة عينها الواردة في نصّ جبّ:

يا دولة نورية أمْنُ الورى ... وخِصبُها وَجودُها وُجُودُها[2]

فالشاعر يرى في قيام هذه الدولة عنصراً ضرورياً للجبهة الإسلاميّة الموحّدة، وضمانة لردع العدوان الصليبي، الذي كان ضعف الأخيرة وراء نجاحه في اختراق المنطقة وإقامة مراكز نفوذ فيها. ولا ينفك العماد مشدوداً إلى حركة القائد الكبير، متابعاً عملياته الحربية، بما فيها التي استهدفت جيوباً عازلة للتخوم الصليبية، كتلك التي أسفرت عن سقوط قلعة جعبر، التي سبق لأبيه زنكي أن اغتيل أثناء حصارها[3]. وكان العماد مرافقاً لنور الدين في غزوته، حيث وقف مادحاً إياه في القلعة بعيد السيطرة عليها[4] واستسلام صاحبها شهاب الدين مالك بن علي العقيلي، وقد جاء في قصيدته:

إسلَمْ لبكر الفتوح مُفترعا ... ودمْ لملك البلاد مُنتزعا

يا محييَ العدل بعد ميتته ... ورافع الحق بعدما اتّضعا..

ومالكٍ حين رُمتَ قلعته ... غدا مطيعاً للأمر متّبعا[5]

---

(1) دراسات في حضارة الإسلام، ص129.

(2) ديوان الأصفهاني، ص146.

(3) ابن الأثير، الكامل ج11 ص109 ـ 110.

(4) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج1 ص153، ابن الأثير، الكامل ج11 ص334.

(5) ديوان الأصفهاني، ص285.

وهكذا يصبح الشعر جزءاً من آلية الحرب، يشحذ العزائم، ويحفّز القادة المجاهدين، ويعكس في الوقت عينه أصداء النصر. فقد روى ابن الأثير في سياق العام 544 للهجرة (1149) قائلاً: «غزا نور الدين محمود بن زنكي بلاد الفرنج من ناحية انطاكية، وقصد حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ربضه.. ثم رحل إلى حصن إنّب[1]، فحصره أيضاً، فاجتمعت الفرنج مع البرنس (ريموند) صاحب انطاكية وحارم وتلك الأعمال، وساروا إلى نور الدين... فلقيهم واقتتلوا قتالاً عظيماً. وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم جمع كثير وأُسر مثلهم. وكان ممن قتل البرنس صاحب انطاكية وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمائهم»[2]. وقد هلّل المسلمون للمعركة المظفرة، وعمّت الأفراح أقطارهم، وفي المقدمة كان الشعراء الذين اهتزوا للمناسبة المجيدة، ومنهم ابن القيسراني الذي أنشد فيها «قصيدته المشهورة» على حد تعبير ابن الأثير[3]، متماهياً فيها مع قصيدة أبي تمام في المعتصم بعد فتحه عمورية ومطلعها:

السيف أصدق إنباءً من الكتب ... في حدّ الحدّ بينَ الجدّ واللعب

وقد جاء في قصيدة القيسراني:

هذي العزائم لا ما تدّعي القُضُبُ ... وذي المكارمُ لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خَطبتْ ... تعثّرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها ... براحةٍ للمساعي دونها تعب[4]

وبعد استيلائه على حصن أفامية، وهو موقع متقدم للصليبيين، ومنه

(1) من أعمال عزاز من نواحي حلب. ياقوت، معجم ج1 ص258.

(2) الكامل ج11 ص144.

(3) المكان نفسه.

(4) المصدر نفسه، ج11 ص145.

تنطلق الإغارات على حماه[1]، كان ابن منير الطرابلسي ممن خلّدوا هذا النصر في قوله مخاطباً نور الدين:

أسنى الممالِكِ ما أطلّتَ منارها   وجعلت مُرهفةَ الشِفار دِسَارَها
في كل يوم من فتوحكَ سورةٌ   للدين يحمل سِفرُهُ أسفارها
ملأ البلاد مواهباً ومَهابةً   حتى استرقّتْ آيُهُ أحرارَها[2]

ويتوالى سقوط الحصون التي شكّلت قواعد لعمليات الصليبيين، الرامية إلى توسيع نفوذهم في الشام، ما يفسّر استهدافهم مدنها الرئيسة، لا سيما حلب خلال الفترة السابقة على الدولة النورية. ففي سنة 518 (1124) كادت هذه المدينة تستسلم لهم، لولا تدخل صاحب الموصل (البرسقي)، الأمر الذي دفع المؤرخ البريطاني توينبي إلى التعليق متحسّراً على ذلك بقوله: «لو سقطت حلب في يد الصليبيين لصار الشرق لاتينياً». وفي هذا السياق يرد مجدداً اسم القيسراني، ممجّداً فتوح نور الدين لعدد من المواقع الصليبية، وقائلاً بعد سقوط حصن عزاز (546/ 1152):

وأمست عزازٌ كاسمها بك عزّةً   تشق على النسرين لو أنها وَكْرُ
كأني بهذا العزمِ لا فُلّ حدّهُ   وأقصاه بالأقصى وقد قُضي الأمر
وقد أصبح البيتُ المقدّس طاهراً   وليس سوى جاري الدماء له طهر[3]

وفي ضوء ذلك يتحوّل الشعر إلى مادة تاريخية أو جزء منها، مختزلاً صورة الواقع، وربما بعض تجلياته، مما ليس في طبيعة المرويات في عالمها الرتيب، المنقطع غالباً عن تفاعلات الحدث في زمانه. فلا يكتفي الشاعر هنا بمدح المنتصر فحسب، بل يستفزّ مشاعره باتجاه القضية الرئيسة، وهي القدس،

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج11 ص149.
(2) الديوان، ص215. انظر ابن الأثير ج11 ص149 ـ 150.
(3) ابن الأثير، ج11 ص156.

بعد أن خطف نور الدين بهالته الأضواء، وجذب إليه النخب الدينية، وعلقت عليه الفئات الشعبية آمالها، لتحرير المدينة الأثيرة، حتى إذا تُوفي بصورة مفاجئة، عاد اليأس يعصف بالنفوس، لغياب المنقذ الذي كرّس حياته للجهاد، وكان حالهم ما عبّر عنه الأصفهاني في هذه الأبيات:

الـديـن فـي ظُـلَـم لـغـيـبـة نـوره ... والـدّهـر فـي غـمّ لـفـقـد أمـيـره
مـن لـلـفـرنـج ومـن لأسـر مـلـوكـهـا ... مـن لـلـهـدى يـبـغـي فـكـاك أسـيـره
مـن لـلـبـلاد ومـن لـنـصـر جـيـوشـهـا ... مـن لـلـجـهـاد ومـن لـحـفـظ أمـوره
أوَمـا وعـدتَ الـقـدس أنـك مُـنـجـزٌ ... مـيـعـاده فـي فـتـحـه وظـهـوره؟[1]

ولكن الشاعر الذي بدا وكأنه يرثي تحرير القدس، في رثائه لنور الدين، سرعان ما يجد نفسه في الموقع عينه، بل أكثر انخراطاً فيه تحت رعاية صلاح الدين، متابعاً عن كثب حملاته ضد الصليبيين، ولا ينفك يرى فيه، كما سلفه، حامياً للإسلام، دافعاً عنه رياح الخطر والفتنة، على نحو ما جاء في مدحه للقائد الأيوبي، بعد انتصاره على سيف الدين غازي في معركة تل السلطان إبان سيره إلى حلب[2]:

لله جـيـش بـالـمـروج عـرضْـتَـه ... أسْـدُ الـعـريـن رجـالُـه ورمـاحـه
وكـأنـنـي بـالـسـاحـل الأقـصـى وقـد ... سـاحـت بـبـحـر دم الـفـرنـجـة سـاحُـه
فـخـراً بـنـي أيـوب إن مـحـلَّـكـم ... ضاقت على كل الملوك فِساحُه[3]

لقد تطورت علاقة العماد بصلاح الدين، فأصبح شاعره ومؤرخه وأداته الإعلامية، وفي كل الحالات كان الأكثر معرفة بأخباره ومتابعة لنشاطه الحربي، وبالتالي الأكثر استجابة لتمجيد انتصاراته، واجداً في ذلك كله مادة تلهب وجدان الشاعر، كما جاء في قوله:

---

(1) ديوان الأصفهاني، ص212 وما بعدها.
(2) ابن الأثير، الكامل ج11 ص427 ـ 428.
(3) ديوان الأصفهاني، ص107 وما بعدها.

والشعر لا بدّ له من باعث كحاجة الخيل إلى مهمازها[1]

ومن هذا المنظور، يؤرخ العماد لصاحبه من خلال مجموعة من القصائد، محورها قضية القدس، معوِّلاً عليه تحريرها، كما عوّل من قبل على سلفه، إذ يبدو على ثقة من هذا الأمر، حين يخاطبه وكأن العناية الإلهية قد شاءته منقذاً للمدينة، فيقول بعد فتحها في أعقاب معركة حطين:

ومن قبل فتح القدس كنت مقدّساً فلا عدمتْ أخلاقك الطهر والقدسا

وفي هذه القصيدة ينحو العماد إلى أن يكون مؤرخاً أكثر منه شاعراً، في تطرّقه إلى استعادة المدن الساحلية المهمة من الصليبيين، ولكن هذه المرة عبر بناء ركيك وأسلوب مباشر، كما جاء في قوله مخاطباً صلاح الدين[2]:

وعكا وما عكا فقد كان فتحها لإجلائهم عن مُدْن ساحلهم كنسا

وصار بصورٍ عصبةٌ يرقبونكم فلا تبطئوا عنها وحسُّوهم حسّا

ودمّر على الباقين واجتَثَّ أصلَهم فإنك قد صيّرت دينارهم فلسا

وبعد الفرنج الكرك فاقصد بلادهم بعزمك واملأ من دمائِهمُ الرّمسا[3]

وفي ضوء ذلك، يتحول العماد إلى وسيلة إعلامية للقائد الأيوبي، يبثّ أخباره، ويرصد خطّ سيره العسكري، أو بمعنى آخر فهو شاعر البلاط، المشمول بالرعاية، والمنقطع في المقابل عن حركة المجتمع التي غابت نهائياً عن نصّه المفعم بالولاء لصاحب السلطان. ولم يخذل الأخير شاعره الأثير الذي كانت القدس في صميم هواجسه شأن فقهاء المرحلة وشعرائها، ممن أفاضوا في تمجيد بطولة القائد المنتصر وفروسيته، من دون أن يُستثنى الخليفة حينئذٍ (الناصر لدين الله) من تلك المدائح، فخصّه العماد بقصيدة جاء فيها:

---

(1) ديوان الأصفهاني، ص226.

(2) المصدر نفسه، ص232 ـ 234.

(3) المكان نفسه.

أبشر بفتح أمير المؤمنين أتى | وصيتُه في جميع الأرض جوّاب
ما كان يخطر في بالٍ تصوُّرهُ | واستصعب الفتح لمّا أُغلق الباب
نصرٌ أعاد صلاح الدين رونقه | إيجازه ببليغ القول إسهاب[1]

ولم يكن غير مألوف توجّه الشاعر الوافد من بلاد فارس، إلى الناصر، مباركاً له فتح القدس، إذ كان الخليفة على الرغم من تضعضع موقعه وعزلته عن الحدث ـ حيث الشام حينئذٍ مركز الضوء ـ ما يزال في وعي المسلمين مصدر الشرعية التي انسحبت أيضاً على صلاح الدين، وأصبحت أكثر جذرية بعد انتصاراته الساطعة على الصليبيين، إذ احتفظت هذه من الهالة الدينية، ما جعلها ضرورة في عالم الإسلام لا تراود أحداً من الحكّام الأقوياء فكرةُ الخروج عليها.

وهكذا أمدّ صلاح الدين الخلافة بجرعة من الحيوية كانت بأمس الحاجة إليها، لا سيما وأن القائم بأمرها حينئذٍ، قد طال عهده لمدة سبعة وأربعين عاماً[2]، ونجح في أن يستردّ لها شيئاً من نفوذها المعنوي. ولكن وفاة السلطان الأيوبي، المتشبّث بالتقاليد، أفقدتها مرة أخرى حيويتها، بمثل ما أفقدت الشام كثيراً من دورها المتوهّج في الصراع مع القوى الصليبية على أرضها. وكان من أسوأ ما عرض للأخيرة في تلك الفترة، انقسام الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، وتنازع أمرائها على السلطة، مما نال من قوة الجبهة الإسلامية، وأعطى للصليبيين في المقابل فرصة لإعادة ترتيب أوضاعهم، والتحرّك بحرية لم تتح لهم قبل ذلك. وكأن العماد الذي فُجع بغياب صلاح الدين، أدرك ما تخبئه الأيام من الأخطار، فبدا متشائماً، منكسراً في مرثيته المطوّلة لبطله المجاهد، وقد جاء فيها:

أين الذي من لم يزل مَخشية | مرجوةً رهباته وهباتُه
باللهِ أين الناصر الملك الذي | لله خالصةً صفت نيّاته

(1) ديوان الأصفهاني، ص75.
(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص448 ـ 458.

أيـن الـذي عـنـتِ الـفِـرنـجُ لـبـأسـه ذلاًّ ومـنـهـا أدركـت ثـاراتـه
من في الجهاد صفاحه ما أُغمدت بالنصر حتى أُغمدتْ صفحاته؟
وكعادة البيت المقدس يحزن الـ بيتُ الحرام عليه بل عرفاته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت من سَلِّها وركوبها غزواته
يا وحشتا للبيض في أغمادها لا تنتضيها للوغى عزماته
والقدس طامحة إليك عيونه عجّل، فقد طمحت إليه عداته[1]

ولعل هذه القصيدة من أرقى منظومات الأصفهاني في صلاح الدين، إذا توقفنا عند بنائها الانسيابي وعبارتها الأنيقة، فضلاً عن الفكرة اللمّاحة المفعمة بالمعاناة. ولا غرو في ذلك، فإن شعر الرثاء يعكس ما تموج به النفس من مشاعر الحزن العميق، ما تقصّر عنه المدائح المتكلّفة، لا سيما إذا انبثق مثل هذا الرثاء عن شاعر جمعته أوثق الصلات إلى صاحبه، وحقق في ظلّه ما يصبو إليه من علو مقام، وما يرمقه من أهداف سامية صعبة المنال، تحولت معه إلى حقيقة ساطعة:

وفتوحه في القدس من أبكارها أبقت له فضلاً بغير مساجل[2]

لقد كان العماد الأصفهاني الأكثر قرباً من الأسرة الأيوبية التي كان لبعض أمرائها نصيب أيضاً من مدائحه، إلاّ أن هذه لم تبلغ في مستواها، ما بلغته منظوماته في السلطان الأثير. ولكن العلاقة مع خليفته الذي آل إليه الحكم في دمشق، حيث مقرّ الشاعر أيضاً، سرعان ما أصابها فتور كان من نتائجه تعيين «وزير» آخر مكانه[3]، فترك ذلك أسى في نفس العماد الذي توفي لسنوات ثمان بعد غياب صلاح الدين (597/ 1201). وليس ثمة شك أن الشاعر ـ المؤرخ،

---

(1) ديوان الأصفهاني، ص87 وما بعدها.

(2) المصدر نفسه، ص340.

(3) الأصفهاني، الفتح القسّي في الفتح القدسي ص351 وما بعدها.

اتخذ من الحضور في عالمه، ما نافس السلطان الأيوبي في مسيرته الصاخبة، وهما في اشتباك اسميهما معاً، شكّلا ظاهرة خاصة بالعصر، ربما تماهت مع ظاهرة سلفيهما الشهيرين: المتنبي وسيف الدولة الحمداني. وإذا كان العماد قد افتقد في غياب صاحبه الأيوبي، فارس الحرب المقدام، فإن الشاعر ابن الساعاتي، رأى في الأول فارساً مجلياً على المنبر الذي شغر من بعده، فرثاه بقصيدة منها هذه الأبيات:

فارس المنبر المخوف وذي القو ... لة فضْلاً في الحفل يوم الخصام
مات مني ملْك الملوك فواحز ... ني! ومَن بعدَهْ أميرُ الكلام[1]

وكان ثمة شعراء آخرون واكبوا العهد الأيوبي، مختَزلاً بشخصية مؤسسه، ولكن أحداً منهم لم يصل في دوره إلى مستوى العماد الأصفهاني الذي طبع العهد بشخصيته، وكانت له مواقفه الجذرية من قضية الصراع ضد الصليبيين. ومن هؤلاء الشعراء ابن المجاور، الذي مدح صلاح الدين بمناسبة توقيع الصلح مع الملك البريطاني، مما أضفى على قصيدته تكلّفا وبرودة فجاءت خالية من اللمحات الإبداعية ومفرطة في بنائها التقليدي، عدا استخدام عبارات نافرة في سياق التعرّض لعدوه الذي وقّع معه الصلح، ومما جاء فيها:

يا أيها الملك الذي لطباعه ... وسيوفه خُلُقاً رضيً وتعسّف
جاءت جنود الله تطلب ثأرَها ... وصدورها بك من قليل تشتفي
أن صبّحوا الأعداء في أوطانهم ... تركوا ديارهمُ كقاع صفصف
القدس ما فيه لسرجك مطمع ... كلاّ ولا نور الإله بمنطفي[2]

ولعل ابن المجاور الذي مدح صلاح الدين في مناسبة ثقيلة لم يبتهج لها المسلمون، وجد نفسه منوّهاً بفتح القدس التي يهون كل شيء عداها، متأثراً

(1) ديوان ابن الساعاتي، ج2 ص361.
(2) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2 ص103 وما بعدها.

بنظرة القائد الأيوبي في هذا السبيل، فتصبح الهدنة مسوغةً لديه، وموضوعاً لا يجد حرجاً في طرق بابه، إرضاءً للسلطان صاحب الفتح الكبير. ومن هذا المنظور نجد شاعراً آخر ارتبط اسمه بذلك العهد، وهو حكيم الزمان الجلياني، لا يعنيه من تلك التداعيات سوى أن تكون القدس محررةً تحت سيطرة المسلمين، جاعلاً فتحها بموازاة فتح مكة، فيقول مثنياً على جهود السلطان الأيوبي في هذا المجال:

فيا ملكاً لم يبق للدين غيرُه   وهتْ عُمد الإسلام فاشدد لها دعما
إذ صَفِرَتْ من آل الأَصفرِ[1] ساحة الـ   مُقدّس ضاهت فتح أم القرى قِدما
فذا المسجد الأقصى وهمّتك العلى   وعزمتك القصوى ورَميتك الصَّما
وليس كفتح القدس مُنية قادر   وما أن تلقّاها سوى يوسفٍ[2] جَزما[3]

وبعد فتح القدس توالت مدائح الجلياني، مشيدةً بالحدث العظيم وصاحبه، ومن أبرزها قصيدته التي اختصر عنوانُها الاثنين: الفتح والقائد المظفر، وهي «القصيدة الفتحية الناصرية»، ومما جاء فيها:

خطّوا بحطين ملكاً كافياً عجباً   في ساعة زال ذاك المُلك والقدر
أهوى إليهم صلاح الدين مفترساً   وهو الغضنفَرُ أعدى ظُفْرهُ الظفر
وعاين الملكَ الإبرنس في دمه   فمات حيّاً وحيّاً وهو يعتذر
من ذا يقول لعل القدس منفتحٌ   إليك بل سِفرُ يعقوبٍ له السّفَر[4]

وإذا كان مثل هذا الشعر لم يحمل شيئاً من الصخب الملحمي، على

---

(1) تسمية كانت تطلق على الصليبيين.
(2) أسم صلاح الدين.
(3) اشارة يُقصد بها التورية بين مصطلحين نحويين: الفتح والجزم. عبد الكريم قبلان، شعر الحماسة في العصر الزنكي والأيوبي، ج2 ص545. أطروحة دكتوراه غير منشورة 2000.
(4) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج1 ص116.

الرغم من محاكاته الواقع الحدثي بما يقارب هذا الاتجاه، فإن التاريخ حاضر بتداعياته في ثنايا النّص الشعري في تلك المرحلة، قادةً وأمكنةً وألقاباً ومصطلحات، وغير ذلك مما يجعله مصدراً رديفاً للرواية، ويميّزه ربما عن مراحل أخرى افتقدت هذا التداخل اللافت بين الشعر والتاريخ. فيتبدى لنا (الجلياني) وكأنه ينظم التاريخ شعراً، في مواكبته لانتصار حطين وردّة الفعل الصليبية في الحملة الثالثة عليه:

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة ... قد أقسموا بذراع الرّب تدخله
هاج الفرنج وقد خاروا لفتكته ... فاستنفروا كلَّ مرهوب تغلغُله
سيف أمام فلسطين برَى أمماً ... خلف البحار لقد أمهاه[1] صيقله
كم قد أعدّوا وكم قد فُلّ جَمْعَهمُ ... من غير ضربٍ ولا طعنٍ يزيِّله[2]

ولعل الجلْياني يختزل في قصيدته الأخيرة مجريات ذلك العام (585/ 1189)، مشيراً إلى الاستنهاض الأوروبي ردّاً على سقوط القدس، وما أسفر عنه من حملة حُشدتْ لها جيوشٌ لثلاثة من الملوك الكبار، ثم إلى تفكك هذه الحملة بعيد ذلك واقتصارها على الملك البريطاني الذي وجد نفسه عاجزاً عن تحقيق الآمال المعقودة عليه في استرجاع القدس.

وإذ رأينا القدس المحرّرة تستثير قرائح الشعراء، وهم كثيرون أحاطوا بصلاح الدين في ذلك الوقت، فإن هؤلاء شأن المؤرخين كانت شخصيته القيادية ما أخذت بهم أكثر من الحدث الذي قرأوه من خلاله، بل أكثر من القضية التي بدت مختزلة فيه. ومن هذا المنظور نجد شاعراً مخضرماً من مادحي الفاطميين في أواخر أيامهم، وهو عُمارة اليمني، يتحوّل ولاءً إلى صلاح الدين، وينثر المدائح على مساحة الأسرة الأيوبية كافة، وهمّه حينئذٍ أن ينال حظّاً أوفر من العطاء، فيتوجه إلى صلاح الدين بقصيدة متضمنة شرح حاله وظروفه، وسماها

(1) أمهاه: شحذه.
(2) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2 ص151.

«شكاية المتكلّم ونكاية المتألم» على حدّ تعبير ابن خلكان[1]، وقد جاء فيها:

ملكتَ عنان النصر ثم خذلتني وحالي بمرأى من علاك ومسمعِ
فإن سُمتني نظماً ظفرتَ بمُفلقٍ وإن سُمتني نثراً ظفرت بمِصقع
سألتكَ في دَينٍ لياليك سُقنه وألزمتنيه كارهاً غير طيّع[2]

ولا ندري إذا كان السلطان قد أغاث الشاعر المنكوب، وإن كان الراجح أن ذلك لم يلق آذاناً صاغية لديه، مما يتّضح في انصراف عمارة عنه، إلى حدّ التآمر عليه. وفي هذا السياق يروي ابن خلكان «أنه شرع في أمور وأسباب من الاتفاق مع جماعة من رؤساء البلد على التعصّب للمصريين وإعادة دولتهم، فأحسّ السلطان صلاح الدين، وكانوا ثمانية من الأعيان ومن جملتهم الفقيه عمارة المذكور، وشنقهم في يوم السبت ثاني شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة بالقاهرة»[3].

وهكذا كان شأن الشعراء يتحلقون حول المنتصر، ويفدون عليه مادحين، معظِّمين من كل صوب، لا سيما إذا اقترن ذلك بحدث تاريخي مثل فتح القدس الذي أنعش الآمال وأطلق النفوس من إحباطها. وإذا كان صلاح الدين قد بقي ظلّاً لنور الدين، وربما مصادراً لتراثه خصوصاً لدى أهل الشام المتعلقين بشخصية السلف، فإن الفتح قد أعطى للقائد الأيوبي، المسوِّغ في أن يكون الوريث الشرعي له. وقد انسحب هذا التحوّل على الشعراء المفعمين بذلك التاريخ، فكانت قراءات بعضهم له من خلال هذه القضية التي انتشر صداها في مواقفهم، ليشمل ذلك أيضاً الأسرة الأيوبية بصورة عامة.

وإذا كان عمارة اليمني، قد أبدى تململاً من ضحالة نصيبه في العطاء،

---

(1) وفيات الأعيان، ج3 ص434.
(2) عبد الكريم قبلان، المرجع السابق، ج2 ص587.
(3) وفيات الأعيان، ج3 ص435.

على الرغم من اتساع دائرة مدائحه لتشمل بعض أمراء الأسرة الحاكمة، فإن شعراء آخرين من مصر عرفهم بلاط السلطان وكانوا أوفر حظاً منه. ومن هؤلاء محمد بن أسعد الجوّاني الذي رأى في فتح القدس، ما يوازي الفتوحات الكبرى في العهد الراشدي، ممسكاً بدوره بزمام الحدث التاريخي، الذي بات من تقاليد المرحلة، فيقول مادحاً صلاح الدين بعد فتحه بيت المقدس:

ومليكهم في القيد مصفودٌ ولم ... يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسر
فُتح الشآم وطُهّر القدس الذي ... هو في القيامة للأنام المحشر
ملكٌ غدا الإسلام من عجب به ... يختال والدنيا به تتبختر
نثرٌ ونظمٌ طعنه وضرابه ... فالرمح ينظم والمهند ينثر
غاراته جمعٌ فإن خطبت له ... فيها السيوف فكل هام منبر[1]

ولعل الجوّاني في هذه القصيدة لا يكتنه التاريخ بهذا القدر فحسب، بل يسخّر له من أدوات الشعر، ما يجعل الشاعر أكثر اختلاجاً بحركة الحدث إلى حدّ تكاد الرماح لشدة وميضها تنطق شعراً في فضاء المعركة، فيلتبس الأمر إذا كان الشعراء أم القادة من يخوض رحى الحرب ويبدع النصر. ولا غرو في ذلك، فإن فتح القدس الذي طال انتظاره حتى بات حلماً يراود عن بعد المسلمين، هزّ بعمق وجدانهم، مستعيدين في ظله الروح المعنوية المفقودة، لا سيما بعد هزيمة الملك الصليبي الذي اقتيد أسيراً مكبّلاً بالأصفاد، لتسقط معه هالة التفوق العسكري منذ ذلك الحين. فالشاعر المندهش من وقوع الملك لأول مرة في الأسر، فاته أن ملكاً قبله لقي المصير عينه، وهو الامبراطور البيزنطي في معركة ملاذكرد، إلا إذ كان يخص بذلك العهد الصليبي دون غيره. ومما يعنيه الأمر لدى الشاعر، أن أزمة التاريخ عادت إلى الانفراج، من دون أن يعكس ذلك الزهو بالنصر فقط، ولكن ركام المعاناة في نفسه، لوقوع «البلد الحرام»

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2 ص105.

أسيراً في يد الأعداء حتى ذلك الوقت.. فقد عاد التاريخ إذاً إلى سابق حركته، وأطلق الشاعر لنفسه عنانها، «ناظماً» على طريقته «الفتح» الذي رأى فيه استعادة للفتوح العظيمة الغابرة.

وهكذا تدمغ القدس ثقافة المرحلة، لا سيما في العهد الأيوبي، حيث تأسس، كما سلفه الزنكي، في صخب قضيتها الحاضرة بقوة في الوجدان الشعبي، الذي كان الشاعر خصوصاً أكثر قدرة على الوغول فيه أو التصادي معه. وكان ذلك ما أكسب قصيدته أحياناً بعض قيمتها الرسالية، بما يتعدى المديح لشخصية معينة، إلى القضية بذاتها، على نحو ما عبّر عنه أيضاً الكاتب ـ الشاعر المخضرم، القاضي الفاضل، مرتقياً بهذا المفهوم للشعر وتأثيره في هذا المجال:

ولم أر قِرْناً يُعجزُ الدهرَ حرْبُه سوى الشعر، إن الشعر يبقى على الدهر
تنير جميعُ الزُّهرُ ليلاً وتنطفي مع الفجر، إلا أنجم الشعر في الفخر[1]

ومن هذا المنظور تعددت أغراض هذا الشاعر، فلم يكن المديح المباشر ما أخذ به، على الرغم من علاقته بصلاح الدين، بمثابة مستشار له، ولكنه حتى في مديحه له، كان الدور الجهادي ما توقف عنده، من دون أن يعرض لخصال أخرى فيه، رائياً إلى أن العناية الإلهية أرسلته للقيام به، كما سنرى في هذا البيت من قصيدة مطوّلة:

والسيف سيف اللّهِ يَسفِكُ بالحدود دم الأثام[2]

وهذا السيف ما انفك يفجّر قريحة القاضي الفاضل، ويستحق مديحه، اذ هو سيف السلطان المجاهد، والذي ما انفكّ ينبثق منه النصر وينال حظاً من تكريم الشاعر فيقول:

(1) ديوان القاضي الفاضل، ج2 ص468.
(2) المصدر نفسه، ج1 ص285.

مـاضـيـات عـلـى الـدوام دوامـي ... هـي فـي الـنـصـر نـجـدة الإسـلام
فـي يـمـيـن الـسـلـطـان إن جـرَّدتْـهـا ... أشـبـهـتـهـا صـواعـق فـي غـمـام
تـنـشـر الـهـام كـالـحـروف فـمـا أشـ ... ـبـهَ هـذي الـسـيـوف بـالأقـلام[1]

وفي هذا السياق، يتبدّى لنا ابن سناء الملك، تائقاً بدوره إلى أن يرى القدس محرّرة في رحاب المسلمين، ورائياً إلى أن فاتحها جدير بأن تُضفر له أكاليل الشعر، ودائماً من خلال المفهوم الديني للحدث، فنراه قائلاً:

كـم تـأنّـى الـنـصـر الـعـزيـز عـن الـشـا ... م ولـمّـا نـهـضـت لـم يـتـأنّـا
ولـعـمـري مـن حـاز فـتـحـاً جـلـيـلاً ... وتـغـنـى فـإنـه مـا تـغـنّـى
قـد مـلـكـتَ الـجـنـان قـصـراً فـقـصـراً ... إذ فـتـحـتَ الـشـآم حـصـنـاً فـحـصـنـا[2]

بيد أن ذلك لا يعكس نتاج المرحلة كافة، فثمة آخرون من الشعراء ذهبت مدائحهم في البيت الأيوبي بعيداً عن تلك القضية، متوسّلةً أغراضاً خارج موضوعها، مما هوى بالشعر عن مستواه في بعض الأحيان، على غرار ما توجّه به ابن النبيه إلى الملك العادل بعد بنائه قلعة الطور:

الـمـلـك الـعـادل مَـنْ أَمّـهْ ... فـقـد رأى مـوسـى عـلـى الـطّـور
إن كـان قـد دُكّ قـديـمـاً فـقـد ... عـمّـرتَـه أحـسـن تـعـمـيـر
كـأنـمـا أوقـفـتَـه حـارسـاً ... يـنـظـر مـن عـكـا إلـى صـور[3]

أو على غرار مخاطبته في القصيدة عينها للملك الأشرف، مجرَّداً أو يكاد من الحوافز الجهادية التي غالباً ما استثارت القرائح في تلك المرحلة:

إن جـنـحـوا لـلـسـلـم فـاجـنـح لـهـا ... مـا خِـدَعُ الـحـرب بـتـقـصـيـر

(1) ديوان القاضي الفاضل ج1 ص285.
(2) ديوان ابن سناء الملك، ج2 ص815 ـ 817.
(3) ديوان ابن النبيه المصري، ص118 ـ 119.

كم لك في يافا وفي المرج من وقائعَ غُرّ مشاهير

ولعل مثل هذا الشعر، لا يعكس فقط هبوط المستوى الفني فحسب، بل غياب العمليات الحربية الكبيرة في ذلك الوقت، مما جعل الشعراء يتوكأون، على الانتصارات السابقة، أو يستعيدونها في بناء ركيك ولغة جافة مباشرة. وهو واقع يمكن إسقاطه على الدولة الأيوبية التي تفرّعت إلى دول صغيرة بعد وفاة صلاح الدين، الأمر الذي أخلّ بالتوازن بصورة ما لمصلحة القوى الصليبية في الشام. وكان من البديهي، في ضوء ذلك، أن تخفت نبرة الشعر الحماسي نتيجة انكفاء العمليات العسكرية، ليصبح مجرد مديح لأهل السلطة، يتوسّل عطاءهم ويبتغي التودّد لهم. وبين هذه الفئة يندرج ابن مطروح، المعاصر للملك الكامل، فيقدّمه وكأنه خارج لتوّه من المعركة، ومحقق بالتالي انتصارات، ليست إلا وهمية، كما جاء في قوله:

للّهِ رايتكَ التي قد أصبحت معقودة بالأمن والإيمان

أنّى قصدتَ بها رجعتَ وتحتها ملكٌ مطيع أو أسيرٌ عان[1]

وعلى هذا النحو يمضي الشاعر متكلّفاً، إلى حدّ الافتعال لمواقف من خارج المكان وقضيته، مما يتجلى في مديحه للملك الأشرف (ابن الملك العادل):

أفنيتَ خيلك والصوارمَ والقنا وعِداك والأموال ماذا تقتني

أبقت لك الذكر الجميل مخلّداً شيمٌ لها الأملاك لم تتفطّن

وشجاعةٌ رجف العراق لذكرها وتُهامة وبلاد عبد المؤمن[2]

وهي أبيات لا تحمل في مضمونها أية صدقية، أو تعبير عن الواقع بهمومه المنفصلة عن تلك الأقاليم التي أشار إليها، وهي جميعها، من شبه الجزيرة

(1) ديوان ابن مطروح، ص176.
(2) المصدر نفسه، ص177.

العربية (تهامة) والعراق، حتى الأندلس (دولة بني عبد المؤمن الموحدين)، خارج دائرة الحرب المعروفة في الشام أو في مصر، دون أن نجد سبباً لارتجافها أمام صولة الملك «الشجاع»، في وقت كانت فيه هذه الحرب أكثر حدّة بين الأمراء الأيوبيين، مما بينهم وبين أعدائهم.

وقد بلغ من تأثير هذا الركود على جبهات القتال ضد الصليبيين، أن شاعراً مميّزاً ومعاصراً للملك الكامل أيضاً، وهو البهاء زهير، أعرض عن الأمراء الأيوبيين، ليمتدح والياً على «قوص»[1]، مُنشداً فيه قصائد ليست تختلف موضوعاً، عن تلك المعروفة في هذا الباب، لا سيما في النزوع إلى المبالغة في إبراز بطولات الممدوح وصفاته الشخصية الخارقة. ولكن البهاء حين اختلف معه، لجأ إلى بلاط الملك الكامل، مستغلاً انتصاره على الصليبيين في معركة دمياط، فنظم فيه قصيدة تنمّ عن تأثّرٍ بذلك الإنجاز، الذي رأى فيه استعادة للمواقع المظفرة السالفة، شأن آخرين كانت تطيب لهم هذه المقارنة، عند كل انتصار في ذلك الحين، وقد جاء فيها:

هو الكامل المولى الذي إن ذكرتَه فيا طربَ الدنيا ويا فرحَ العصر
به ارتُجعت دمياط قَهْراً من العدى وطهّرها بالسيف والمِلّة الطُّهر
فما زلتَ حتى أيّد الله حزبه وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر[2]

وباستثناء هذه القصيدة، فإن شعر البهاء لم يتعد المديح الشخصي، حتى بعد اتصاله المباشر ببعض أمراء الأسرة الأيوبية الحاكمة، مما يعبّر عن أزمة الجبهة الإسلامية، وتحوّل الشعراء إلى جبهة السلطة، مجرّد أدوات إعلامية لها. وقد بلغت تلك الأزمة ذروتها في عهد الملك الكامل نفسه، إذ نراه على الرغم من انتصاره السالف في دمياط، يرتكب خطيئة روّعت حينذاك مشاعر

---

(1) مدينة كبيرة كانت قصبة الصعيد في مصر، واشتهرت بالثراء إذ كانت محطّة التجّار القادمين من عدن. ياقوت، معجم ج4 ص413.

(2) ديوان البهاء، ص99.

المسلمين، وأثارت سخطهم عليه، وهي التنازل عن القدس للصليبيين. أما الدافع إلى ذلك، فكان خوف الملك على سلطانه، عندما تكتّل ضده بعض أمراء أسرته، بقيادة أخيه، المعظّم عيسى صاحب دمشق[1].

ومما يهمنا في هذا الأمر، أن الكامل الذي اعتقد أنه حقق انتصاراً سياسياً على خصومه الأيوبيين، لم يكن معنياً بالقضية التي عاشت في وعي المسلمين عقوداً طويلة من الزمن حتى تمّ لهم تحرير القدس، فإذا به يؤثر عليها أطماعه الشخصية. وكان على رأس الحملة المندّدة به حينئذٍ ابن أخيه الناصر داوود، محرّضاً المجتمع، لاسيما الفقهاء، على تصرّف عمه «الكامل»، وعلى استنهاض المسلمين ضده. ولعل ما يلفت الانتباه، أن حركة الفقهاء، لم تقابلها حركة مماثلة من الشعراء الذين صمتوا أو كادوا أمام ذلك الحدث التاريخي البارز، وما تردّد حينذاك من قليل من الشعر، إنما كان الناصر داوود على الأرجح ما شجع عليه، مستغلاً ذلك، على الرغم من تمايز لمصلحته في هذا الاتجاه، لتثبيت نفوذه في الشام. وقد نظم بإيعاز منه أحد الفقهاء الشعراء قصيدة، على إيقاع تائية دعبل الخزاعي الشهيرة في الإمام الرضا، وأبدى فيها من التفجّع ما عبّر عنه مطلعها:

أعينيَ لا ترقي من العبرات   صلي في البكا الآصال بالبكرات[2]

ولم يحجم الناصر داوود، وهو الأكثر إجادةً للشعر بين أمراء أسرته، عن أن يكون له رأيه الخاص إزاء هذه المسألة، فقال:

ألا ليت أمي أيّمٌ طول عمرها   فلم يقضها ربي لمولىً ولا بعلِ[3]

وهكذا تصبح القدس، بعد أن كانت منذ وقوعها تحت سيطرة الصليبيين رمزاً للجهاد الإسلامي، محور الصراع على النفوذ بين الأيوبيين حتى انتهاء

(1) ابن الأثير، الكامل ج12 ص482.

(2) أبو شامة، كتاب الروضتين ج2 ص205.

(3) الحنبلي، شفاء القلوب ص358.

عهدهم. ولم تنقض غير سنوات، حتى توفي الملك الكامل، حاملاً معه عار موقفه المشين، فآل الحكم بعده إلى ابنه العادل الثاني، إلا أن الصالح نجم الدين أيوب نازعه على دمشق وما لبث أن سيطر عليها (636هـ)، قبل أن ينتزعها في العام التالي الناصر داوود، صاحب الكرك حينئذٍ، ويزجّ بالصالح في السجن. ولم يتأخر الناصر في السعي إلى تحقيق ما اعترض عليه بشدّة في عهد الكامل، فنجح في استعادة القدس بعد مؤازرة المصريين له، وكان قد مرّ عليها إحدى عشرة سنة تحت الحكم الصليبي. وكان لهذا الحدث من الصدى، ما حرّك مشاعر ابن مطروح الذي قال مهنئاً الناصر:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلاً سائرا

إذا غدا للشِرك مستوطناً ... أن يبعث الله له ناصرا

فناصرٌ طهّره أولاً ... وناصرٌ طهّره آخرا[1]

ولعل هذه الأبيات، وهي بمثابة تأريخ لذلك الحدث، أكثر مما هي تعبير عن حالة بدا الشاعر أمامها متواضعاً في تجلياته، فلم يقارب معها حدود الإبداع. وهي تنطلق أساساً من رؤية كانت ما تزال تردّ مثل هذا النصر إلى الإحاطة الإلهية للقدس، فتُسخّر لها، كما يرى ابن مطروح، «ناصراً» ينقذها من أعداء الإسلام، مُلمّحاً إلى منقذها الأول، الناصر صلاح الدين، والثاني الناصر داوود. وكان الأخير أكثر نزوعاً إلى هذه الرؤية، متأثراً بتكوين ثقافي جعله متميزاً عن أقرانه الأيوبيين، في إجادته للشعر والنثر، وفي تعمّقه بالعلوم الدينية والعقلية[2].

ومن هذا المنظور، كانت للناصر داوود هواجس تعدّت الصراعات السياسية، إلى أن تصبح أكثر اتّساقاً بحركة الجهاد التي انخرط فيها بسيفه،

---

(1) الناصر داوود، الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية، ص11.
(2) الحنبلي، شفاء القلوب، ص357.

وأدرك أبعادها بعقله وثقافته. ومن منظوماته الحماسية هذه القصيدة التي تعكس ما تنطوي عليه شخصيته من جرأة وكبرياء وتعطّش إلى الجهاد، وقد جاء فيها:

سلْ من غدا بعَلاء مجْدي عالماً ... أو راح في الشرف الرفيع مُنافسي

يخبركَ كلٌّ عن حماسة ماجدٍ ... زاكي الأرومة نابهٍ متكايس

يلقى الكماة بصدر عادٍ عارمٍ ... لا واهن فَرِقٍ ولا متقاعس

يستّل سيف مهنّد ذي رونقٍ ... متألّق في جُنح ليل دامس

ما زال يعلوهم به متقدّماً ... والموت يرمقه بطرف ناعس

حتى غدا بدمائهم متخضّباً ... إن النجيع خضاب كفّ الفارس(1)

ولم يكن فقط تشابه اللقب بين الناصر داوود، وبين الناصر يوسف مؤسس الدولة الأيوبية، ما يحفّزه إلى التماهي مع الأخير، ولكن شخصيته بصفاتها القيادية اللافتة، أهّلته في الواقع لذلك الدور، الذي تفرّد به بين الأمراء الأيوبيين بعد صلاح الدين، وتجلّى مشروعاً في محاولة إعادة الوحدة للدولة المنقسمة. بيد أن منافسيه، وقد وجدوا فيه ما يهدّد نفوذهم، تألّبوا عليه، ودفعوا به إلى العزلة، حتى عن النخب الدينية التي أحاطها بالرعاية، وكانت من حيث المبدأ الأقرب إلى نهجه ومشروعه، فانعكس ذلك مرارة في نفسه، وتذمّراً مما يحيط به من صراعات كان الصليبيون المستفيدين منها. وأمام هذه المحنة، لم يجد الناصر، سوى الشعر وسيلة حوار مع الأمراء الناكثين، المتقاعسين عن الجهاد، مما يتجلى خصوصاً في هذه القصيدة التي نظمها في ذروة معاناته، ومنها هذه الأبيات:

دعْ سيف مِقوليَ البليغ يذود عن ... أعراضكم بفرنده المتوقّد

آوي المشرّد لي وأعطي ما نعي ... وأقيل أعدائي وأرحم حُسّدي

---

(1) الفوائد الجلية، ص253 ـ 254.

والله يـا ابـن الـعـم لـولا خـيـفـتـي لـرمـيـتُ ثـغـرك بـالـعُـداة الـمُـرّد
لـكـنـنـي مـمـن يـخـاف حَـزامـةً نـدمـاً يـجـرّعـنـي سـمـام الأسـود
فـأراك ربـك بـالـهـدى مـا تـرتـجـي لـنـراك تـفـعـل كـل فـعـل أرشـد
لـنعيـد وجه الـملك طلقاً ضـاحكا ونـردّ شـمـل الـبيـت غيـر مـبـدّد[1]

وفي هذه الأبيات نذهب مع الناصر، شاعراً، على متان التاريخ، مقدّماً لنا صورةً حيّة عن واقع الأسرة الأيوبية المتصارعة، فيما هو خارج تناقضاتها، ليس عن ضعف، إذ لديه من الجرأة والبأس في الحرب، ما يجعله منافساً خطراً لأمرائها المتنازعين، وإنما عن حرص على وجودها واستعادة لحضور دولتها موحدة قوية. ولكن التاريخ بدا أنه تخلّى عن هؤلاء الأمراء، بعد أن أفلت منهم زمامه، وخرجوا بدورهم منه، متخاذلين أمام تحدياته الكبيرة. كما تخلّفَ الشعراء بدورهم عن هذا التاريخ، بانكفائهم عن الدور ـ القضية، إلى شؤون التكسّب تحت مظلة الأمراء الصغار، مما سيؤدي بحركته إلى تغيير مسارها نحو اتجاه آخر. وليس بعيداً عن هذا الواقع القول، إن إخفاق الناصر داوود في تحقيق مشروعه الوحدوي، كان يعني أن الدولة الأيوبية فقدت الأمل الأخير في أن تعود إلى سابق عهدها.

ومن المفارقات أن الملك ـ الشاعر، كان أكثر من خذله، هم الشعراء الذين شملهم برعايته، واصطفاهم مع أهل العلم (الفقهاء) طليعةً لدعم مشروعه، فإذا بهم في تقلّبهم مصدر معاناته، أو ربما كانت نزعته إلى الأدب قد جعلته من الرهافة إلى حدّ بات غير حاسم في بعض مواقفه على مساحة الجبهة الداخلية، فكان ذلك ما رآه، على الأقل، الحنبلي في قوله: «وهيهات مع حرفة الأدب حصول الأرب»[2].

(1) الفوائد الجلية، ص264.
(2) شفاء القلوب، ص357.

ب ـ في العهد المملوكي

إذا كان التاريخ الأيوبي قد بدأ بناصر استمدّ لقبه من تحرير القدس، فإنه سينتهي بناصرٍ آخر، ربما اكتسب هذا اللقب أيضاً من إعادة تحريرها. . وما بقي بعد ذلك من هذا التاريخ، ليس سوى ذكريات من أمجاد غابرة، في وقت لم يعد استمرار الدويلات الأيوبية مديناً لقوتها، بقدر ما ساعد ضعف الصليبيين أيضاً عليه، فضلاً عن ظهور عنصر محارب (المماليك)، أمدّها بشيء من الحيوية، ولكن إلى حين. بيد أن هؤلاء سيجدون أنفسهم في صميم حركة التاريخ، إذ كانوا أكثر وعياً بها، واتّساقاً بخطّ سيرها المائج بالتحديات الكبيرة. وهي حركة لا تعيد نفسها، وإن كان ثمة ما يبدو من المواقف متشابهاً فيها، على الأقل ما بين سقوط القدس على يد الصليبيين الأوائل، وبين سقوط بغداد بعدها بأكثر من قرن ونصف أمام الاجتياح المغولي. فقد عجزت الخلافة حينذاك عن التدخّل ضد الغزو الصليبي، على الرغم من نداءات الاستغاثة الصادرة عن الشام، فيما لم تقم الأخيرة، تحت سيطرة الدويلات الأيوبية، بأية مبادرة إزاء الحاضرة العباسية، وهي تواجه مصيرها المأساوي. وما أشبه حينئذٍ «بكائية» القدس لقاضي دمشق الهروي مع «المستَنفرين» إلى العراق، بمرثية تقي الدين بن أبي اليسر لبغداد، وقد جاء فيها:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ... فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديّار
تاج الخلافة والرَّبع الذي شرفتْ ... به المعالم قد عفّاه إقفار
أضحى لعصف البلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثار(1)

وهكذا بعد تكسّر السيوف، كان الشعراء يؤرخون للحدث المأساوي، وقد تراءت لهم الصورة مظلمة يكتنفها اليأس، إذ كان الإسلام ما سُفك دمه في

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7 ص51. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص473.

غمرة العاصفة، وليس الخليفة فقط الغارق في ذلك النجيع، وهي صورة جسّدها شاعر آخر في رثاء بغداد، هو شمس الدين الكوفي قائلاً:

بانوا ولي أدمع في الخدّ تشتبك ... ولوعة في مجال الصدر تعترك
يا نكبةً ما نجا من صرفها أحدٌ ... من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكّنت بعد عزّ في أحبّتنا ... أيدي الأعادي فما أبقوا وما تركوا
ربع الهداية أضحى بعد عهدهم ... معطّلاً ودم الإسلام منسفك[1]

وإذا كان الماضي ما أبحر فيه الشعراء، راضخين لصروف الدهر، كذلك صاحب دمشق المستهدفة مباشرة بعد بغداد، أعياه الجواب على رسائل هولاكو مهدِّداً، بسيف «الهه» وجنوده، بمصير مشابه لعاصمته[2]، فإن الحاضر ما تصدّى لتأريخه المماليك، دونما وجل أو تخاذل أمام التهديد المغولي، ولم يثنهم عن قرار الحرب، تساقط المدن الشامية وتسليم دمشق بالأمر الواقع، مقدِّمةً بإيعاز من حاكمها الأيوبي، المفاتيح والهدايا إلى الغزاة. ذلك أن القائد المملوكي حينذاك (قطز)، كانت له قراءته المختلفة، حين بادر، قبل أن يمتثل الفقهاء والأعيان لمثل ذلك الأمر، إلى جمعهم، ومخاطبتهم بكلام بليغ، من شأنه أن يغيّر مسار التاريخ. ثم توّج ذلك بقرار حاسم لم يعد لمتخاذل حجة أمامه: «الرأي عندي أن نتوجه إلى القتال، فإن ظفرنا فهو المراد، وإلاّ فلن نكون ملومين أمام الخلق»[3]. وفي ضوء ذلك كان النصر العظيم في عين جالوت، والدخول الظافر إلى دمشق، ومطاردة المغول في أول هزيمة لهم إلى ما وراء حدود الشام[4].

وكان لتحرير حاضرة الشام حينئذٍ من الأهمية، ما جعل الأخيرة مرة أخرى

---

(1) حسن الأمين، الغزو المغولي لبلاد الشام ص140.
(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص473 ـ 475.
(3) المصدر نفسه، ص475.
(4) حسن الأمين، المرجع السابق، ص149.

محور الحدث التاريخي، سواء على جبهة المغول التي انكفأت بعد محاولات عدة لاستعادتها، أو على جبهة الصليبيين التي وجدت نفسها معزولة وشبه محاصرة، في ظلّ الحكم الجديد. ولعل ما يلفت في هذا السياق أن المرويات لم تحمل إلينا سوى اليسير من التراث الأدبي للمرحلة، لا سيما الشعر الذي كان غائباً بصورة ما عن تلك التداعيات، فلم تحظ دمشق في موكب فرحها بالنصر، بما حظيت به بغداد في نكبتها، كما يلفت أن عين جالوت، تلك المعركة الخالدة، لم يكن لها نصيب من الشعر المهدور في المناسبات العادية من ذلك التاريخ، الذي اختزلها بدوره في شريط قصير من أخباره. فإذا رجعنا على سبيل المثال، إلى أبي المحاسن في موسوعته (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، سنجد هذا المؤرخ، متأثراً بالطبري ليس في اعتماد الطريقة «الحولية»، بما تنطوي عليه من ركام التفاصيل عاماً بعد عام فحسب، بل في تتبع الأخبار الخاصة بالطبقة الحاكمة، مقتبساً من سلفه أيضاً عنوان موسوعته (تاريخ الرسل والملوك).

وقد بلغ هذا التماهي من جانب أبي المحاسن مع الطبري، إلى حدّ التوقف مثله طويلاً عند الصفات الشخصية للحاكم، ومثله أيضاً أولى أهمية لتفاصيل ثانوية، على حساب الأحداث الأساسية في بعض الأحيان. وفي ضوء ذلك، فهو يستفيض في أخبار «المستنصر» الذي تُوّج خليفةً أول في القاهرة، فيصفه بأنه كان جسيماً شديد السمرة عالي الهمّة.. عنده شجاعة وإقدام..»[1]، هذا مع العلم أنه لم يمارس مطلقاً شؤون الحكم، حيث أجبر بعد تنصيبه على الإقامة في قلعة، معزولاً عما يجري من حوله، وغير متاح له إظهار شيء مما أشار إليه المؤرخ السالف الذكر عن صفاته ومواهبه.

ولم تَحِدْ عن ذلك التواريخ الأخرى المترهِّلة، التي ازدحمت بتفاصيل ليست دائماً في سياق الحدث، أو اخترقتها فجوات غُيبت حقائق مهمة عنها.

---

(1) النجوم الزاهرة، ج7 ص110 ـ 111.

وإذا أردنا المقارنة بين الحجم الذي اتخذته معركة عين جالوت في موسوعة هذا المؤرخ، وبين ذلك الذي خُصّص لاحتفالات تتويج الخليفة، لوجدنا طغياناً واضحاً لأخبار الأخيرة، بينما اقتصرت الأولى على نصّ مقتضب، يروي التقاء الطرفين: المماليك والمغول في عين جالوت، وثبات القائد قطز في المعركة، «وهو يكرّ بهم كرّة بعد كرّة حتى نصر الله الإسلام وأعزّه»[1]. . عند هذا الحدّ يتوقف الحدث الكبير لدى هذا المؤرخ، مكتفياً من نتائجه بالصراع على الحكم، الموضوعة الأكثر جاذبيةً لمؤرخي العصور الإسلامية، والذي انتهى بفوز القائد بيبرس وسيادته على الدولة المولودة فعلياً في صخب تلك المعركة.

أما الشعراء الذين واكبوا العهد السالف، فقد افتقدناهم، إلاّ قليلاً، في هذا العهد، من دون أن نجد تفسيراً لذلك سوى احتمال أن يكون الأيوبيون أكثر رعاية لهم من المماليك، الأكثر تطبّعاً بالنظام العسكري، والأقل ثقافة من أسلافهم الذين كان بينهم من اكتسب معرفة واسعة في العلوم ومن أجاد نظم الشعر كما سبقت الإشارة. وليست مصادفة أن تكون أولى المنظومات في عين جالوت، وهي لشاعر دمشقي مجهول، متقاطعة مضموناً، مع النص الذي مرّ ذكره للمؤرخ، من دون أن يكون لهذه الأبيات ميزة فنية عن النص التاريخي، إذ بدت خاوية حتى في الجانب النفسي، المفتقد إلى القليل من الحماسة والانفعال، كما يتّضح فيما يلي:

هلك الكفر في الشآم جميعاً ... واستجدّ الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفّر الملك الأر ... وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم ... فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا ... دائماً مثل واجبات فروضه[2]

هذه الأبيات أشبه بتعليق، عبّر عنه، وبأسلوب شبه محكي، شاعر، قصير

---

(1) النجوم الزاهرة، ج7 ص79.
(2) المصدر نفسه، ج7 ص82.

الباع في هذا المجال، وغير منخرط في الحدث السياسي الذي جاء باهتاً، مُفرغاً من عنصر التاريخ. وليس يختلف عما سلف للشاعر المجهول، ما قاله آخر معروف من دمشق أيضاً، وهو أبو شامة، في مدحه للقائد عينه (قطز)، وكأنه «يؤرخ» للوقت الذي جرت فيه معركة عين جالوت، كما بدا في هذين البيتين:

غلب التتار على البلاد فجاءهم | من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدّد شملهم | ولكل شيء آفة من جنسه[1]

ولعل أبا شامة الذي كان أكثر اهتماماً بالدولتين النورية والصلاحية، بوضعه تاريخاً لهما، ملحقاً بفصل من الشعر، يقرأ بوحي ذلك المعركة، ناظماً على طريقته الخبر التاريخي، وفحواه أن قائداً تركياً، والمقصود هنا قطز الذي سيلقب بالملك المظفر بعد انتقال الحكم إليه، قدم من مصر إلى الشام حيث دحر المغول (التتار) وبدّد شملهم، وهم من أصل تركي أيضاً، ثم ينتهي عند هذا الحدّ الخبر في نبرته الإعلامية المباشرة.

وقد نفسر أيضاً عزوف الشعراء خصوصاً الشاميين عن المواكبة الفعلية للحدث السياسي، في ضوء العلاقة المضطربة بدايةً بين الشام والدولة الجديدة، التي اختلفت في سياستها الدينية عما كان عليه الأمر في العهد الأيوبي. أما سبب ذلك فكان قرار الملك الظاهر (بيبرس) بتعيين قضاة يمثّلون المذاهب (السنية) الأربعة في الشام، وصودف أن ثلاثة منهم، باستثناء القاضي المالكي، حملوا اللقب نفسه وهو شمس الدين، مما حمل أحد الشعراء الظرفاء مستاءً من ذلك على القول:

أهل الشآم استرابوا | من كثرة الحكّام
إذ هم جميعاً شموسٌ | وحالهم في ظلام[2]

بيد أن السلطان القادم من عين جالوت إلى السلطة، وما برحت انتصاراته

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص82.
(2) المصدر نفسه، ج7 ص137.

مدوّية في أرجاء الشام، سرعان ما تكتّلت الأخيرة، بمن فيها الفقهاء تحت قيادته. فلم يكن خطر المغول قد انحسر عن تخومها، في الوقت الذي دأب فيه هؤلاء على محاولة ردّ الاعتبار لآلتهم العسكرية بعد الضربة الشديدة التي تلقّتها في عين جالوت. وفي هذا السياق كانت المعركة التي جرت عند شطّ الفرات قريباً من منبج، حيث كان السلطان متنبّهاً لهم، وأنزل بهم هزيمة و«لم ينج منهم إلا القليل» حسب الرواية التاريخية[1]. بعد ذلك عاد ظافراً إلى دمشق (جمادى الأولى 670م)، وقد استقبل بما يليق بالمنقذ الذائد عن الإسلام والقاهر أعتى الأعداء المتربصين به، دون أن تعدم معركة كهذه صدى على جبهة الشعراء، وفي مقدمهم كاتب الإنشاء، شهاب الدين أبو الثناء محمود الذي كانت له قصيدة في الحدث الكبير، وقد جاء فيها:

سرْ حيث شئت لك المهيمن جار ... واحكم فطوع مرادك الأقدار
لم يبق للدين الذي أظهرته ... يا ركنه[2] عند الأعادي ثار
لما تراقصت الرؤوس وحركت ... من مطربات قِسِّيك الأوتار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى ... بحراً سواك تقلّه الأنهار
وتقطّعت فرقاً ولم يك طودها ... إذ ذاك إلا جيشك الجرّار
فلأملأن الدهر فيك مدائحاً ... تبقى بقيت وتذهب الأعصار[3]

كما استثار هذا الحدث شاعراً آخر، هو بدر الدين يوسف بن زمّاح (المهمندار) فنظم في الملك الظاهر قصيدة جاء فيها:

لو عاينت عيناك يوم نزالنا ... والخيل تطفح في العجاج الأكدر
وقد اطلخّم الأمر واحتدم الوغى ... ووهى الجبان وساء ظن المجتري

---

(1) أبو المحاسن، نجوم، ج7 ص159.
(2) إشارة إلى لقب بيبرس (ركن الدين).
(3) المصدر نفسه، ج7 ص159 ـ 160.

لرأيت سدّاً من حديد ما يرى فوق الفرات وفوقه نار تري
ما كان أجرى خيلنا في إثرهم لو أنها برؤوسهم لم تعثر
وجرت دماؤهم على وجه الثرى حتى جرت منها مجاري الأنهر
والظاهر السلطان في آثارهم يذري الرؤوس بكل عصف أبتر
ذهب العجاج مع النجيع بصقله فكأنه في غمده لم يشهر
إن شئت تمدحه فقف بإزائه مثلي غداة الروع وانظم وانثر[1]

لعل هاتين القصيدتين، من أفضل ما وصلنا من شعر تلك المرحلة، ومن أكثره تجسيداً للتاريخ الذي أسلس قياده للماليك، وتعملق سلطانهم واحداً من أبرز صانعيه، ومن أشد المنافحين حماسة عن الدين، الذي هو «ركنه» الملقب عن جدارة به، والآخذ بثأره من أعدائه.

وبهذا الحافز الثأري يقرّ شاعر آخر، (الموفق عبد الله بن عمر الأنصاري)، وقد روت ظمأه تلك الانتصارات، بالفضل للسلطان الكبير، الخليق لقيادة الأمة، فيقول فيه:

الملك الظاهر سلطاننا نفديه بالأموال والأهل
اقتحم الماء ليُطفي به حرارة القلب من المغل[2]

وثمة شعراء آخرون واكبوا حرب السلطان ضد المغول، إلا أنهم لم يبلغوا مستوى الشاعرين السالفين، لا سيما «كاتب الانشاء» الذي كان بحق شاعر العهد المملوكي، والأكثر وعياً بالتاريخ وتداعياته، مخاطباً السلطان، بعد انتصاره في معركة جيمان[3] (673/ 1274)، على تحالف المغول والروم والفرنج، قائلاً من قصيدة طويلة:

(1) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات ج4 ص350 ـ 351.
(2) المغول، أبو المحاسن، نجوم ج7 ص160.
(3) نهر يمرّ بالمصّيصة وهي من ثغور الشام قريبة من طرسوس. ياقوت، معجم ج5 ص145.

كذا فلتكن في الله تمضي العزائم وإلا فلا تجفو الجفونُ الصوارم
مليك يلوذ الدين من عزماته بركنٍ له الفتح المبين دعائم
مليك لأبكار الأقاليم نحوه حنينٌ كذا تهوى الكرام الكرائم
غدا ظاهراً بالظاهر النصر فيهم تبيد الليالي والعدا وهو دائم
فلا زلت منصور اللواء مؤيَّداً على الكفر ما ناحت وأبكت حمائم[1]

وبعد وفاة السلطان الظاهر (676/ 1277)، كادت دولة المماليك يصيبها من الانقسام ما وقع لدولة الأيوبيين، حين عمد السلطان من قبل إلى تعيين ابنه الذي سيعرف بـ«الملك السعيد» وريثاً له في الحكم. ولكن مجيء الملك المنصور (قلاوون) عبر انقلاب عليه، حصّن استمرارية هذه الدولة، بما يتكافأ مع نهج الملك المؤسس، خصوصاً في التصدي للأخطار التي كانت ما تزال محدقة بها على جبهتي المغول والصليبيين، فضلاً عن الجبهة الداخلية (تمرد سنقر الأشقر). وإذا كانت الانتصارات مادة إلهام للشعراء في كل زمن، فإن الملك المنصور الذي اكتسب عن جدارة لقبه هذا، مقاتلاً شديد المراس في الحرب، حظي بنصيب وفير من مدائحهم، وبينهم في المقدمة شاعر المرحلة نفسه شهاب الدين محمود، الذي قال مخلّداً فتح السلطان لحصن المرقب الصليبي، بقصيدة من أرقى الشعر في ذلك الحين وقد جاء فيها:

الله أكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما قالت السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحتْ إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك فطال عنه وما في باعه قِصر
أوردتها المرقب العالي وليس سوى ماء المجرّة في أرجائها نَهَرُ
كأنه وكأن الجوّ يكنفه وهمٌّ تُمثّله في طيّها الفِكَر

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص171 ـ 172.

تعلو الرياح إليه كي تحيط به ... خُبْرٌ وتدنو وما في ضمنها خبر
وأُضرمت حوله نارٌ لها لهبٌ ... من السيوف ومن نيل الوغى شرر
ركبتَ في جندك الأولى إليه ضحىً ... والنصر يتلوك منه جندك الأخر
إن لم يوفّ الوَرى بالشكر ما فتحتْ ... يداك فالله والأملاك قد شكروا[1]

وهي قصيدة طويلة يتجلى فيها النفس الملحمي، لشاعر واكب عن كثب جهاد السلاطين الثلاثة الأعظم في دولة المماليك: الظاهر والمنصور والأشرف (خليل). كما تتجلى فيها، إلى جانب الموهبة ومتانة اللغة، ثقافة إسلامية واسعة جعلته إمام عصره[2]. وبالحماسة عينها يهلل شهاب الدين لفتح طرابلس على يد السلطان نفسه، وهي ثالث إمارات الصليبيين المستعادة بعد الرها وأنطاكية، فيمتدح فاتحها بقصيدة تعكس رؤيته، وهو الفقيه، إلى النصر المحاط بالعناية الإلهية ويقول فيها:

علينا لمن أولاك نعمة الشكر ... لأنك للإسلام يا سيفه ذخر
ولله في إعلاء ملكك في الورى ... مراد وفي التأييد يوم الوغى سرّ
ألا هكذا يا وارث الملك فليكن ... جهاد العدا لا ما توالى به الدهر
نهضت إلى عليا طرابلسَ التي ... أقلُّ عناها أن خندقها البحر[3]

كان المماليك في الواقع مفعمين بذلك المناخ الجهادي ومن حولهم جبهة داخلية متماسكة، تتيح لهم التفرغ لشؤون الحرب. ولم يكن الأشرف خليل، ثالث هؤلاء الكبار من السلاطين، أقلّ تأثراً بذلك من سلفيه، فما إن تولى الحكم بعد أبيه قلاوون حتى «استفتح الجهاد. . ـ حسب مروية ابن شاكر الكتبي ـ وسار فنازل عكا وافتتحها ونظّف الشام كلّه من الفرنج»[4]. ومما يعنيه ذلك أن

---

(1) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص318 ـ 319.
(2) الكتبي، فوات الوفيات ج4 ص82.
(3) أبو المحاسن، نجوم ج7 ص323 ـ 324.
(4) فوات الوفيات، ج2 ص406.

هذا السلطان الشجاع، قد وضع خاتمة للاحتلال الصليبي، الذي دام نحو قرنين من الزمن. وكان لسقوط آخر معاقل الغزاة في الشام (عكا)، دوي كبير في أرجاء العالم الإسلامي، حيث توجهت الأنظار إلى الأشرف، رجل المرحلة الذي حقق ما صبتْ إليه الآمال منذ تلك الأزمنة البعيدة. وفي المناسبة المهمة يتقدم الشاعر نفسه، الشاهد على الفتوحات العظيمة، شهاب الدين محمود، بقصيدته المطوّلة، مؤرخاً لذلك الحدث على إيقاع ملحمي، ومما جاء فيها:

هذا الذي كانت الآمال لو طلبتْ ... رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب

ما بعد عكا وقد هُدّت قواعدها ... في البحر للشرك عند البرّ من أرب

أما الحروب فكم قد أنشأتْ فتناً ... شاب الوليد بها هولاً ولم تَشُب

كم رامها ورماها قبله ملك ... جمّ الجيوش فلم يظفر ولم يجب

لم ترض همّته إلاّ الذي قعدت ... للعجز عنه ملوك العُجم والعرب

يا يوم عكا لقد أنسيتَ ما سبقت ... به الفتوح وما قد خطّ في الكتب

وهي قصيدة تتجاوز الستين بيتاً، وقد انطلق الشاعر فيها من الرؤية عينها التي سادت منظوماته السالفة، عاكسةً حالة التعصّب الديني المتبادل وقذف أحدهما الآخر بالكفر، على الجبهتين الإسلامية والصليبية. وقد بلغ من شدة تأثّره بسقوط المدينة التي باتت رمزاً للتحرير من الاحتلال الأجنبي، أنه أفاض حتى المبالغة في مديح السلطان الأشرف واجداً فيه الملك الأعظم بين الملوك، والقائد المجلّي الذي لم يسبقه أحد إلى فتوحه:

لم يُلهه ملكُه، بل في أوائله ... نال الذي لم ينله الناس في الحقب

من كان مبدأه عكا وصور معاً ... فالصين أدنى إلى كفيه من حلب

ولا غرو في ذلك، فإن فتح عكا كان حلماً بعيداً، حوّله الأشرف إلى حقيقة واقعه، فكان لا بدّ أن يُحدث من الابتهاج لدى المسلمين، ما اضطربت به نفس الشاعر من أحاسيس عاصفة، أخذت به إلى الغلو في التعبير عن فرادة

القائد المنتصر، وإبراز صفاته البطولية الخارقة. فقد كانت عكا ـ الحلم، ما يستحق هذا الأطناب، ولم يعد بعدها ما يثير قلق دولة المماليك التي توّجت سياستها الجهادية بذلك الإنجاز، بل إن السلطان الأشرف مال حينئذٍ إلى مقارعة البيزنطيين الذين ما انفكّت بعض جيوبهم التخومية، متواطئةً مع الاحتلال الصليبي، فهاجم إحدى قلاعهم وافتتحها في أعقاب سقوط عكا (1291م). ولكن ذلك لم يكن له من الوقع ما كان لفتح عكا، إلا أن قصيدة الشاعر في هذه المناسبة لم تخلُ من لمحات إبداعية، أكثر ما عبّرت عنها الصورة الشعرية الجميلة، على ما يكتنفها من تداعيات مستفيضة للتاريخ، مما يعكس فرادة هذا الشاعر المتألّق في زمانه، وحضوره البارز في دائرة الحدث العاصف. ومما جاء في قصيدته مادحاً الأشرف خليل:

وفتحٌ إثر فتح كأنما ... سماء بدت تترى كواكبها الزُهر
فكم وطئت طوعاً وكرهاً معاقلٌ ... مضى الدهر عنها وهي عائشة بكر
ففي كل قطر للعدى وحصونهم ... من الخوف أسياف تجردُ أو حصر
وما قلعة الروم التي حزت فتحها ... وإن عظمتْ إلا إلى غيرها جسر
محجّبةٌ بين الجبال كأنها ... إذا ما تبدّت في ضمائرها سرّ
يحيط بها نهران تبرز فيهما ... كما لاح يوماً في قلائده النحر
تخاض متون السحب فيها كأنها ... إذا ما استدارت حول أبراجها نهر
لها طرقٌ كالوهم أعيا سلوكه ... على الفكر حتى ما يخيّلُه الفكر
.. فأحرزتَها بالسيف قهراً وهكذا ... فتوحك فيما قد مضى كلها قسر
غدت بشعار الأشرف الملك الذي ... له الأرض دار وهي من حسنها قصر
وكانت قذىً في ناظر الدين فانجلى ... وذخراً لأهل الشرك ما يعكس الأمر[1]

(1) الكتبي، فوات ج1 ص414 ـ 415.

وهكذا الانتصارات، دائماً تفجّر القرائح، وإذا بالشعراء ـ وهم مؤرخو اللحظة الأكثر رهافة ـ يراودون الحدث، بما يُغني أحياناً عن ركام المرويات المزدحمة بالتفاصيل الثانوية. ويأتي شهاب الدين محمود في طليعة الذين واكبوا عهود السلاطين المماليك الأوائل، مؤرخاً انتصاراتهم أكثر مما هو شاعرهم الباحث عن المال والشهرة في بلاطهم. فهو من موقعه، فقيهاً وقاضياً وكاتب ديوان الإنشاء في دمشق[1]، منخرط في تلك الحركة، وصاحب دور فيها، يجسّد هموم مجتمعه وتطلّعاته وانفعالاته. ومن هذا المنظور يكتسب شهاب الدين أهميته، شاعراً مثقفاً، ومكتنهاً بعمق تحديات المرحلة، وملتزماً بالتالي بقضية عاشت في وجدانه، واستمدّ منها روائعه شبه «الملحمية» في الزمن غير العادي.

ولعل من عناصر هذا التوهج في شعره، هو ارتباطه الوثيق بالأرض التي ولد فيها ونشأ وتدرّج في المواقع، وما انفك خلال ذلك يرى في انتصارات المماليك، ما يدفع عنها أخطار المتربصين بها. يقول تحت تأثير حالة وجدية عارمة، بعد ابتعاده وقتاً قصيراً عن موطنه:

أعليَّ في حب الديار ملام ... أم هل تذكّرها عليَّ حرام
دارُ الأحبة والهوى وشبيبةٍ ... ذهبت وجيران عليَّ كرام
لو عاد لي عصر الشباب رأيتها ... بعيون صبّ ماؤهن غرام[2]

والشعر عموماً، سواء في العهد الأيوبي أو في العهد المملوكي كان، على بعض تباينات في أغراضه، عابقاً بالتاريخ الذي استعيد زمامه، بعد أن أفلت لوقت طويل، منذ انكفاء الانتصارات على أيام سيف الدولة إبّان حروبه الشهيرة مع البيزنطيين. وإذا كان السلاجقة آخر القوى العسكرية المهيمنة على خلافة بني العباس، قد استهلّوا عهدهم في المنطقة بمعركة ملاذكرد، فإن الأخيرة ترافقت

(1) الكتبي، فوات، ج4 ص82.
(2) المصدر نفسه ج4 ص92.

في الوقت عينه مع بداية تعثّر الحركة التاريخية على تلك الجبهة، نتيجة للتمزق الذي أصابها وأحالها إلى دويلات متصارعة، عاجزة عن إبداء أية ممانعة جدية ضد الغزو الصليبي الذي استهدفها في ذلك الحين. ومن البديهي أن الحروب الصليبية، المنطلقة من حركة الإحياء الديني في أوروبا، أن تثير في وجهها حركة مماثلة في الشرق الإسلامي، محورها الجهاد الذي استعاد حيويته الدينية، في ظلّ الصحوة الأولى،التي عبّر عنها البيت الزنكي بصورة خاصة. ومن البديهي أيضاً، أن الشعراء، وهم غالباً فقهاء، في مواكبتهم القريبة لتلك الأحداث، كانت قصائدهم تضطرب بهذا المناخ الديني، وترى إلى تلك الحروب بأنها صراع مصيري بين الإسلام وأعدائه. وكان مألوفاً استخدام مصطلح الشرك والكفر في أدبيات المرحلة، بمثل ما تداول الصليبيون مصطلحات مشابهة لا سيما «الكفّار» في الإشارة إلى المسلمين، مما يؤكد هذه السمة الدينية الطاغية على تلك الحروب، سواء في فعلها المسيحي أو ردّة الفعل الإسلامي، أو العكس بعد تغيّر موازين القوى في المنطقة في أعقاب معركة حطين.

كان ذلك ما انعكس على حركة الشاعر في ظلّ منظومة الجهاد، وإن كانت الأخيرة اتخذت بعداً أكثر جذرية في العهد المملوكي، متأثرةً بطبيعة الصراع الذي شكل خطراً على الهوية الحضارية للمسلمين، وليس على نفوذهم السياسي فقط. وأمام هذا التحدّي نزع ذلك العهد إلى الحسم العسكري، فيما كانت السياسة وما نجم عنها من معاهدات صلح، ما لجأ إليها أحياناً الأيوبيون، دون أن يجد شاعر مثل ابن النبيه المصري، حرجاً في التشجيع على هذا الاتجاه الأخير، كما تمثل في قوله السالف:

إن جنحوا للسلم فاجنح ... ما خِدَع الحرب بتقصير

ولا حاجة إلى التذكير أيضاً، بحادثة تسليم القدس والذي كان اللجوء إليه بضغط من الصراع الداخلي بين أمراء الأسرة الأيوبية، الأمر الذي أحدث استياءً عاماً، وشكّل عملياً بداية انهيار هذه الأسرة، بعد انحرافها عن الخطّ الجذري لسياسة المرحلة، وتخلّيها عن القضية المحورية فيها، وهي القدس.

ونصبح حينئذٍ أمام مقارنة لا بدّ منها، بين الشعر الأيوبي ومثيله المملوكي، لا سيما وأن غرضاً مشتركاً جمع بينهما، وهو الجهاد ضد الصليبيين. وفي مقدمة ما يتراءى لنا في هذا السياق، أن المديح، وإن كان غاية كليهما، إلا أن شخصية السلطان طغت على قصيدة الشاعر الأيوبي، بينما كانت الموضوعة أكثر نبضاً في القصيدة المملوكية، من دون أن تخلو بدورها من غلو في التعرّض لصفات السلطان وبطولاته «الخارقة». ويمكن التوقف هنا عند قصيدة الشاغوري في صلاح الدين، بعد انتصاره على الصليبيين في دمياط (565/ 1169)، وهي عدا التكلّف الواضح فيها، لا يرى الشاعر حرجاً في التلميح إلى سوء حاله، وإبداء الأمل بأن يجزل له ما يفي بحاجته:

جحافله أُسْدٌ تزأر في الوغى ... وما غيلها إلا القنا والقنابل
يسير بجيش يُرجف الأرض بأسُه ... وتبدو لها في كل قطر زلازل
خميس له الرايات ظلّ وفوقه ... من الطير ظلّ يحجب الشمسَ سادل
... إليك صلاح الدين سارت مدائحي ... ومثلك من تزكو لديه الفواضل
أَجِرنيَ من فقرٍ ملحٍّ وإن أقُل ... أجِرْني فكلٌّ منك لا شك حاصل[1]

ولعل المقارنة يمكن اختزالها بصورة أكثر تحديداً بين شاعرين، ترك كلاهما بصمة في الزمن الذي عاش فيه، وهما: العماد الأصفهاني في العهد الأيوبي وما قبله، وشهاب الدين محمود، المعاصر لعهود ثلاثة من كبار سلاطين المماليك. وإذا كان الأول قد حظي بمكانة، جعلته الأبرز بين رجالات عصره، فإن الثاني لم يكن أقل شأناً في موقعه، وإن لم يُحط بالرعاية السلطانية عينها لسلفه. فقد عاصر الأصفهاني ما يمكن أن نصفه بالتاريخ المتحوّل، مع انبثاق الصحوة الإسلامية الأولى على يد الزنكيين، وما أدّت إليه من تغيير موازين

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين ج1 ص182. ديوان الشاغوري، ص317 ـ 318.

الصراع التي ظلّت لعقودٍ محكومة بالتفوّق الصليبي في الشام، فكان في صميم هذه التحولات التي واكبها نصّه الشعري العابق بالتاريخ، مما نجده على الخصوص في قصيدته السينية التي مدح بها السلطان الأيوبي بعد معركة حطين متوقفاً عند تحرير عكا التي يقول فيها كما سلفت الإشارة:

وعكا وما عكا فقد كان فتحها لإجلائهم عن مُدْن ساحلهم كنسا

وفي موازاة ذلك تبدى لنا شهاب الدين محمود، ينظم التاريخ فيتداعى بانسياب في نصّه، المتّسم بالرقّة والجزالة في آن، على نحو ما تميزت قصيدته في عكا أيضاً بعد تحريرها نهائياً من الاحتلال الصليبي:

يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت به الفتوح وما قد خُطّ في الكتب

هذا التفاوت بين المثالين السالفين، يمكن أن يُردّ إلى طبيعة المرحلة التي عاصرها كلٌّ من الأصفهاني وشهاب الدين، أكثر مما يُردّ إلى تفوّق أحدهما على الآخر في نصّه الشعري. فإذا استثنينا النصر في «حطين» متوَّجاً بتحرير القدس، فإن العهد الأيوبي مال إلى الركود نسبياً في مقارعة الصليبيين، بعد صلح الرملة والتنازل عن عكا ومدن أخرى، ولم تقم محاولات جدية لاستعادتها من جانب «ملوك» الأسرة الأيوبية، المنصرفين إلى شؤونهم الداخلية. وخلافاً لذلك، وجدنا حركة الجهاد في صعود مستمر خلال عهد المماليك، على الرغم من تعدّد الجبهات المناوئة لهم، والتي كانت تتّسع أحياناً لتشمل المغول والصليبيين والبيزنطيين وحلفاء آخرين معاً. وإذا كان صلحا عكا ويافا، خارج هذه المعادلة، فقد جاء كلاهما لمصلحة الخطط الحربية للمماليك، وليس ابتغاءً للسلم الذي افتقدته المرحلة في ذلك الحين.

وإذا كان ثمة تشابه في الظروف التي مهّدت لقيام الدولتين الأيوبية والمملوكية، بانطلاقة الأولى من تراث الزنكيين، والثانية من عين جالوت، مستمدة كلتاهما الشرعية من هذا المصدر دون غيره، فإن المماليك، مجتمعاً

عسكرياً صارماً، كان في الواقع أكثر كفاءة في مواجهة التحديات، وانخراطاً في الدور الذي تصدى له في إنقاذ العالم الإسلامي، هوية وحضارةً، من المغول، وفي تحرير الشام من الاحتلال الصليبي، مؤكدين ذلك في استمرار دولتهم لأكثر من قرنين ونصف، فيما تعثرت مسيرة الدولة الأيوبية، فلم تبلغ القرن من الزمن.

الخاتمة

ليست «الخاتمة» دائماً آخر الكلام، خصوصاً إذا كان البحث مندرجاً في الدراسات التاريخية الإسلامية، المبنية أساساً على مرويات، ليست كلّ معطياتها خارج دائرة الشك، على الأقل في اتجاهاتها التي تعكس صورة السلطة في عالمها الخاص، غير ملتفتة إلى تواريخ حولها، كانت ما تزال محاصرة أو يكتنفها الضباب. وتصبح ـ أي الخاتمة ـ أكثر صعوبة، حين تنطلق من منهج تحليلي يميل إلى التكثيف في تفسير الظواهر التاريخية، متجنّباً التفاصيل المطابقة غالباً لتلك المرويات التي تورد الخبر غير متّصل دائماً بأسبابه وخلفياته، ومؤثراته الداخلية والخارجية المتفاعلة معه.

بهذه الرؤية، حرصتْ هذه الدراسة على الخوض في موضوعة «الصراع على الشام»، خلال مرحلة اضطربت مسيرةُ التاريخ فيها بتحوّلات عاصفة، لم تُصب تحدياتها الأرض والناس والثقافة فحسب، بل كانت الهوية الحضارية مما استهدفته، وكادت في لحظة ما من ذلك الطوفان الجارف أن تودي بها وتقتلع جذورها الراسخة. كان التاريخ من قبل بطيء الحركة، شرقاً وغرباً على السواء، حيث الخلافة العباسية من جهة رضخت لقوى الأمر الواقع، مُمثّلةً بأولئك القادة العسكريين، الحديثي العهد بالإسلام. وقد أخذ بهم الصراع على النفوذ عن التّصدي للخطر الخارجي، مهملين تحصين الثغور التي تجرّأ البيزنطيون عليها،

ولم يتورعوا عن اجتياحها متقدّمين إلى مواقع في عمق الشام، بما فيها القدس. ومن جهة ثانية، كان الغرب الأوروبي، منكفئاً على صراعات دموية، ومعزولاً عمّا كان يجري من تغيّرات في عالم ذلك الزمن، حتى كانت صرخة البابوية المدوّية، التي أنقذته من أزمته الداخلية، ولكن لتدفع به نحو أزمات ما كان قادراً بوعيه وثقافته حينذاك على الخروج بسهولة منها.

لقد قامت الدعوة الصليبية في الظاهر استجابة لما يُسمى بحركة «الإحياء الديني» في أوروبا، بشعاراتها الفضفاضة المُروّجة لعالمٍ مسيحي مطابق لما دار في خلد البابوية، الطامحة إلى السيادة المطلقة فيه. ولكنها في مضمونها، كانت الحوافز الدنيوية ما طغت على حركتها، بما فيها المتعلّقة بموقف الكنسيين، الذين نافس بعضهم الأمراء الإقطاعيين في غرائزهم السلطوية. ومما يعنيه ذلك، أن هذه الحركة الصليبية، وإن حققت أهدافها المبدئية في الوصول إلى القدس، إلا أنها فقدت صدقيتها في أول الطريق، لا سيما بعد انحراف أحد كبار قادتها (بلدوين) عن خطّ سيرها، لإقامة مركز نفوذ له في الرّها، مُمهّداً لآخرين مثل هذا «الانحراف» عن الغاية المقدسة، بتأسيس إمارات بدت خارج المشروع الأساسي وأهدافه البعيدة.

ومن هذا المنظور، فإن القول بأن الحركة الصليبية انطلقت من مثلث أضلاعه: الدين والسياسة والتجارة، ما يعبّر بدقة عن واقعها، بما في ذلك البدايات التي تجلّت مبكراً فيها الميول الدنيوية، ربما باستثناء ما ظهر من سلوك غودفري دي بويون، الشخصية المفعمة بالنقاء الديني، إذا توقفنا عند وصف غروسيه له، «كحاج ورع رحوم، متّسم بالدماثة، معطاء، فضلاً عن تواضعه المسيحي»[1]. «وقد أُثِر عنه ـ يضيف المؤرخ الفرنسي ـ رفضه اعتلاء عرش القدس التي لم يعتمر فيها المسيح سوى تاج من الشوك، وسيكتفي بلقب

(1) Grousset, L'épopée des croisades. P.160.

متواضع هو «وكيل قبر المسيح»، احتراماً منه لحقوق الكنيسة في المدينة المقدسة»[1].

أما الكونتات والبارونات الآخرون، فكان جلّ ما يطمحون إليه، هو إقامة مراكز نفوذ لهم في الشرق لم تتح لهم في بلادهم، وما لبثوا أن تخلّوا مبكِّراً عن الفكرة الصليبية، بصورتها البابوية، وتأقلموا في البيئة الشرقية، إلى حدّ التحالف أحياناً مع بعض القوى الإسلامية، حفاظاً على أمنهم السياسي في المنطقة. وليس أكثر بعداً عن جوهر تلك الفكرة ورسالتها، من المدن الإيطالية التي كانت التجارة محور اهتمامها، حتى في سياق تنفيذها لأغراض «صليبية»، على نحو ما شهدناه في المرحلة المتأخرة، من احتكار الجنويين لتجارة طرابلس، والبنادقة لتجارة عكا، دون أن يكون لهم دور فعلي في دفع السقوط عن المدينتين.

ولكن التاريخ الذي كانت الشام قد أصبحت هامشاً فيه، بعد انتقال مركز الخلافة إلى العراق، ما لبث أن استعاد حركته، أو جزءاً منها بعد الغزو الصليبي، على الرغم من استمرار القوى الحاكمة، المتخاذلة أمام الأخير، مهيمنة لوقتٍ في المنطقة. فقد استطاعت، على الأقل، ردع مشروعه (الغزو)، وعدم تمكينه من التوسع نحو الداخل، بما يلبي اتجاهاته العالمية في ذلك الحين. ولكن الصمود طويلاً، كان فوق طاقة هذه القوى المتصارعة، والتي تأقلمت بدورها مع الواقع، وتذبذبت في مواقفها بين معاداة الصليبيين، والتقارب منهم في الوقت عينه. وكان على الشام أن تنتظر حتى ظهور ما أطلقنا عليه «الصحوة الأولى»، متوّجةً بالسيطرة الزنكية (نور الدين) عليها، واتخاذها، لأول مرة، خطة مرتكزة على إحياء حركة الجهاد، كان من تعبيراتها، مشروع وحدة الجبهة الإسلامية، سبيلاً إلى تحرير المنطقة من الاحتلال الصليبي، وبفضل هذه الجبهة نجحت الشام، وإن بصورة غير حاسمة، فيما أخفق فيه العراق أمام الاجتياح المغولي فيما بعد.

---

(1) Grousset op.cit. P.17.

وكانت الصحوة الأولى قد تكلّلت بالنصر في حطين، التي جاءت نتيجة موضوعية لوحدة تلك الجبهة، ما شكّل ضربة قاسية للمشروع الصليبي، إذ تعثّرت حركته بعد سقوط القدس، وافتقد مركزيته الموائمة، بعد عجز الإمارات الباقية عن ملء هذا الفراغ، لأسباب جغرافية ودينية وسياسية معاً. ولم يكن ما يعوّق حينذاك صلاح الدين، وقد نقل مقرّه إلى الشام بعد المعركة المظفرة، عن متابعة حرب التحرير، وصولاً إلى النهاية الحاسمة للنفوذ الصليبي في المنطقة. ولكن الحملة الثالثة التي جمعت أبرز ملوك أوروبا في ذلك الزمن، حدّت من طموح السلطان الأيوبي الذي انهمك في الحفاظ على القدس، الهدف الرئيس لتلك الحملة. فاضطر، على الرغم من صعوبات واجهت مهمّة الصليبيين الغربيين وأربكت خططهم الحربية، إلى الدخول في مفاوضات مع الملك البريطاني، تمخضت عن «صلح الرملة»، والذي تنازل السلطان نتيجة له، عن عدد من المدن الساحلية، لقاء بقاء القدس في أيدي المسلمين.

ولعل موت صلاح الدين في أعقاب ذلك الصلح، وضع حدّاً للصحوة، بعد انقسام دولته وانتعاشٍ، بموازاته، للحركة الصليبية التي استعادت بعض حيويتها السالفة، معتمدةً على حصانة مواقعها الحربية، لا سيما المدن الساحلية المستعادة، فضلاً عن مساعدات أخذت تفد عليها من الغرب. وخلافاً لذلك شهدت الجبهة الإسلامية تراجعاً للحوافز الجهادية، بعد احتدام التنافس بين أمراء الأسرة الأيوبية، مما سيؤدي بها إلى التفكك، والعودة إلى مرحلة ما قبل الزنكيين، وربما إلى تجاوزه، انكفاءً وركوداً في بعض الأحيان، إذا توقفنا عند تنازل الملك الكامل عن القدس، ابتغاءً لدعم الصليبيين له ضد خصومه من البيت الأيوبي.

وإذا كانت البداية الفعلية لدولة الأيوبيين، قد انطلقت من «حطّين» فإن نهايتها الفعلية ستقترن بمعركة مظفرة أيضاً، ولكن دون أن يكونوا مادة النصر فيها، وهي معركة فارسكور التي رهصت بتاريخ «انقلابي»، لم تشهد المرحلة السابقة مثيلاً له. ولكن البداية الحقيقية لدولة المماليك لم تكن من هذه

المعركة، وإن كانت هذه قد أظهرتهم قوة أساسية في المعادلة السياسية المستجدّة، كذلك في معادلة الحرب التي اشتدّ أوارها حينئذٍ في المشرق الإسلامي، مهدّدة عاصمة الخلافة باجتياح مريع. ففي تلك الفترة الانتقالية، من الحكم الأيوبي إلى سيطرة المماليك في مصر، كان من الصعب المراهنة على نجاح هؤلاء، وقد غرقوا بدورهم حينذاك في صراعات دموية عنيفة، في الوقت الذي عانت الشام فيه انقسامات مماثلة، لم تخفّف حدّتها أن تكون الأخيرة أمام خطر قادم مريع. كان ذلك عشية الاجتياح المغولي للعراق، ثم تحوله من دون عناء إلى حلب، فدمشق، مهدِّداً مصر باجتياح مشابه، لم تكن الأخيرة مستعدة له. ولكن المماليك، بدل أن يسارعوا إلى الإذعان والتسليم بالأمر الواقع، على غرار ما كان من موقف الأيوبيين في الشام، وجدوا في المحنة سبيلاً إلى توحيد صفوفهم، والتصدّي جبهة متماسكة، لقوة عسكرية لم تعرف الهزيمة في زمانها. فقد أمسكوا بوعيهم التاريخي اللّماح بعنان اللحظة، مُدركين خطورة الهجمة العاتية، في استهدافها ليس التوسع فقط، وإنما كان الإسلام ما يواجه تداعياتها بصورة مباشرة. بهذه الرؤية تحرّك نائب السلطان حينئذٍ (قطز)، فدعا إلى مجلس حربي، اتخذ فيه قراره بالتصدي للزحف المغولي، وذلك بحضور كبار الفقهاء، نظراً لأهمية دورهم في توسيع دائرة التعبئة، وتوفير الأموال لها، بما يقتضيه الواجب الشرعي للجهاد.

وهكذا فإن دولة المماليك التي انبثقت من حالة جهادية تأسست على ما يمكن توصيفه بالصحوة الثانية أو الكبرى، تمايزاً عن «الصحوة الأولى» التي تجلّت آخر اندفاعاتها في حطّين وتحرير القدس في أعقابها، بينما تلك المنطلقة من عين جالوت، ما برحتْ مستمرة، متوهجة في فتوحات السلاطين الكبار. ويبقى السؤال الصعب في صخب هذه التحوّلات عن موعد «الصحوة الثالثة» التي ما تزال متعثرة في هذا الزمن، على الرغم من معطيات وممانعات وتضحيات مشابهة لما قبل الصحوتين السالفتين؟ إلا أن الأنظمة ماضياً لم تجرؤ ـ كما هو اليوم ـ على إعلان التخلي عن القضية، خصوصاً في العهد

المملوكي، إذ كان سلاطينه، طليعة المجاهدين، الذين يقودون الحملات ويخوضون مباشرة في عملياتها المظفرة.

وثمة سؤال آخر يطرح بشكل تلقائي في ذلك السياق التاريخي، وهو المتعلق بالموقف الملتبس للصليبيين إزاء الصراع الإسلامي ـ المغولي، لا سيما في الفترة السابقة على معركة عين جالوت؟ وما لدينا من معطيات في هذا الاتجاه لا يتعدى محاولات خجولة من جانب هولاكو وحلفائه للتحالف معهم، ولكنها انتهت إلى الفشل على أرض الواقع. فقد كان الصليبيون يتوقون إلى مثل هذا التحالف، لا سيما في ذلك الوقت الذي ما برح لويس التاسع خلاله في عكا، متعطشاً إلى الانتقام بعد هزيمته وأسره في المنصورة. بيد أن أزمة الثقة بين الجانبين، حالت دون التقائهما عند جامع مشترك أو حدّ أدنى منه، إذ كان المغول بغطرسة المنتصر وغروره، يرون في الصليبيين طرفاً أقل شأناً وقوة، مما ليس يؤهله إلى مستوى الحليف معهم، بينما رأى هؤلاء في الوافدين الجدد، قبائل غير متحضرة، جاءت تنافسهم، بل وتنتزع منهم المشروع الذي قاتلوا طويلاً في سبيله.

أما الطرف الثالث (المماليك)، فلم يكن ممكناً التحالف بينهم وبين الصليبيين، ولكنهم وجدوا في تحييدهم ما يعزّز احتمالات النصر لديهم، في وقت بدا هؤلاء أكثر استجابة لهذا الموقف، من الالتحاق بمصير مجهول مع جبهة المغول، لا سيما وأن مواقعهم في الشام باتت شبه محاصرة ومعزولة بصورة ما عن عمقها الأوروبي. وإزاء ذلك تقدّم المماليك بثقة أكبر، لمواجهة المغول، حيث المعركة الحاسمة في عين جالوت التي تصدّت لذلك التاريخ «الانقلابي»، بصورته السلبية، بانتصارٍ تاريخي له أيضاً سمته «الانقلابية»، ولكن من منظور إيجابي، واضعةً حدّاً للإعصار الجارف الذي كانت الحضارة العربية الإسلامية، أكثر ما عانت المآسي الناجمة عنه. فقد خاض المماليك الحرب في عين جالوت، على أنها قضية مصيرية، دفاعاً عن عقيدتهم وهويتهم، ووجودهم المهدد بالزوال، واكتسبوا نتيجة لذلك هالةً، كانت قد سقطت عن الأيوبيين بعد تخاذلهم في الدفاع عن الشام، مما تجلى في استقبال الأخيرة بحفاوة بالغة للقائد

المنتصر (قطز)، الذي حرّرها من نير الاحتلال المغولي.

ومن عين جالوت، الصحوة الكبرى، كانت البداية الحقيقية لدولة المماليك، حيث انبثقت شرعيتها التي سرعان ما أخذت تتلاشى أمامها الشرعية الأيوبية، لا سيما بعد الدور الذي تولاّه السلطان بيبرس، في متابعة الجهاد ضد المغول ودفع خطرهم عن الشام، قبل كسر شوكتهم أخيراً على يد السلطان قلاوون، وانكفائهم وراء حدود العراق، معترفين قسراً بفشل مشروعهم التوسّعي الكبير. ولعل المقارنة تفرض نفسها هنا، بين المعركتين الأعظم بعد معارك الفتوح الأولى في التاريخ الإسلامي، وهي مقارنة ستؤول من دون جهد لمصلحة عين جالوت على حساب حطّين. ففي حين أسفرت الأخيرة عن ضربة قاسية للوجود الصليبي في الشام، إلا أنها بانتهائها إلى الصلح، كرّست هذا الوجود، مُعتَرفاً لأول مرة به، ومن ثم أطالت أمده نيفاً وقرناً في المنطقة، كانت الأولى (عين جالوت) حاسمة في الانتصار على المغول، فلم تستجب لمحاولات الصلح معهم، على الرغم من تهديدهم لوقت طويل الجبهة الشامية، كما كانت حاسمة بالنسبة للصليبيين، الذين تراجع نفوذهم كثيراً بعد هذه المعركة وانتهى بهم الأمر إلى الجلاء نهائياً عن المنطقة.

لقد حاول المغول اختراق جبهة الصليبيين عبر التظاهر بالمسيحية، ولكنهم فشلوا في ذلك، لانعدام الشروط الموضوعية في هذا الاتجاه، كما فشلوا في اختراق جبهة المماليك عبر الإسلام، ولكنهم فشلوا أيضاً، وكان لا بدّ لهم من الاعتراف أخيراً بعجزهم عن احتواء تيارين، لم يرتقوا فكراً وثقافة إلى مستوى كل منهما.. كما أقرّ دعاة المشروع الصليبي بإخفاقه، لفقدانهم ليس فقط الحماسة له بعد الهزائم المتتالية التي لحقت به، ولكن المسوغات الكافية في الأساس لاستمراره، مما جعل أخيراً البابوية التي أطلقت ذلك المشروع تعتذر عنه[1] بعد تلك القرون الطويلة. وبهذه القراءة لعين جالوت، تندرج

(1) جيمس رستون (الابن)، مقاتلون في سبيل الله ص20.

المعركة الخالدة في السياق الذي يجب أن تكون فيه، معركة جاءت في ذروة الصراع على الشام، سواء الصراع الإسلامي ـ الإسلامي، أو الإسلامي ـ الصليبي، أو الإسلامي ـ المغولي، مستردّةً زمام التاريخ الذي أمسك به لفترة غير قصيرة المماليك. وهي بالتالي تستحق اهتماماً أكثر من الباحثين، ووغولاً أبعد في تفاصيلها، على نحو يجعلها، نتائج وتداعيات، في دائرة الضوء الذي ما انفك باهتاً من هذا المنظور في الدراسات التاريخية الإسلامية.

وبناء على ذلك، كان التطرّق إلى موضوعة المجتمع، بما فيها الاقتصاد والثقافة، من ضرورات استكمال هذا البحث الذي اصطدم بفجوات في هذا المجال، إذ كان التاريخ السياسي، كما هو مألوف، ما اتخذ حيزه الأساسي في المرويات، من دون أن يكون متوازناً في تفاصيله، المستفيضة في مكان، والمتخلخلة في مكان آخر، حيث تندرج في الثاني عين جالوت. وثمة ما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق، أن المجتمع، سواء في عهد الأيوبيين أو عهد المماليك، كان مجتمع حرب، بكل ما تعنيه هذه العبارة، شاملاً الفئات كافة، المتعايشة طوال تلك الحقب مع حالات الطوارئ والاستنفار.. كذلك الاقتصاد الموجّه لمصلحة العمليات العسكرية شبه المستمرة. أما الثقافة، فكان من البديهي أن تتخذ دورها الطليعي في ذلك المجتمع، حيث تجلّى من أعلامها مؤرخون وشعراء وفقهاء، تأثروا بذلك المناخ وواكبوا حركة الحدث، وحرّضوا السلاطين على الجهاد. وبدا الشعر، وكأنه ينظم التاريخ، منافساً المصنِّفين فيه، بما جسّده من مواقف نبضت بذلك التراث الذي كانت القدس أبرز عناوينه في زمن الأيوبيين، وعين جالوت وتداعياتها خلال عهد المماليك.

والشعر الذي اتّصف بالغزارة في تلك المرحلة، خصوصاً في العهد الأيوبي، لم تكن الغاية من التعرض له، تحقيق التكامل فقط على مساحة هذه الدراسة، بقدر ما كانت الدلالة ما توخّته الأخيرة، في محاولة إغناء الحدث واكتناه أبعادٍ فيه لم تبلغها الرواية التاريخية. ومن هذا المنظور، فقد بدت المدائح للسلاطين، خصوصاً أولئك الذين اقترنت أسماؤهم بالانتصارات

الكبيرة، مفعمة بالتاريخ، بل إنها أكثر انفعالاً به من المرويات المصنّفة بعد مرور وقت، افتقدت خلاله بعض تفاصيلها، أو أضيف إليها بعضٌ آخر ربما لم يكن، أو على الأقل، بالدقة عينها، في سياقه الأساسي. وفي كل الأحوال، ليست المرويات دائماً مادة المؤرخ الوحيدة فيما يتكئ عليه في أبحاثه، وإنما هو معني برصدها على مساحات أخرى، سواء في كتب الجغرافية أو الفقه أو الخراج والأموال، إلا أن الأدب يبقى أكثرها اتّساقاً بمصادره، وتداخلاً مع موضوعه، وبالتالي أكثر نبضاً بمعطيات التاريخ.

المصادر والمراجع

ابن الأثير ـ عز الدين أبو الحسن علي

ـ **الكامل في التاريخ**. دار صادر ـ بيروت، 1979.

ـ **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة بمصر، 1963.

ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد

ـ **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، بولاق، 1311هـ.

ابن جبير، أحمد بن جبير بن سعيد الكناني

ـ **رحلة ابن جبير**، تقديم محمد مصطفى زيادة ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت (د. ت).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي

ـ **المقدمة**، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1979.

ـ **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**... دار الكتاب اللبناني 1979.

ابن خلّكان، شمس الدين أبو العباس أحمد الشافعي

ـ **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (د. ت).

ابن خيّاط، خليفة بن خياط العصفري

ـ **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق سهيل زكار، دمشق 1968.

ابن الساعاتي، علي بن رستم الخراساني

ـ **ديوان ابن الساعاتي**، تحقيق أنيس المقدسي، المطبعة الأميركانية، بيروت 1939.

ابن سناء الملك، هبة الله أبو القاسم

ـ **ديوان ابن سناء الملك**، تصحيح وتعليق محمد عبد الحق ـ دار الجيل ـ بيروت 1975.

ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر بن عبد الرحمن

ـ **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ـ بيروت (د.ت).

ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل

ـ **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، طبعة باريس 1895.

ابن شدّاد، بهاء الدين يوسف بن رافع

ـ **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق جمال الدين الشيّال، الدار المصرية 1964.

ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم

ـ **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق يحيى زكريا عمار، دار الثقافة ـ دمشق 1991.

ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون

ـ **تاريخ مختصر الدول**، دار المسيرة ـ بيروت (د.ت).

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد

ـ **ذيل تاريخ دمشق**، مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت 1908.

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ اسماعيل

ـ **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف ـ بيروت 1966.

ابن مطروح، الصاحب جمال الدين يحيى بن عيسى

ـ **ديوان ابن مطروح**، طبعة 1298هـ.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري

- **لسان العرب**، دار صادر - بيروت (د. ت).

ابن النبيه المصري، كمال الدين علي بن محمد

- **ديوان ابن النبيه**، تحقيق عمر محمد الأسعد، دار الفكر - القاهرة 1969.

ابن نمير، حسان المعروف بعرفلة الكلبي

- **ديوان عرفلة الكلبي**، تحقيق أحمد الجندي، دار صادر - بيروت 1992.

ابن واصل، جمال الدين أبو عبد الله بن سليم الشافعي

- **مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية - القاهرة 1957.

أبو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم

- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** - القاهرة 1287.
- **الذيل على الروضتين**، تحقيق عزت العطار الحسيني. القاهرة 1947 .

أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل

- **المختصر في تاريخ البشر**، المطبعة الحسينية المصرية (د. ت).

أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي

- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الثقافة - القاهرة (د. ت).

الأصفهاني، عماد الدين بن محمد

- **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تحقيق محمد محمود صبيح، وزارة الثقافة - القاهرة 1965.

البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد المديني

- **سيرة ابن طولون**، نشر محمد كردعلي - دمشق 1939.

البهاء زهير، بهاء الدين زهير بن محمد

- **ديوان البهاء بن زهير**، شرح إبراهيم جزيني، دار الكاتب العربي - بيروت 1968.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم

- **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة ـ العراق 1982.

السخاوي، شمس الدين محمد

- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**. القاهرة 1934.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

- **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة 1969.
- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، طبعة القاهرة 1327هـ.

الشاغوري، فتيان بن علي الأسدي

- **ديوان الشاغوري**، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية ـ دمشق 1976.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير

- **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر 1964.

القاضي الفاضل، عبد الرحيم البيساني

- **ديوان القاضي الفاضل**، تحقيق أحمد أحمد بدوي، دار المعرفة ـ القاهرة 1961.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القاهرة 1919.
- **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار فراج، عالم الكتب ـ بيروت (د.ت).

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي

- **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة 1936.
- **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، المعروف بالخطط المقريزية، دار صادر ـ بيروت (د.ت).

الناصر داوود، الملك الناصر بن عيسى الأيوبي.

- **الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية**، تحقيق ناظم رشيد، دار الشؤون الثقافية - بغداد 1992.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة (د. ت).

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي

- **معجم الأدباء**، دار إحياء التراث العربي - بيروت (د. ت).
- **معجم البلدان**، دار صادر - بيروت 1979.

* * *

- أمير علي، سيد: **مختصر تاريخ العرب**، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت 1961.
- الأمين، حسن: **الغزو المغولي لبلاد الشام**، دار النهار - بيروت 1976
- ــــــــــ: **صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين**، دار الجديد - بيروت 1995.
- أومليل، علي: **الخطاب التاريخي**، دراسة لمنهجية ابن خلدون، معهد الإنماء العربي - بيروت (د. ت).
- ايلسيف، نيكيتا: **الشرق الإسلامي في العصر الوسيط**، ترجمة منصور أبو الحسن، دار الكتاب الحديث - بيروت 1986.
- باركر، ارنست: **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية - بيروت (د. ت).
- بيضون، إبراهيم: **تاريخ بلاد الشام في العصور الإسلامية - في إشكالية الموقع والدور**، شركة المطبوعات - بيروت 2002.
- بيضون، إبراهيم: **المماليك ومأزق الشرعية**، مجلة الاجتهاد، عدد 22 - بيروت 1994.

- جب، هاملتون: **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة إحسان عباس، دار العلم للملايين ـ بيروت.
- رستون، جيمس (الابن): **مقاتلون في سبيل الله (صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة)**، ترجمة رضوان السيد، الرياض 2002.
- زكار، سهيل: **كيف جاءت الحروب الصليبية. . نتائجها**، مجلة الجمعية التاريخية ـ حمص 1992.
- السيد، رضوان: **الفقه والفقهاء والدولة**، مجلة الاجتهاد عدد 3 ـ بيروت 1989.
- شوڤيل، جنفياف: **صلاح الدين بطل الإسلام**، ترجمة جورج أبي صالح، دار الأميرة ـ بيروت (د. ت).
- الشايب، أحمد: **تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني**، دار القلم ـ بيروت 1976.
- الصوري، وليم: **الحروب الصليبية**، ترجمة سهيل زكّار، دار الفكر ـ بيروت 1990.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح: **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، دار النهضة العربية ـ بيروت 1972.
- العبادي، أحمد مختار: **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، دار النهضة العربية ـ بيروت 1969.
- العريني، السيد الباز: **المغول**، دار النهضة العربية ـ بيروت 1967.
- فيشر، هربرت: **تاريخ أوروبا والعصور الوسطى**، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ـ القاهرة 1966.
- قبلان، عبد الكريم: **شعر الحماسة في العصر الزنكي والأيوبي في مصر وبلاد الشام**، أطروحة غير منشورة ـ الجامعة اللبنانية 2000.
- مصطفى، شاكر: **التاريخ العربي والمؤرخون**، دار العلم للملايين ـ بيروت 1978.

❊ ❊ ❊

- Elissèff. N, L'orient Musulman au Moyen-Age. Paris 1977.
- Grousset. R, L'Épopée des croisades. Librairie Plon Paris 1939.
- Grousset. L'Empire des steppes. Payat-Paris.
- Heyat. W, Histoire du commerce du Leveant au moyen age. 1889.
- Lewis. B, AYN Djalut. Ency de l'Islam lettre DOJ.
- Quatremere. E.T, Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte. Paris 1845.
- Richard. J, La Bataille de Hattin: Saladin defait l'occiden L'Histoire Paris 1981.
- Richard. Histoire des croisades. Paris 1996.
- Sourdel. I et D, Dictionnaire Historique de l'Islam. Presses Universitaires de France 1996.
- Weit. G, Histoire de la Nation Egypte. Paris 1926.

الفهرس

الفصل الثالث

الشام في ظلّ الأيوبيين والمماليك ـ المجتمع وثقافة الحرب

كتب صدرت للمؤلف

1 ـ تاريخ العرب السياسي، من فجر الإسلام حتى سقوط بغداد، بالإشتراك مع د. سهيل زكار، دار الفكر بيروت 1974.

2 ـ التوابون (ط2)، دار التعارف (ترجم إلى اللغة الفارسية) 1979.

3 ـ الدولة العربية في إسبانية، من الفتح حتى سقوط الخلافة (ط3) دار النهضة العربية، بيروت 1986.

4 ـ من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دراسة في تكوّن الاتجاهات السياسية في القرن الأول الهجري (ط3) دار النهضة العربية 1991.

5 ـ الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري (ط2) دار النهضة العربية 1995.

6 ـ إتجاهات المعارضة في الكوفة، دراسة في التكوين الاجتماعي والسياسي (41 ـ 71هـ)، معهد الانماء العربي 1987.

7 ـ الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس، دراسة في أدب السلطة، دار النهضة العربية 1987.

8 ـ من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأول ـ دار إقرأ 1986.

9 ـ مؤتمر الجابية (ط2) دار النهضة العربية 1996.

10 ـ الأنصار والرسول، إشكاليات الهجرة والمعارضة في الدولة الإسلامية الأولى، ط2 ـ دار الهادي 2006.

11 ـ مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية، دار المؤرخ العربي 1996.

12 ـ عبد الله بن سبأ، إشكالية النص والدور الأسطورة، دار المؤرخ العربي 1996.

13 ـ تاريخ بلاد الشام، إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية (ط2) شركة المطبوعات 2002.

14 ـ الإمام علي، في رؤية «النهج» و«رواية» التاريخ (ط2) ـ دار بيسان ـ 2006 (حائز الجائزة الأولى في مهرجان الإمام علي ـ إيران 2000) ترجم إلى اللغة الفارسية 2001.

15 ـ قرأت أصواتهم في الدّوي، أوراق جنوبية ـ دار المؤرخ العربي 2000.

16 ـ ثورة الحسين، حدثاً وإشكاليات ـ شركة المطبوعات 2001.

17 ـ الصراع على الشام في عصر الأيوبيين والمماليك، في تحديات الهوية وانقلابية التاريخ ـ دار بيسان 2006.

18 ـ أبحاث في السيطرة العربية والتشيع والحركة المهدية في ظل خلافة بني أمية للمستشرق الهولندي فان فلوتن (ترجمة عن الفرنسية مع دراسة نقدية) (ط3) ـ دار النهضة العربية 1996.

19 ـ ملحمة الحروب الصليبية للمستشرق رينيه غروسيه (ترجمة عن الفرنسية مع سامية زغيب) دار الهادي 2006.